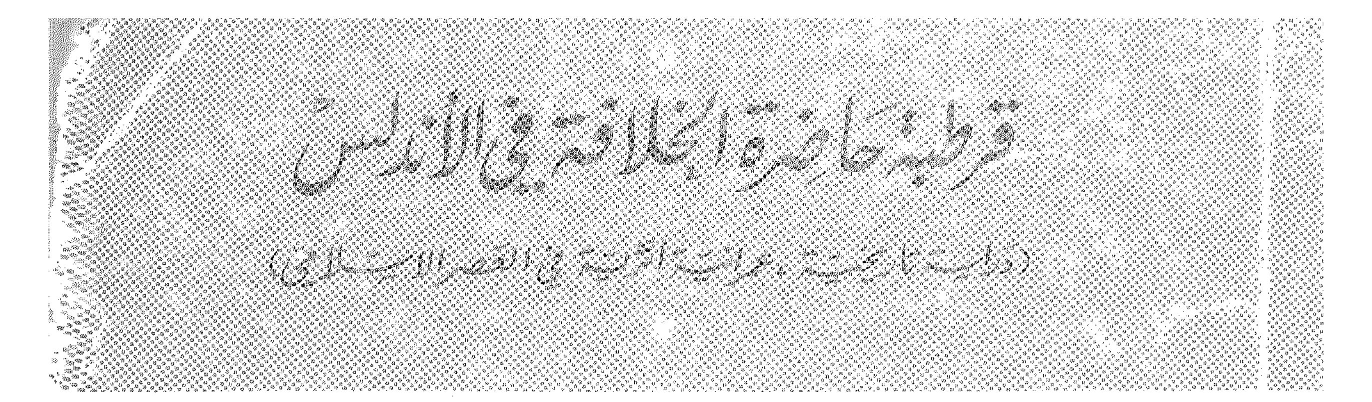
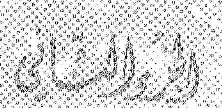
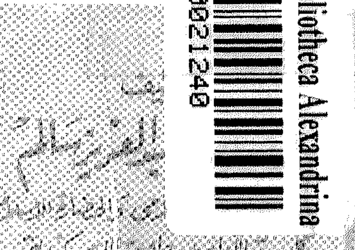


العزيز سالم
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



الناشر
مؤسسة شباب الجامعة



قرطبة حاضرة الخلافة
في الأندلس

قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس

(دراسة تاريخية، عمرانية أثرية في العصر الإسلامي)

تأليف

الدكتور السيد عبد العزيز سالم

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

كلية الآداب، جامعة الإسكندرية

الناشر

مؤسسة شباب الجامعة

ت ٣٩٤٧٢٠ بالإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

اقتصرت في المجلد الأول من كتاب « قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس » على دراسة الجوانب التاريخية والعمرانية من مدينة قرطبة بالإضافة إلى القسم الأعظم من الدراسة الأثرية وأعني بها المسجد الجامع بقرطبة ، أعظم آثارها قاطبة وأهمها على الإطلاق ، وكان في نيتي أن أستوفي الدراسة الأثرية لولا أنني توسعت في بحث المشكلات المتعلقة بتأريخ بنيان هذا الجامع المكرم منذ إنشائه وتوصلت إلى حلول موقوتة لهذه المشكلات ولكنها حلول تستند على حقائق تاريخية وشواهد أثرية ، كما فصلت في دراسة بنيان الجامع من الوجهة الفنية بحيث شملت هذه الدراسة ما يقرب من ١٤٠ صفحة ، الأمر الذي اضطرني بعدها إلى التوقف عن الاسترسال في الدراسة الأثرية .

ثم رأيت أن أستكمل دراستي لقرطبة لكي تتسع لكل ما يتعلق بتراثها المادي والفكري وتتضح بذلك لدى القارىء العربي صورة واضحة المعالم لقاعدة الأندلس ومنارها الأعظم في عصورها الإسلامية المختلفة ، وراعيت في دراستي لموضوعات هذا المجلد الثاني (الذي يتضمن الدراسة الجديدة) أن تتناسق وتتكامل في آن واحد مع ما أوردته من موضوعات في المجلد الأول ،

فكان حديثي عن قصور الزهراء والعامرية وآثار قرطبة الأخرى من مآذن وحمامات وقناطر تكملة ضرورية للدراسة الأثرية لقرطبة التي أفردت لهـــا الباب الثالث . واختتمت هـــذا الباب بفصل عالجت فيه أثر العمارة الخلافية بقرطبة في العمارة المسيحية وفي العمارة المسيحية على السواء .

أما الباب الرابع والأخير فقد خصصته لدراسة التراث الفني والفكري في قرطبة الاسلامية .

أرجو أن أكون قد نجحت في إبراز الدور الذي لعبته قرطبة في التاريخ الاسلامي بوجه عام وتاريخ الأندلس بوجه خاص ، والله الموفق .

المؤلف

الفصل التاسع

آثار قرطبة الاسلامية

(١) آثار مدينة الزهراء .
(٢) آثار قرطبة الأخرى .

أثار قرطبة الاسلامية

(١)

آثار مدينة الزهراء

أ ـ حفائر مدينة الزهراء :

كان يضم أشلاء الزهراء والتلال التي تكوّمت على أطلالها منذ أن خربت، سور يكاد يكون مستطيل الشكل ، يبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ١٥١٨ متراً ، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ٧٤٥ متراً ، ويبدو اليوم جانب كبير من هذا السور مزدوجاً من الخارج ، ولكن بقية جوانبه ما تزال ترى مطمورة تحت التلال المتكومة . ويضم السور في نطاقه الداخلي أطلال قصور وأكواماً ما يزال بعضها يطوي في أحشائه بقايا كثيرة من منشآت المدينة التعسة .

ولقد أثبتت الحفائر الأثرية التي أجريت في موقع الزهراء صدق ما وصفها به الشريف الإدريسي عندما أشار إلى أن القصور الخلافية كانت تقوم في القسم الأعلى من المدينة بينما كانت الدورّ العامة والأسواق تقع في القسم الأدنى منها

بحيث تفصل بين القسمين بساتين وروضات [1] . وعلى الرغم من أن الحفائر الأثرية بدأت في القسم الأعلى الذي يضم قصور الخلافة ، ثم امتدت إلى القطاع الأوسط من القسم الشمالي ، فإنه ما تزال توجد إلى الشرق من هذا القطاع وإلى الغرب منه أجزاء كثيرة لم تكتشف بعد : ففي الشرق ما زلنا نشاهد أطلال أبنية ذات أروقة متوازية متعددة تحددها الأكوام الممتدة في صفوف متوازية ، كما أمكن تحديد موقع الجامع ، إذ نشاهد آثار بلاطاته الخمسة ظاهرة في القسم الأدنى المدفون من المدينة .

وفيما يتعلق بآثار ما تم كشفه من القصور الخلافية ومرافقها ، كان من الصعب حقاً التمييز بين أبنية الخليفة عبد الرحمن الناصر وأبنية ابنه وخليفته الحكم المستنصر ، لأن الحكم كان يشرف في حياة أبيه على أعمال البنيان ، ثم تولى إكمالها بعد وفاة أبيه ؛ فالاستمرار في البناء تحت إشراف شخص واحد جعل من المتعذر تحديد الزمن على وجه الدقة ما لم تكتشف نقوش كتابية تجلو هذا الغموض .

وكان أول ما اكتشفه فيلاسكث بوسكو من القصور الخلافية آثار بناء زعم أنه قصر الخلافة الذي أقامه الخليفة عبد الرحمن الناصر [2] ، ولكن ثبت فيما بعد أن ما اكتشفه لم يكن سوى قسماً من قصر الحكم المستنصر ، فقد عثر في أطلاله على تيجان أعمدة نقش عليها اسم الخليفة الحكم [3] . ثم تتابعت الحفائر العلمية على أيدي كبار علماء الآثار الاسبان أمثال دون فيلث هرناندث Don Felix Hernàndez ودون رافاييل كاستخون Don Rafael Castejon ،

---

(١) ارجع إلى نص الإدريسي الوارد في ص ٢٤١ من الجزء الأول .

(٢) R. Velàsquez Bosco, Excavaciones en Medina Azahara, Madrid, 1923.

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور في الأندلس ، ص ٨٣ .

فأسفرت عـــام ١٩٤٣ عن كشف آثار أحد قصور عبد الرحمن الناصر [١] وتقع جنوبي القسم العلوي من المدينة ، وهي آثار غنية بالزخارف المحفورة في الحجر والرخام . ويرجع السبب في نسبتها الى عصر عبد الرحمن الناصر إلى العثور على اسم هذا الخليفة منقوشاً على تاجين صغيرين من آثار هـــذا القصر . وما زالت الحفائر الأثرية مستمرة الى يومنا هـــذا ، وما يزال المهندس فيلث هرناندث يتابع بحوثه الأثرية وترميماتـــه لقصر الناصر ، فأمكنه أن يعيد بناءه من الكتل الحجرية المحلية على صورته الأولى ، كما استطـاع أن يكسو جدران قاعاته الداخلية من الشظايا الحجرية المتناثرة التي كانت مدفونة في أطلال الموقع ، بعد أن لصقها فيما بينها، مراعياً في ذلك تناسب الزخارف وتناسقها في القطع المختلفة .

وإلى نفس الخليفة عبد الرحمن الناصر يمكن أن ننسب الأبنية القائمة حول الأبهاء الأربعة الكبرى الواقعة غربي السور الشمالي للمدينة ، في حـين ينسب إلى الحكم المستنصر ، فيما يبدو لنا ، البناء القـائم الى الغرب من القطاع الذي أجريت فيه الحفائر، وقريباً من سور المدينة والقاعة الشرقية المجاورة له [٢].

وعندما يدخل المرء مدينة الزهراء من خلال باب مخرب مفتوح في السور الشمالي الذي يحيط بقصور الزهراء القائمة على سفح الجبل يشاهد على يمينه غرفة صغيرة مزودة بمرحاض جانبي ، كانت مخصصة للحراس القائمـين بحراسة هذا الباب ، ومن هذا المدخل يجد المرء نفسه بـــين أحدورين أحدهما الى اليمين والآخر الى اليسار ، كانت تجتازهمـــا مواكب الوافدين الى الزهراء لمقابلة

---

(١) R. Castejon, Excavaciones del plan nacional en Medina Azahara, Campana 1943, Madrid, 1944 — Gastejon, Nuevas excavaciones en Medina al-Zahra : Salon de Abd er-Rahman III, al-Andalus, 1945, pp. 147-154.

(٢) Torres Balbas, Arte hispano musulman, p. 446.

الخليفة وهم يمتطون صهوات الخيل . ويهبط الأحدور الأيمن بين أطلال بنائين قليلي الاتساع يحيط بهما عدد من الأفنية ، ويشغل الفناء الغربي مجلس مستطيل الشكل أرضيته مكسوة بالآجر ، ويكتنفه عند طرفيه مخدعان ، تفصلهما عنه دعائم صغيرة كانت تقوم عليها عقود زالت اليوم من الوجود . ولم يُعثر في البناءين اللذين يهبط إليهما الأحدور على مداخل ، غير أنه من الممكن الوصول الى طابقيهما السفليين عن طريق درج . وينتهي الأحدور بمدد من الأبنية الصغيرة تتخللها أبهاء صغيرة لعلها دويرات البرطلات [1] التي ورد ذكرها في المقتبس ، وكانت تقع قريباً من باب السدة أعظم أبواب قصر الزهراء [2] ، أو دار الجند التي تضم مجالس جوفية [3] ومجالس قبلية [4] لنزول القواد ، وتقع هذه الأبنية الصغيرة على مستوى أدنى من مستوى الباب الخارجي للمدينة بنحو سبعة أمتار ، وتشتمل الدار الغربية منها على فرن ومرحاض . وقد كشف غربي هذه الدار وقريباً منها عن بهوين آخرين : الشمالي منهما يستند على السور الخارجي ولا يفصله عن هذا السور سوى عدد من الغرف ، في حين يركب طرفه الجنوبي على الطرف الشمالي من البهو الآخر ، الذي يهبط مستواه إلى ١٦ متراً . وكان يحيط بهذا البهو الأدنى سقائف أو برطلات عرض الواحدة منها ٢,٥٠ متراً ، اتخذت أرضيتها من الحجر بحيث ترتفع نحو عشرين سنتيمتراً عن مستوى البهو ، وتكسو أرضية البهو لوحات كبيرة من الرخام خمري اللون ، وكان كل سقيفة أو برطل منها يقوم على خمسة عقود ، يتراوح سعة العقد ما بين ٢,٩٢ متراً و ٣,١٥ متراً ، وتنبت هذه العقود من دعائم ضخمة ، يتراوح طول كل منها ما بين ٨٧ و٩٥ سم ، وعرضه ما بين ٩٢ و٩٥ سم [5] .

---

(١) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجي ، ص ٥٠ .
(٢) نفس المصدر ص ٥٠ ، ٨٧ ، ١٩٧ .
(٣) نفسه ، ص ١٩٦ .
(٤) نفسه ، ص ١٩٧ .
(٥) Torres Balbas, op. cit. p. 454

ب – قصر الخلافة (أو قصر عبد الرحمن الناصر)

وقد اكتشف على مستوى أدنى من هذه الأبنية ، وعلى مسافة تبعد نحو ١١٧ متراً من السور الشمالي للمدينة ، سور آخر سميك للغاية ، يمتد أيضاً من الشرق الى الغرب ، ولكنه لا يحاذيه تماماً ، لعله كان يؤلف السور الحاجز بين المدينة العليا والمدينة الوسطى أو الفصلان [١] . وينكسر هذا السور عند جزئه الشرقي ثم يتجه إلى الشمال مؤلفاً الحد الشرقي للقصر ، ويقطع هذا السور السميك ممر قائم على عقود منفوخة بارزة، تعلوه قبوة نصف أسطوانية، ولهذا الممر باب ينفتح في الجهة الجنوبية[٢] ، وينقطع السور المذكور من الجهة الغربية بسبب توقف أعمال الحفر الأثري في هذه المنطقة . أما من الجهة الشرقية ، فينتهي السور بغرفة مستطيلة الشكل تليها قاعة مربعة الشكل أكبر قليلاً في المساحة ، وكلتاهما مهدمتان تماماً . وتؤدي القاعتان الى برطل خرب عرضه سبعة أمتار يطل من الجنوب على خمسة فتحات كانت تشغلها أقواس قائمة على عمد . أما من الجهة الشمالية فكانت تنفتح ثلاث فتحات تفصلها فيما بينها دعيمتان كبيرتان ، تشتمل الفتحة الوسطى على ثلاثة عقود صغيرة بينما تشتمل كل من الفتحتين المتطرفتين على عقدين توءمين قائمين على ثلاثة عمد صغيرة أحدها مركزي والآخران يتكآن على الدعيمتين الجانبيتين. ومن خلال هذه العقود يصل المرء إلى مجلس فسيح يبلغ طوله ٢٠,٢٥ متراً وعرضه ١٧,٥٠ متراً ، وينقسم هذا المجلس إلى بلاطات ثلاث عمودية على الجدار الشمالي ، ويتكون البلاط الأوسط من صفين من العقود المتجاوزة يبلغ عدد عقود كل صف منها ستة تقوم على سبعة أعمدة . ويحف بهذه البلاطات الثلاث من كل من الجهتين الشرقية والغربية بلاط جانبي يصله بالمجلس

(١) ابن حيان ، المصدر السابق ، ص ٥١ ، وينفتح فيه باب يعرف بباب الفصلان .

(٢) لعله الباب المعروف بباب الأقباء أول أبواب القصر الخلافي (ارجع إلى المقري ، ج ١ ص، ٣٦٤ ، وقارن ذلك بابن حيان ص ١٩٧) .

المذكور باب معقود على منكبين ، ويرتكز كل من المنكبين على عضـادة من الرخام الأبيض نقشت عليها زخارف نباتية بلغت الغاية في الروعة والجمال .

وقد تم كشف هذا المجلس في سنة ١٩٤٤ ، ومنذ هذا التاريـــخ يتولى المهندس فيلث مرناندث مهمة ترميم هذا المجلس وإعادته إلى صورته الأولى[١]. ونستدل من الروائع الزخرفية المتبقية منه على صدق ما وصفه به المؤرخون[٢]، فأرضيته مكسوة بلوحات من الرخام يبلغ عرض الواحدة منها ما يقرب من المتر ، ويؤزر الجدران لوحات رخامية مماثلة ، يتراوح ارتفـاع الواحدة منها بين ٦٨ سم و٧٥ سم ، ويمتد فوق هذا الإزار الرخامي إفريز فاصل مدهون باللون الأحمر ، بأعلاها كسوة حجرية تغمرها توريقات محفورة في الحجر تبلغ تشكيلاتها الزخرفية الغاية في الرقة والتناسق ، ويبلغ سمك هـــذه الكسوة الزخرفيـة ٤ سم ، وتلتصق بالجدار عن طريق ملاط من الجص ، وكانت الكسوة المذكورة تصل في الارتفاع إلى مستوى العمد والدعائم أي ما يقرب من ٢,٢٥ متراً . أما الجدار الشمالي للمجلس فكان مغطى كله بزخـارف من التوريقات حول عقد أصم ، ولكن للأسف لم يتبق من هذه الكسوة الزخرفية سوى الأجزاء الدنيا المهشمة . أما الجداران الجانبيان فقد كانت تغطيها لوحات مماثلة من الحجر تزدان بزخارف محفورة ، وتحتفظ مناكب العقود ببقـــايا زخارف قوامها شبكات مربعة ومسدسة حمراء اللون .

وقد عثر على بقايا سنجات عقد المدخل إلى البلاط الأوسط بين الأطلال ، وكلها مغطاة بزخرفة من التوريقات محفورة في الكتل الحجرية التي تتألف منها السنجات بخـلاف الكسوات التي تغطي الجدران . كذلـك عثر في الأطلال

---

(٤) Castejon, Nuevas excavaciones, pp. 147 - 154, Gomez Moreno, Ars Hispaniae, p. 82 - 90, Torres Balbas, la mezquita de Cordoba y Madinat al-zahra, p. 149 .

(٥) راجع ما سبق ص ٢٤٠ وما يليها من الجزء الأول .

والأنقاض المتراكمة على قواعد وتيجان أعمدة وسواري مهشمة من الرخـام ، بعضها يميل إلى الزرقة وهو نوع من الرخام اختصت به جبال قرطبة ، وبعضها وردي اللون من قبرة ، هذا بالإضافة إلى منابت عقود وسنجات بعضها أملس أحمر اللون وبعضها يزدان بزخارف محفورة تشبـــه إلى حد كبير زخارف الزيادة الحكمية في المسجد الجامع بقرطبة .

ويبدو أن هذا المجلس قد تعرض لحريق ، تتجلى آثاره في طبقـة الرماد السميكة والفحوم والأحجار المكلسة التي نلمحهـا في الأنقاض المكدسة على أرضية المجلس ، وفي جميع أرضيات المجالس التي تم الكشف عنها .

وكان سقف هذا المجلس والمجـالس الأخرى من أعواد الصنوبر (جوائز وسماوات) ، فقد احتفظت بعض المواضع الأخرى بجدران أكثر ارتفاعـــاً تبدو فيها بوضوح الجوفات التي كانت تثبت فيهـا الجوائز ، وكانت الأسطح منشورية الشكل مغطاة بالقراميد المقعرة التي يميل لونها إلى الصفرة ، وكانت مياه الأمطار تتجمع بين الأسقف المائلة في قنوات تصب في ميازيب عثر على واحد منها ، وهو أشبه بالكابولي المزود باللفائف . أما قواعد الأعمدة وتيجانها والدعائم الرخامية فتزدان بنقوش كتابية بارزة ، من أقدمها نقش نطالع فيه اسم عبد الرحمن الناصر ، واسم فتـاه شنيف ، وعبارة نصها عمـل سعد ، وسنة ٣٤٢ [١] . ويضيف العالم الأثري الإسباني الأستاذ جومث مورينو إلى هذه الأسماء اسم مظفر قرأه على تاج كورنثي الطراز وتاريخ سنة ٣٤٥ ، كما يذكر أن هناك دعامة تحمل تاريخ سنة ٣٤٤ مسجل عليها اسمان لرخّامين أو نقّاشين هما على التعـاقب بدر ونصر ، واسم ثالث غير واضح ثم أسماء فتح وأفلح وطارق ومحمد بن سعد وسعيد الأحمر ورشيق ، وكلهم من فتيان الخليفة

---

(١) Ocana Jimenez, Inscripciones arabes descubiertos en Madinat al - Zahra en 1944, al - Andalus, vol. X, 1945, pp. 154-159

وخدمه [١] . وقد سبق أن طالعنا أسماء بدر ونصر وطارق وفتح في النقش الكتابي بالأطر الواقعة بين مساند جوفة المحراب بجامع قرطبة [٢] . كذلك عثر على بقايا اللوحة التأسيسية لمجلس عبد الرحمن الناصر (المجلس الشرقي) وهي من الحجر الجيري نقش عليها النص بخط كوفي مزهر ، وفيها نطالع اسم عبد الرحمن الناصر وتاريخ البناء سنة ٣٤٥ .

جـ - قصور الحكم المستنصر

تحدثنا فيما سبق (موضوع حفائر الزهراء) عن بنائين كبيرين يلتصقان بالسور الشمالي لمدينة الزهراء وكلاهما من عصر الحكم المستنصر ، كما تحدثنا عن الأحدور الأيمن الذي يصل إلى عدد من الأبنية يرجع تاريخها الى عصر عبد الرحمن الناصر، أما الأحدور الأيسر فيستمر مسافة قصيرة متكئاً على الجدار الداخلي من السور ، ثم يعبر من خلال باب ، ويعود بعدئذ إلى الانقسام إلى فرعين : فرع يستمر متصلاً بالسور ويمر بستة أبواب تنفتح ثلاثاً ثلاثاً في اتجاه مضاد، والثاني يجتاز ثلاث منحنيات تتخللها أربعة أبواب وينتهي بسقيفة شمالية (أو برطل) عرضها ١٨و٥ متراً.تطل على بهو فسيح مربع الشكل تقريباً يبلغ طوله ٥٢,٩٠ متراً وعرضه ٤٩,٣٠ متراً . ويمتد فيما بين هذا البهو والسور إلى الشرق من الأحدور بناء يقع على مسافة تبعد نحو ٧٠ متراً إلى الشمال من المجلس الذي وصفناه فيما سبق وأشرنا إلى أنه من بناء الخليفة عبد الرحمن الناصر . ويزيد مستوى ارتفاع أرضية البناء المذكور عن مستوى ارتفاع أرضية مجلس الناصر بما يقرب من عشرة أمتار ، ويتألف من سقيفة أو برطل عرضها ٦,٩٠ متراً لعلها كانت تطل على البهو بخمسة عقود ، ومن دهليز

---

(١) Gomez Moreno, Ars Hispaniac. p. 84 والترجمة العربية لهذا الكتاب ص ١٠٣ .

(٢) راجع ص ٤٠١ من الجزء الأول .

يؤدي الى قاعة كبرى ، ثم بناء صغير يقوم غربـــاً يشتمل على ثلاثة أبهاء صغيرة وغرف محيطة به ، وتنفتح السقيفة أو البرطل على مجلس فسيح يبلغ طوله ٣٨,٨٨ متراً وعرضه ٢٠ متراً بواسطة خمسة أبواب أعمدتها ملتصقـة بعضادات الأبواب . وكانت لهذه الأبواب مصاريع خشبية ما تزال قواعدها التي تدور عليها قائمة في مواضعها . وينقسم المجلس إلى خمس بلاطات عمودية على الجدار الشمالي ، يبلغ اتساع البلاط الأوسط منها ٧,٤٦ متراً في حـين يبلغ اتساع كل من البلاطات الأخرى ٦,٨٢ متراً، ويتصل البلاطان المتطرفان منها بما يليهما عن طريق ثلاثة عقود تقوم على أربعة أعمدة في كل جانب من الشمال والجنوب . ويؤزر جدران هذا المجلس إزار ارتفاعه ٥٨ سم ، مدهون باللون الأحمر. أما الجدران فيبلغ سمكها ١,٠٦ متراً ، ويرجح الاستاذ توريس بلباس– استناداً على نتيجة البحث الأثري في بقايا الجدران الذي أسفر على أنها كانت أصلاً عارية من الزخارف–أن هذا المجلس كان مخصصاً لأعمال إدارية[١].

كذلك يرجع الى عصر الحكم البناء الذي بدأت الحفائر الأثرية تكشف عنه في سنة ١٩١١ بأقصى الطرف الغربي من الزهراء ، إذ عثر فيه على تاجي عمودين منقوش عليهما اسم الحكم المستنصر ، يشبهان إلى حد كبير تيجان أعمدة أخرى تحمل تاريخ سنة ٣٦٤ هـ . ولم يحفظ من أطلال هذا البنـاء إلا قسمه الشمالي الذي يكاد يلاصق سور المدينة الشمالي المزدوج [٢] . ويفصل القصر عن السور المذكور ممر ضيّق تعترضه أبواب ، يفضي إلى غرف موزعة بانتظام . ومعظم أرضيات الغرف المذكورة مكسوة بقراميد الآجر المرصـع بالأحجار وقطع الآجر الحمراء ، في أشكال هندسية بلغت حداً كبـيراً من الإتقان والروعة [٣] .

---

(١) Torres Balbas, Arte His. Mus., p. 459. والظاهر أنه كان مخصصاً لأحد الدواوين .

(٢) Gomez Moreno, op. cit. ، وراجع الترجمة العربية ، ص ١٨١ .

(٣) Torres Balbas, la Mezquita de Cordoba y Madina Al-Zahra, p. 148 .

ولقد أسفرت الأبحاث الأثرية في أطلال هذا القصر عن كشف بقايا عقود زخرفية من نوع حدوة الفرس ، وبنيقات ، وأشرطة مقوّسة ، وسنجات حجرية حفرت فيها جميعاً زخارف من التوريقات قوامها ورقة الأكنثس وسعف النخيل [١] ، كما عثر على قطع حجرية تزدان بزخارف هندسية وطرز من النقوش الكتابية ، يحمل بعضها اسم الحكم . ويرجح الأستاذ جومث مورينو أن هذا القصر خصص لسكنى هشام المؤيد الذي حجر عليه المنصور ابن أبي عامر ، ويعتمد في ذلك على أن هذا القصر يقع في موقع ناء من المدينة ، بعيداً عن بقية قصور الخلافة ، وفي موضع يصعب الوصول اليه [٢].

* * *

ويمكننا أن نستنتج مما أسفر عنه البحث الأثري في الزهراء ، أن قصور هذه المدينة تتبع نظامين : الأول نظام الدار التي تقوم حول فراغ مركزي يتمثل في الصحن الذي تتوزع حوله جميع الغرف والقاعات ، والثاني نظام القصر الذى يتألف من بلاطات أو أروقة متوازية ، وتفصلها فيما بينها صفوف من العقود القائمة على أعمدة، على النحو الذي تشاهده في بلاطات جامع قرطبة والجامع الأقصى في بيت المقدس وعدد كبير من المساجد المغربية والأندلسية . والنظام الأول متأثر بنظام المسجد[٣] ، أما النظام الثاني فيعتقد الأستاذ لامبير أنه متأثر بنظام الكنائس ذات التخطيط البازيليكي [٤] .

---

(١) يتفق أسلوب هذه الزخارف مع أسلوب الزخرفة في زيادة الحكم المستنصر بجامع قرطبة (راجع التفاصيل في جومث مورينو ، ص ١٨٦) .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٨٨ .

(٣) راجع في ذلك : أحمد فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ج ٢ ، العصر الأيوبي ، ص ١٦٧ - ١٩٢ .

(٤) Elie Lambert, les Mosquées de type andalou, al-Andalus, vol. XIV, fasc. 2, 1946, p. 275.

(٢)

آثار قرطبة الأخرى

أ – منية العامرية

قبل أن يشرع فيلا سكث بوسكو في إجراء حفرياتــه الأثرية في سنة ١٩١٠ ، استطاع أن ينفض التراب عن أطلال أخرى تقع على سفح جبـل قرطبة على بعد تسعة كيلومترات غربي قرطبة وثلاثـة فقط الى الغرب من مدينة الزهراء ، في ضيعة تعرف باسم فونتانار دي لاجورجوخا ، وفي موضع يطلق عليه اليوم اسم موروكيل . إلا أن صاحب الضيعة قام للأسف بهدم هذه الأطلال كلها تقريباً في سنة ١٩٢٦ ليقيم على أسسها داراً جديدة . وكان فيلاسكث قد ظن بادىء ذي بدء أن آثار هذه المنية هي نفس آثار مدينـة الزهراء ، ولكنه نسبها بعد ذلك الى العامرية التي ابتناها ابن أبي عامر قبل شروعه في تأسيس الزاهرة في سنة ٣٦٨ ، وحوّطها بالجنان والبساتـين ، ثم أدار عليها سوراً منيعاً .

وكان قصر العامرية يتكون من قاعات ثلاث متوازية ، يحيط بهـا من الشرق والغرب غرف مربعة تتوزع ثلاثة في كل من الجهتـين ، وفي الشمال الشرقي يقوم بناء آخر ملاصق لهذا البناء ينقسم بدوره الى غرف صغيرة لعلها كانت مرافق أو ملحقات بالقصر ، وكان يتصل بهذه الغرف بركة كبيرة طولها ٤٩,٧٠ متراً ، وعرضها ٢٨ متراً ، وعمقها ٣ أمتار ، أقيمت كلهـا من الحجر [١] .

---

(١) Velasquez Bosco, Medina Azzahra y Alamiriya; pp. 18 - 33,
Gomez Moreno, Ars Hispaniae, pp. 166, 171 (والترجمة العربية ص ١٩٤)
Torres Balbas, Arte Hispano Musulman, pp. 594 - 597 .
وراجع وصف المنية العامرية في ص ٢١٤ بالجزء الأول من هذا الكتاب .

ب – المآذن الباقية

تبع نهاية حركة الاسترداد الاسبانية وسقوط دولة الإسلام بالأندلس توزيع سكاني جديد رافقه توزيع للهبات المقارية شملت العدد الأعظم من المساجد والحمامات والقصور والحوانيت وغير ذلك من المنشآت الاسلامية ، وأدى ذلك إلى تدمير العديد من هذه الآثار ذات الطابع الاسلامي والإقبال على بناء منشآت جديدة تتميز بأساليب تتناسب مع طابع العصر .

وعلى هذا النحو شملت حركة التدمير معظم المساجد ، أما المساجد التي لم تتعرض لهذه الحركة فقد تحولت إلى كنائس محليـــة ، خربت مآذنها أو تحولت الى أبراج للنواقيس ، وهدمت بيوت الصلاة فيها وأقيمت في مواضعها كنائس من الطراز الروماني أو القوطي .

ولحسن الحظ تبقت بقرطبة ثلاثة أبراج لكنائس كانت في الأصل مآذن لمساجد [١] ، أولها مئذنة مسجد هدمه القشتاليون وأقاموا على أساسه كنيسة تعرف اليوم بكنيسة دير سانتا كلارا . هذه المأذنة مربعة القاعدة ، يبلغ طول كل جانب منها ٤,٧٠ متراً ، ويتوسطها من الداخل نواة مركزية مربعة الشكل كذلك أشبه بالدعامة ، يدور حولها فيما بينها وبين جدار المئذنة درج ،

---

(١) فيما يختص بالمآذن الباقية بقرطبة ارجع الى المراجع الآتية :

Torres Balbas, la primitiva mezquita mayor de sevilla, al-Andalus vol. XI, fasc. 2, 1946, pp. 425 - 436 .

عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٤٠١ – المساجـــد والقصور في الأندلس ، ص ٤٨ . وبالاضافة إلى ما ذكرناه من أسماء المساجد (الجزء الأول ، ص ١٨٠) لدينا من أسماء المساجد القرطبية ما يلي : مسجد الأسوار بن عقبة ويقع في الزقاق الكبير بقرطبة – ومسجد أبي عثمان بالربض الغربي (المقتبس لابن حيان ، نشر الدكتور مكي ، ص ١٩٣)– ومسجد حامد الزجالي (نفس المصدر ، ص ١٧٥) – ومسجد القمري بالجـــانب الغربي من قرطبة (طوق الحمامة ، ص ٢١٢ وابن جلجل ، ص ٩٤) – ومسجد أبي علاقـــة (ابن الفرضي ، ترجمة رقم ٦٦٨ ، ص ٢٢٣) – ومسجد الحراني بقرطبة (ابن جلجل، ص ٩٤)– ومسجد طاهر (ابن جلجل ، ص ٩٧ ، ١٠٨) .

يرتقي بواسطته الصاعدون الى سطح المئذنـة . والبناء من الحجر يتناوب في صفوفه كتلة موضوعة طولاً وكتلتان أو ثلاثة من جوانبها ، وأوجه المئذنة ملساء ، تنفتح فيها بعض المنافذ الضيقـة لإدخال الضوء ، وتنتهي من أعلى بشرفات . ويعلو مدخل المأذنة عقد مفرطح مخفف للضغط ، بأدناه عتب من سنجات [١] . ويستدل الأستاذ توريس بلباس من طريقة البناء على أن تاريخ هذه المئذنة يرجع إلى أواخر القرن العاشر الميلادي أو أوائل القرن الحادي عشر [٢] ، وإن كانت تشبه كثيراً من حيث طريقة البناء ومن حيث النواة المربعة مئذنة جامع القرويين بفاس التي تم تشييدها في ربيع الآخر سنة ٣٤٥هـ على يدي الأمير أحمد بن أبي بكر الزناتي عامل الخليفة عبد الرحمن الناصر علي فاس [٣] ، ومع ذلك فإن الأستاذ جومث مورينو يقارنهـا ببرج سان خوسيه الذي كان يوماً ما مئذنة لجامع المرابطين بقصبة غرناطـة [٤] ، ويرجع تاريخها إلى أواخر القرن العاشر [٥] .

وعلى الرغم من اختلاف العلماء حول تأريخ بناء هذه المئذنة ، فمن المعتقد أنها تنتمي إلى فترة الازدهار العمراني في قرطبة زمن الخلافـة ، فهي الفترة التي اكتظت فيها قرطبة بالمساجد الصغيرة إلى حد أن عددها بلغ نحو ١٨٣٦ وفقاً لما ذكره ابن غالب نقلاً عن ابن حيان أو ٣٠٠٠ وفقـاً لرواية ابن عذارى [٦] ، بينما لا تشير المصادر العربيـة إلى مساجد أخرى أسست زمن الفتنة أو في عصر الطوائف أو في عصر دولتي المرابطين والموحدين ، بل ليس

---

(١) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, p. 174 والترجمة العربية ص ٢٠٤ ، ٢٠٥

(٢) Torres Balbas, Arte Hisp. Mus. pp. 605 - 606

(٣) الجزنائي ، كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، الجزائر ١٩٢٢ ص ٣٧ ، ٣٨ ، المغرب الكبير ، ج ٢ : المغرب الاسلامي ، ص ٧٥٦ ، ٧٥٧ .

(٤) Gomez Moreno, op. cit. p. 174 والترجمة العربية ، ص ٢٠٥ .

(٥) نفس المرجع ، ص ٨٥ .

(٦) راجع الجدول المنشور ص ١٨٤ في الجزء الأول من هذا الكتاب .

هنـاك ما يشير إلى حركة إنشاء مساجد بعد الفتنة ، فقد أثرت الفتنـة على عمران قرطبة ، وطحنت رحاها ، فانكمش هذا العمران بنقص عدد سكانهـا وتخريب معظم ديارها [1] ، ولا يجوز والحال كذلك أن يفكر ولاة قرطبـة في العصر الاسلامي المتأخر في بنيان مزيد من المساجد في مدينة فقدت مكانتها كحاضرة للأندلس ، وانحسر عمرانها بخروج الكثير من أهلها عنها .

وأياً ما كان تاريـخ بناء المئذنة المذكورة ، فأغلب الظن أنه كان يعلو برجها الأدنى الذي وصل إلينا ، برج مربع القاعدة أصغر حجماً ، ينتهي من أعلى بقبة تتوجها تفاحات مركبة في سفود بارز على النظام الذي كانت عليه تفاحات مئذنة قرطبة .

وبقرطبة مئذنة أخرى أقدم عهداً يمكننا أن نرجع تاريخ بنائهـا إلى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، هي البرج القـائم الآن في كنيسة سان خوان ، وقد تحولت هذه المئذنة إلى برج للنواقيس بعد سقوط قرطبـة في أيدي القشتاليين ، شأنها في ذلك شأن غيرها من مساجد الأندلس . ومئذنة « سان خوان » إذا جاز لنا أن نسميها بهذا الاسم بناء متواضع مربع الشكل ، يبلغ طول ضلعها ٣,٧٠ متراً ، وارتفاعهـا من مستوى سطح الأرض حتى السطح الذي كان يقوم عليه بيت المؤذنين أو القبة العليا ثمانية أمتار . وتخطيط المئذنة من الداخل مستدير ، إذ تتوسطها نواة مركزية أسطوانية يدور حولهـا درج لولبي . أما من الخارج فجدرانهـا من صفوف حجرية من نوع رديء تآكلت طبقته السطحية بفعل الرطوبة ، ونظام البناء فيهـا يقوم على نظام « الآدية والشناوي » أي على طريقة تعاقب الكتل الحجرية التي يتكون منهـا البناء طولاً وعرضاً بمعني أن تتناوب كتلة توضع من وجههـا طولاً مع كتلة أو كتلتين وفي بعض الأحيان ثلاثة توضع عرضاً من جوانبها . وتمتاز هذه المئذنة الصغيرة بأن كل وجه من أوجهها الأربعة يزدان بفتحة رشيقة مزدوجـة تمثل

---

(١) راجع الصفحات ١٠٨ – ١١٨ من الجزء الأول .

عقدين توأمين على هيئـة حدوة الفرس أي تجاوزت نصف الدائرة ، اقتصرت سنجاتها على ثلثها الأعلى ، والسنجات في هذه العقود ثلاثة : سنجة وسطى من الحجر تؤلف مفتاح العقد وسنجتان تتألف كل منهما من ثلاثة قوالب من الآجر الأحمر تطوقان السنجة الوسطى من اليمين واليسار . ويستند كل عقدين توأمين في الوسط على عمود مركزي في كل من الواجهات الأربعـة ، ولكن لم يتبق للأسف من هذه الأعمدة إلا عمود واحد رشيق يحمل تاجاً من الطراز الكورنثي هو التاج الوحيد الذي تبقى في المئذنة بواجهتها القبلية ، وينتمي هذا التاج إلى مجموعة تيجان الأعمدة الأربعة التي يقوم عليهـا عقد المحراب بالمسجد الجامع بقرطبة، وتنسب إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وزخارفها تقوم على أساس الفروع النباتية المزدوجة . أما الفتحات المعقودة بأوجه المئذنة فكلها صماء مغلقة ما عدا فتحة الواجهة القبلية فهي نافذة [1].

والفتحات المعقودة بالمئذنة لا تحوطها اليوم طرر أو تربيعات مستطيـــلة الشكل ، وربما كان يطوقها في الأصـل طرر بارزة على النحو الذي نراه في جميع الآثار القرطبية ، ثم تساقطت بمرور الزمن وبفعل عوامـل الجو وتأثير الرطوبة . وكان يعلو العقود التوأمية في كل من الواجهتـين الشماليتين بائكة صغيرة (أي صف من العقود المتصلة) بارزة تتألف من سبعة عقود صغيرة على شكل حدوة الفرس تقوم على ثمانية أعمدة من الرخام قوطية المظهر يبدو أنها اتخذت من أبنية قديمة ، وللأسف لم يتبق في الوقت الحاضر من هاتين البائكتين إلا آثار تدل على أنها كانت تعلو بدن المئذنة . ويبدو أن مئذنة «سان خوان» كانت تنتهي من أعلى جدرانها بشرفات مسننة من نوع شرفات مئذنـة سانتا كلارا [2] ، ولكن لم يبق لها أي أثر في يومنا هذا . وتصميم المئذنـــة بوجه عام يشبه تصميم المئذنة الثالثـة بقرطبة أعني بها برج كنيسة سانتياجو ، كما يشبه إلى حد كبير تصميم مئذنة جامع ابن عدبس الذي أسسه القاضي عمر

(١) جومث مورينـــو ، ص ٥٨ ، Torres Balbàs, Arte Hisp. Mus. pp. 402 - 403.

(٢) نفس المرجع .

ابن عدبس في إشبيليـــة في سنة ٢١٤ هـ في إمارة عبد الرحمن الأوسط ، ثم تحولت المئذنـة إلى برج لكنيسة سان سلفـادور ، هذا التشابه الكبير بين التصميمين ، بالإضافة إلى التشابه الواضح بين التـاج الكورنثي المتبقي بمئذنة سان خوان مع نظائره في محراب جامع قرطبة يعد قرينة ترجح الاعتقاد بان تاريخ بنيان مئذنة سان خوان يرجع إلى النصف الأول من القرن الثالث الهجري.

أما المئذنة الثالثة الباقية بقرطبة فهي المئذنة التي تحولت إلى برج النواقيس بكنيسة سانتياجو بالجانب الشرقي من قرطبة . وتتميز هذه المئذنة بقاعدتهـا المربعة من الخارج ونواتها الأسطوانية في الداخـــل وبالدرج الحلزوني الذي يدور بينهما [١] .

ج — الحمامات

تعتبر الحمامات العامة من أهم المنشآت المدنية في المدينة الاسلامية لكثرتها وتعددها من جهة، ولارتباطها الوثيق بالطهارة المتأصلة بعمق في الاسلام من جهة أخرى، وقد تميزت قرطبة بوجه خاص بكثرة حماماتها حتى قيل أن عددها بلغ ٣٠٠ حمام، وقيل أن هذا الرقم كان خاصاً بحمامات النساء[٢]، وذكر ابن حيان أن عدد حمامات قرطبة بعد أن تنـاهت في الاتساع في عصر المنصور بن أبي عامر بلغ ٩٠٠ حمام[٣]. ويذكر المقري في موضع آخر أن عددها بلغ في قرطبة ٩١١ حماماً [٤] . وفي موضع ثالث ٧٠٠ حمام [٥] . أمـا ابن غالب الأندلسي فيذكر نقلاً عن ابن حيان أن عدد حماماتها المبرزة للناس سبعمائة حمام ونيف

---

(١) Torres Balbas, op . cit. pp. 402, 403 .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٦ (طبعة بيروت) .

(٣) المقري ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٧٩ (طبعة محي الدين عبد الحميد) .

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٧٩ .

(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٧٨ .

وذلك عند انتهاء كالها [١] . وقد أطلق اسم أحد حمامات قرطبة على ربض يعرف باسم ربض حمام الإلبيري [٢] (أو اللبدي في المقتبس) [٣] .

ولم يبق من الحمامات الكثيرة التي كان يكتظ بها العمران القرطبي سوى آثار حمامين : الأول صغير المساحة ، عثر عليه في سنة ١٩٠٣ في جوف الأرض في المنطقة المعروفة بساحة الشهداء Compo de los Martires داخل نطاق القصر الخلافي بقرطبة . وكانت غرفة المدخل مزودة بحوضين للاستحمام وتسقفها قبوة متعارضة ، ويلي هذه الغرفة غرفتان تعلوهما قبوتان نصف أسطوانيتين مزودتان بضاوي نجمية الشكل من ثمانية رؤوس . والغرفة التالية تنتهي في كل من طرفيها بعقدين منفوخين توأمين يرتكزان على دعيمتين من الآجر مثمنتي الشكل ، وكان اتساع كل من الغرف الثلاثة أقل من مترين . وبينما كانت الجدران من صفوف حجرية منتظمة الشكل ، كانت الأرضيات مكسوة بلوحات الرخام .وتتصل الغرفة الأخيرة — عن طريق درج — بقاعة فسيحة مربعة الشكل يبلغ طول كل جانب منها ٨ أمتار ، ويحيط بهذه القاعة ممر تحدده أربع دعائم ركنية من الحجارة تلتصق بها وتتوزع بينها أعمدة يبلغ عددها ٢٨ عموداً . ويعلو هذه القاعة قبوة مخرمة بضاوي على شكل نجوم وزخارف أخرى ،دهنت جميعها بزخارف حمراء اللون قوامها توريقات على أرضية بيضاء.ويحتفظ متحف الآثار الأهلي بمدريد ببعض آثار الزخارف التي تم الكشف عنها داخل الحمام ، منها عقد زخرفي ثلاثي الفصوص من الجص ، ومنها منابت لعقدين زخرفيين آخرين ، كما عثر على قطع من الحجارة مزينة بزخارف على شكل شرفات صغيرة مسننة على أرضية حمراء ، وقطع جصية عليها كتابة كوفية . ويغلب على الظن أن هذا الحمام — من أسلوبه الزخرفي — يرجع الى عصر الحكم المستنصر [٤] .

---

(١) ابن غالب الأندلسي ، قطعة من فرحة الأنفس ، ص ٢٧ .

(٢) ابن الخطيب ، كتاب أعمال الأعلام ، ص ١٠٣ — المقري ج ٢ ص ١٣ .

(٣) ابن حيان ، المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، تحقيق الدكتور الحجي ، ص ٤٦ .

(٤) Torres Balbas, op. cit. p. 617

وتقع بقايا الحمام الآخر بالقرب من المسجد الجامع ، إلى الجنوب الشرقي منه، وهي لا تعدو بلاطين مقببين بقبوتين نصف أسطوانيتين تتخللها مضاوى نجمية الشكل ، طول أحدهما ١٠,٤٠ متراً وعرضه ٣,٥٠ متراً ، وطول البلاط الثاني ١٢,٧٠ متراً وعرضه ٤,٥٠ متراً. ويتوزع هذان البلاطان في البيتين رقمي ١٦،١٨ بشارع كارا . ويمكننا إرجاع تاريخ بناء هذا الحمام من واقع نظام البناء بالجدران والقبوات ومن شكل الكتل الحجرية وأحجامها إلى عصر عبد الرحمن الناصر . وقد تعرض هذا الحمام لبعض التغيرات في نظام بنائه وفي عقوده في العصر المسيحي [1] .

د – القناطر في الطريق ما بين قرطبة والزهراء

تتميز الأندلس بكثرة أنهارها التي تشق مدنها مثل وادي تاجه ووادي آنه والوادي الكبير ووادي لكة ووادي سليط، لهذا كان طبيعاً أن يهتم أمراء الأندلس بإقامة القناطر على هذه الوديان [2] . وفيما يتعلق بقرطبة ، فقد كان يصلها بمدينة الزهراء طريق مرصوف واستلزم الأمر أن يزود هذا الطريق بقناطر عندما تعترضه جداول ونهيرات لتسهيل العبور عليها ، وقد تبقت من هذه القناطر اليوم قنطرتان وآثار قناطر أربعة أخرى . أما القنطرة الأولى الباقية فتتألف من ثلاثة أقواس ترتفع على نهير كانتاراناس Cantarranas ، وأما الثانية فأكبر قليلاً من الأولى ، وتعلو وادي ياطه Guadiato وعقود هاتين القنطرتين منفوخة متجاوزة تقتصر سنجاتها على الثلث الأعلى وتتميز هذه السنجات بطولها ، ونظام البناء في الجدران والأكتاف التي تحمل العقود يتبع

---

(١) Ibid, p. 618

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، العمارة المدنية في الأندلس ، دائرة معارف الشعب عدد ٦٤ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

نظام « الآدية والشناوي » أي تتناوب فيه كتل الحجارة طولاً وعرضاً بمعنى أن توضع كتلة من وجهها وكتلتين من جانبيها على التعاقب [1] .

أما قنطرة قرطبة التي سبق أن تحدثنا عنها [2] فيبلغ طولها ٢٢٣ متراً ، وتقوم على ١٦ عقداً تحملها ١٧ ركيزة ضخمة نصف اسطوانية تتوجها من أعلى كسوة نصف مخروطية [3] . ويغطي القنطرة اليوم كسوة من الملاط كسيت به سنة ١٩١٢ أخفى معالمها الأثرية التي سجلتها الصور القديمة والدراسات التي أجراها الأستاذ جومث مورينو وتوصل فيها إلى رؤية نظام البناء فيها قبل أن تكسى بالملاط. ويذكر الأستاذان جومث مورينو وتوريس بلباس أن الجزء الذي يقع قريباً من برج القلعة الحرة كان أقل أجزاء القنطرة تعرضاً للأضرار الناشئة من مدود النهر ، ولذلك فما يزال يحتفظ بعقوده الرومانية القديمة فيما بين العقدين الثاني والثالث مع جزء من هذا العقد الاخير [4] .

ه – الأسوار

قنع المسلمون منذ الفتح بالأسوار الرومانية التي كانت تحيط بمدينة قرطبة، وكانت هذه الأسوار مفتوحة من الجهة الغربية كما سبق أن أشرنا إليه في القسم التاريخي [5] . وكان لا بد للسمح بن مالك الخولاني والي الأندلس من قبل الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز أن يفكر جدياً في ترميم هذا السور

---

(١) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, p. 75 ، والترجمة العربية ص ٨٥ .

(٢) راجع ما كتبناه عنها في الجزء الأول صفحات ١٩٧ – ٢٠١ .

(٣) Enciclopedia Espasa Calpe, Art. Cordoba, p. 566.

(٤) Gomez Moreno , Ars Hispaniae, p. 21. والترجمة العربية ص ١٩ .

(٥) راجع صفحات ٢٤ – ٢٧ من الجزء الأول .

حتى لا تصبح قرطبة – الحاضرة – مدينة مفتوحة للداخلين إليها ، ولكن تنفيذ هذه الفكرة لم يكن ليتم دون أن تعترضه يومئذ مشكلة رئيسية كان لزاماً عليه حلها وأعني بها مشكلة ترميم قنطرة قرطبة التي تربط المدينة بربضها القبلي الواقع على الضفة اليسرى من الوادي ، وكان إصلاحها أمراً حيوياً قد يكون أولى بالاهتمام من المشروع الأول ، لتيسير الاتصال بين قرطبة ونواحيها القبلية . والظاهر أن كلا المشروعين كان يتوقف تنفيذه على توفير كميات من صخور البنيان التي يستلزم إحضارها نوعاً من الاستقرار السلمي أو الحضاري وهو ما لم يكن يعرفه الفاتحون حتى ذلك الحين ، إذ انصرفوا إلى تنظيم الفتح ، وإلى التطلع نحو مزيد من الجهاد فيما وراء جبال البرتات . وهكذا لم يكن يتوفر لدى السمح تدبير الأحجار اللازمة للمشروعين معاً ، وأصبح يتعين عليه أن يرمم إما القنطرة من حجر السور أو السور من حجر القنطرة إلى أن يتهيأ له فيما بعد أن يستقطع الأحجار اللازمة لأعمال الترميم ، وأشار عليه الخليفة عمر بن عبد العزيز بأن يرمم القنطرة – التي كانت وسيلة حيوية للاتصال بين قرطبة وشقندة – بحجارة السور الغربي المتخرب . فرمم السمح قنطرة قرطبة ، ثم شرع في جبر ما تثلم من السور باللبن – مؤقتاً – ولكن هذه البنية الجديدة كانت تبدو ضعيفة بالمقارنة بالأسوار الرومانية المبنية من الحجر ، ولم يلبث القطاع الذي بناه السمح بسور قرطبة أن تهدم من جديد ، كما تفتحت المدينة من الجهة الشرقية بعد أن امتد العمران إلى هذه الناحية ، وكان طبيعياً أن تتهدم الأسوار بسبب التوسع العمراني ، ولتسهيل الإتصال بين جانبي قرطبة الشرقي والغربي، أما ما تخلف من أحجار السور المتهدم فقد استخدمها أهل قرطبة في بناء منشآتهم المدنية والدينية وتحولت مواضع الأسوار المتهدمة إلى شوارع فسيحة .

وظلت مدينة قرطبة مدينة مفتوحة إلى أن نجح الأمير عبد الرحمن الداخل في إحياء دولة بني أمية بالأندلس ، واضطر – بسبب الفتن والثورات

المضطرمة في أنحاء الأندلس - إلى ترميم سور قرطبة على أساس السور الروماني القديم، وتم ذلك في سنة ١٥٠ هـ، وفي ذلك يقول صاحب كتاب فتح الأندلس: « وفي سنة خمسين ومائة أمر الإمام ابن معاوية ببناء سور قرطبة ، فبنى ما كان جبر منه باللبن ، إذ بنيت القنطرة من صخره ، فكمل بنـاؤه حسب ما أمر به » [١] . وأغلب الظن أنه بناه بالحجـارة كالشأن في منشآته الأخرى بقرطبة [٢] ، وكما فعل عبد الرحمن الأوسط بعد ذلك عندما عهد إلى عبد الله ابن سنان أحد موالي بني أمية بالشام ببنـاء سور إشبيلية بالحجر [٣] وذلك بعد أن أشار عليه عبد الملك بن حبيب أثر محنة أهـل إشبيلية بغزوة النورمان بأن بنيـان سور إشبيلية أوكد عليه من بنيـان الزيادة في جامع قرطبة [٤] فبناه سنة ٢٣٠ .

وكان سور قرطبة يتخذ شكل متوازي أضلاع منتظم تقريباً ، قطاعه الجنوبي يمتد بحذاء الضفة اليمنى من الوادي الكبير مسافة تبلغ نحو ٨٠٠ متراً إلى يمين القنطرة ويسارها ، وكان قطاعه الغربي يمتـد نحو الشمال الغربي مسافة تصل الى ١٢٠٠ م ، ثم ينحرف السور الغربي بعد ذلك في اتجـاه الشرق ثم يعود الى الإنثناء نحو الجنوب ، وكان محيطه لا يتجاوز على هـذا

---

(١) فتح الأندلس (لمؤلف مجهول) نشره دون خواكين جنثالث ، الجزائر ١٨٨٩ ص ١٩ كذلك يتفق أبو الفداء وابن خلدون على هذا التاريخ (انظر المختصر في أخبار البشر ، طبعـة بيروت ، ١٩٥٩ ج ٣ ، ص ٩ - ابن خلدون ، العبر ، ج ٤ ص ١٢١ - المقري ، ج ١ ص ٣١٣) أما النويري فيرجع أعمال عبد الرحمن الداخل الى سنة ١٤٩ .

(٢) وصف ابن حوقل سور قرطبة فذكر أنه من حجارة فيقول : « وهي مستديرة حصينة السور وسورها من حجر » (ابن حوقل ص ١٠٨) .

(٣) ابن القوطية ، ص ٦٥ - البكري ، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب « المسالك والممالك » تحقيـق الدكتور عبد الرحمن الحجي ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١١٢ - الحميري ، الروض المعطار ، ص ٢٠ .

(٤) ابن حيان ، المقتبس ، تحقيق الدكتور الحجي ، ص ٢٤٤ .

النحو ٤ كيلومترات بحيث استطاع ابن حوقل السير حوله في قدر ساعة [١]، والمقصود بمحيط قرطبة في هذه الحالة محيط المدينة الوسطى أو القصبة لأن قرطبة اتسعت في عصر الخلافة إتساعاً كبيراً وتألفت حولها أرباض بلغت ٢١ ربضاً وفقاً لإحصاءات المؤرخين العرب ، كانت جميعها غير مسورة ، فلما هاجت الفتنة البربرية ، وأصبح الناس لا يأمنون على أموالهم وأرواحهم ، أمر المهدي بن عبد الجبار وواضح العامري بإنشاء سور وخندق يحيط بالأرباض جميعاً [٢] ، وأصبحت المدينة بأرباضها تمتد من الشرق الى الغرب مسافة تقرب من ٣ أميال [٣] ، ومن الجنوب الى الشمال ميلاً واحداً ، وأصبح محيط أسوار قرطبة بأرباضها في زمن البكري ٣٠ ألف ذراع [٤] أي ما يقرب من ١٥ كيلو متراً .

وقد أشرنا فيما سبق الى أبواب المدينة والى أسمائها المختلفة [٥] ، كما أشرنا الى أعمال الخليفة عبد الرحمن الناصر لتدعيم النظام الدفاعي بقرطبة ، فذكرنا أنه ابتني في سنة ٣٠١ هـ (٩١٣) لهذه الأبواب أبواباً داخلية توازيها حتى يتمكن البوابون من تثقيفها ، وإحكام إغلاقها ومضاعفة الحراسة لها ، وكان ذلك ابتكاراً معمارياً في فن البناء الحربي في عصر الخلافة [٦] .

وظل سور قرطبة وأرباضها موضع اهتمام الأمراء والولاة حتى أعاد

---

(١) ابن حوقل ، ص ١٠٨ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٩٩ – ابن غالب ، ص ٢٧ – ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ١٣٥ – المقري ، ج ٢ ص ١٤ ،

(٣) الإدريسي ، ص ٢٠٨ .

(٤) البكري، المصدر السابق، ص ١٠٠ . ويذكر العذري أن دور قرطبة ٣٣ الف ذراع (العذري ، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، ص ١٢٢) . أما ابن غالب فجعل ذرع محيط قرطبة بأرباضها ٢٣ ميلاً (ابن غالب ، ص ٢٧) .

(٥) راجع الجزء الأول ، ص ١٧٢ – ١٧٤ .

(٦) راجع صفحة ١٧١ من الجزء الأول .

المرابطون – في عهد علي بن يوسف – بناء سور الشرقية [1] ، وذلك عندما تعرضت الأندلس لغزوة الفونسو المحارب سنة ٥١٩ التي اخترق فيها كل بلاد الأندلس حتى غرناطة وسواحل البحر المتوسط [2] . وفي عصر دولة الموحدين تجدد بناء سور قرطبة ، واستخدم في عمارته الطابية ، وهو تراب مختلط بالكلس والنورة وقطع الحجارة ، واقيم أمام السور حزام براني أو ستارة أمامية من النوع الذي نشاهده في سور إشبيلية . وقد تبقت من سور قرطبة بقية متناثرة لها طابع فن بناء الأسوار في عصر المرابطين والموحدين ، منها قطاع من السور الروماني القديم يمتد غربي المدينة فيما يلي باب المطارين الحالي، كما تبقى بحذاء النهر قطاع من السور المرابطي الذي كان يحيط بالشرقية ويقع إلى الشمال الشرقي من قرطبة ، ويمتاز بأبراجه المستطيلة الضخمة المتقاربة .

---

(١) Torres Balbàs, el arte de al-Andalus bajo los Almoràvides, en al - Andalus, vol. XVII, 1952 , p. 413.

(٢) راجع في ذلك : تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، بيروت ، ١٩٦٩ ص ٩١ ، وعلى الأخص الحاشية رقم ١ – العمارة الحربية بالأندلس ، مقال بدائرة معارف الشعب ، عدد ٦٤ ، ص ١٥٦ .

الفصل العاشر

تأثير العمارة الخلافية بقرطبة

في فنون العمارة المسيحية والاسلامية

(١) تغلغل التأثيرات القرطبية في الغرب المسيحي والشرق الاسلامي

(٢) مظاهر التأثيرات القرطبية في الفنون المعمارية المسيحية

أ – التأثيرات القرطبية في الكنائس المستعربة الإسبانية

ب – أثر القبوات والقباب القرطبية ذات الضلوع البارزة والمتقاطعة في نظام التقبيب في إسبانيا المسيحية وفرنسا

ج – أثر الزخارف المعمارية القرطبية في فن الزخرفة المعمارية الفرنسية

(٣) مدى التأثيرات القرطبية في العمارة الاسلامية

تأثير العمارة الخلافية بقرطبة
في فنون العمارة المسيحية والاسلامية

(١)

تغلغل التأثيرات القرطبية في الغرب المسيحي والشرق الاسلامي

بلغت قرطبة في عصر الخلافـــة الأموية أوج عظمتها ، وتسنمت ذروة ازدهارها الفني وتألقها الحضاري في حين كانت أوروبا ما تزال غارقـــة في أعماق التأخر والانحطاط، وقد سعت الدول الكبرى في العالم يومئذ الى مهادنة قرطبة والتقرب الى خلفائها والتزلف لهم ، فقصدها السفراء والملوك ، وتوالت عليها السفارات والوفادات الى حد أصبحت مواكب استقبال السفراء في قصري قرطبة والزهراء من الأمور التقليدية التي ألفها الناس ، وصار خروج طبقات الجند والحرس في التعبئة بالعدة الكاملة ، وظهور فرسان العبيد الرمـاة وقد لبسوا الأقبية البيض متقلنسي المقاريـف الوبر ، متنكبي القسي والكنانات الزغرية ، ووقوف الفرسان المدرعين حاملي القنوات الناصلة ، والفرسان أصحاب الجواشن وبأيديهم الطبرزينات والأجرزة والدماغات والأعمدة ، كل ذلك وغيره مما كان يجري عرضه أيام وصول السفراء والرسل صار أمراً شائعاً في قرطبة ، مألوفاً لدى أهلها .

وهكذا ذاعت شهرة قرطبة في أنحاء العالم، وانتجعها الناس من المشرق والمغرب بحيث أصبحت دار الهجرة للعلم [1] ومركز الرحلة لأولي الفهم، واعتبرت أعظم مدن الأندلس والمغرب عمراناً، وثالثة مدن العالم الوسيط كبر مساحة، واتساع عمران، وكثرة سكان. وكان من الطبيعي أن تتركز فيها خلاصة حضارة الأندلس، وتصبح مركز إشعاع لهذه الحضارة في أوروبا المسيحية وفي المغرب الاسلامي والمشرق على السواء، بحيث تمكنت التقاليد الفنية القرطبية التي تأصلت زمن الخلافة الأموية أن تنتشر في العالم الاسلامي الى المغرب ومصر والشام، وفي الغرب المسيحي فتصل الى اسبانيا المسيحية وجنوبي فرنسا.

ويتمثل مصدر الإشعاع الفني الخلافي بقرطبة في مسجدها الجامع الذي كان موضع تعظيم أهل الأندلس والمركز الديني الأول في البلاد، ففيه كان يحتفل المسلمون بالمناسبات الدينية والسياسية الهامة، مثل الاحتفال بليلة القدر [2] والاحتفال بليلة الإسراء والمعراج، واحتفال الخلفاء بتلقي البيعة، وقد أوضحنا كيف أدى تعظيم أهل الأندلس لجامع قرطبة الى أن أصبح المثل الأعلى لمساجد المغرب والأندلس، فقلد المرابطون تصميمه في جامع تلمسان [3]، واتخذ الموحدون تخطيطه أنموذجاً لجوامعهم [4]، وحوكيت قبابه القائمة على الضلوع المتقاطعة، في قباب طليطلة وغيرها من مدن الأندلس [5]، وأصبح

---

(١) ابن الشباط، قطعة في وصف الأندلس وصقلية من كتاب صلة السمط وسمة المرط، تحقيق الدكتور مختار العبادي، ص ١٤٢.

(٢) راجع في ذلك وصف الكاتب أبي ابراهيم محمد بن صاحب الصلاة الولبني لجامع قرطبة عندما حضر لمشاهدة الاحتفال بليلة القدر (المقري ج ٢ ص ٩٠ ٩٢).

(٣) المغرب الكبير، ج ٢ : العصر الاسلامي ص ٧٥٠.

(٤) المساجد والقصور في الأندلس، ص ٦٣ – المغرب الكبير، ص ٨٥٥.

(٥) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٤٠٢ – مسجد المسلمين بطليطلة مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ص ١٩٥٨، ومقالي بعنوان : ما لا يعرفه المسلمون عن حواضر الأندلس : طليطلة، مجلة الفكر الاسلامي، العدد الخامس، آذار ١٩٨٠، بيروت ص ٣٨ – ٥٢.

فن العمارة والزخرفة الخلافي المتمثل في جامـــع قرطبة يؤلف مدرسة فنية تلقت فنونُ الغرب المسيحي والاسلامي دروسها عليها ؛ وكما كان هذا الجامع معظماً عند المسلمين، فقدكان المسيحيون يعتبرونه أروع أمثلة العمارة الاسلامية، وأكبر جامعة غربية في العصور الوسطى، وكان القسيسون والأساقفة يعظمونه « لكنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم ، عمل عليهــا المسلمون الجامــع الأعظم » [1] ، ولذلك السبب رغب الفونسو السادس ملك قشتالة وليون بعد أن داخله الغرور بقوته وتلقب بامبراطور اسبانيا كلهـــا Jmprateur Totius Hispaniae وبلقب « الامبراطور ذو الملتين » [2] ، أن يرسل زوجته « القمطيجة » أي الكونتيسة إلى جامع قرطبة — وكانت حاملاً — لتلد فيه لمـّا أشار عليه القسيسون بذلك [3] .

وهناك عامـــل آخر لتعليل تغلغل التأثيرات الفنية القرطبية في العمارة المسيحية والاسلامية هو هجرة عدد كبير من أهل قرطبة إلى العالم الاسلامي منذ أيام الفتنة التي انتهت بسقوط الخلافة ودثور المدينة وتأخرها حتى استيلاء القشتاليين عليهــا ، وهذا السبب يفسر انتقال التأثيرات الفنية القرطبية الى المغرب الاسلامي وإلى مصر والشام. أما بالنسبة لانتقال نظم العمارة القرطبية الى إسبانيا المسيحية ، فقد تم ذلك إما عن طريق تسلل جماعات من النصارى المستعربين (المعاهدة) فراراً من سياسة الاضطهاد التي جرى عليها المتأخرون من حكام المرابطــين والموحدين ، إلى المناطق الإسبانية المسيحية واختلاطهم بسكان هذه المناطق ممـــا أعان على تحقيق نوع من التزاوج والتواصل الحضاري بين التقاليد التي حملوهــا معهم والتقاليد المحلية ، أو لأن التفوق الثقافي والفني

---

(١) الحميري ، ص ٨٤ — المقري ، ج ٦ ص ٨٩ .

(٢) ابن الكردبوس ، تاريـــخ الأندلس ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، ص ٨٨ وحاشية رقم ٣ .

(٣) الحميري ، ص ٨٤ .

للحضارة الخلافية بقرطبة أعان على انتشال المجتمع المتحرر في شمالي أيبيريا ، وأعني به مجتمع الممالك الإسبانية المسيحية ، من بؤسه الذي كان ينوء بـــه ، فأمكن على هـــذا النحو تطعيم الفن المسيحي المستعرب ببعض عناصر الفن القرطبي ، وساعد على ذلك ضعف إمكانيات الفن الاسباني ونفاذ طاقاته بعد أن اختل جسم المجتمع المسيحي في أوروبا الغربية إثر الكارثـــة السياسية والثقافية التي أثارها دمار الامبراطورية الرومانية، وهكذا كان هذا الاختلال باعثاً على انتشار نفوذ الفن الاسلامي حتى إذا ما تحللت الروح المستعربـــة وتلاشت بمضي الزمن ، راح العنصر الأندلسي يؤثر في المجـالات الفنية بإسبانيا المتحررة من النفوذ السياسي للاسلام تحت اسم التدجين[1] . امـــا انتقال التأثيرات الفنية القرطبية الى الأوفرني وغسقونية وأقطانية بجنوبي فرنسا فقد تحقق عن طريقين : أحدهمـــا اشتراك الفرنجة في حروب الاسترداد المسيحي الاسباني ضد المسلمين في الأندلس ، ورؤيتهم للآثار الاسبانية ذات الطابـع الخلافي سواء أكانت مستعربة أم مدجنة ، ومحاولتهم تقليدها في بلادهم بعـد ذلك. فلقد كانت إسبانيا في القرن الحادي عشر في خاطر الأساقفة الكلونيين دائمـــاً ، إذ كانوا يعتبرونها المركز الأمامي للمسيحية أمام العالم الاسلامي ، والحاجز المهدّد الذي يجب الدفاع عنه . ولم يلبث الرهبان الكلونيون أن اشتركوا في الحملات الصليبية الموجهة الى قلب الأندلس ، وخاضوا المعارك مع القشتاليين ضد المسلمين. وأما الطريق الثاني الذي نفذت منه التأثيرات الخلافية الى فرنسا فهو طريـق الحج الى شنت ياقب Santiago de Compostela وقد عمل أساقفة كلوني على تنظيم هـــذا الطريق ، فأقاموا على طول الطرق الفرنسية المؤدية الى شنت ياقب أديرة كلونية لتكون منـازل للحجاج . وكان من آثار ذلك أن أقـــام الرهبان الفرنسيون حجاج شنت ياقب كنائس لهم بفرنسا طعموهـا ببعض عناصر من الفن الاسلامي الذي شاهدوه متداخلاً في

---

(٤) جومث مورينو ، ص ٤٢١ .

الكنائس المستعربة . ومن هؤلاء جوتسكال أسقف بوى Puy الذي حج إلى اسبانيا في منتصف القرن الرابع الهجري وبنى كنيسة سان ميشيل في بلدة بوى إثر عودته ، والأسقف بيير الثاني المعروف ببيركير الذي زار كنيسة شنت ياقب وكنيسة سان إيسيدرو بليون [1] .

(٢)

مظاهر التأثيرات القرطبية في الفنون المعمارية المسيحية

أ - التأثيرات القرطبية في الكنائس المستعربة الاسبانية

لم يتبق من كنائس المستعربين في الأندلس أو في المناطق التي ظلت خاضعة لسلطان المسلمين حتى القرن السابع الهجري إلا آثار ضئيلة لا تكفي لمعرفة ما كانت عليه هذه الكنائس في العصر الاسلامي . ومن آثار الكنائس المستعربة بقايا كنيسة ببشتر التي أقامها عمر بن حفصون إمام ثوار الأندلس وقدوتهم في عصر الطوائف الأول [2] في الفترة ما بين عامي ٢٨٥ هـ و ٣٠٥ هـ (٨٩٨ - ٩١٧ م) وذلك بعد تنصره [3] ، ومنها كنيسة سانتا ماريا دي ملكي بطليطلة Santa Maria de Melque التي أقيمت في أواخر القرن التاسع أو طليعة القرن العاشر الميلادي [4] . وتتميز هاتان الكنيستان باستخدام العقد

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، أثر العمارة الأندلسية في العمارة المسيحية ، كتاب الشعب رقم ٦٤ ص ١٧٢ .

(٢) راجع كتابنا : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٢٥٣ وما يليها .

(٣) Camp y Cazorla, Arquitectura califal y Mozarabe, en Cartillas de Arquitectura espanola, No IV, Madrid, 1929, p. 24.

(٤) جومث مورينو ، الفن الاسلامي في اسبانيا ، ص ٤٢٣ .

المنفوخ أو المجاوز الذي يتخذ شكل حدوة الفرس وهو عقد ظهر وساد استخدامه في المسجد الجامع بقرطبة وفي فن العمارة الأموية في الزهراء والزاهرة وإشبيلية وطليطلة والمرية وتطيلة .

أما الكنائس المستعربة في الممالك الإسبانية المسيحية فكان عددها أكبر نسبياً وإن كان ما وصل إلينا منها يعد قليلاً لتعرضها لأعمال التدمير والتخريب التي صحبت حملات المنصور محمد بن أبي عامر وابنه المظفر عبد الملك . ولقد بلغ التأثير القرطبي درجة كبيرة في كنائس أشتورية ، وتتمثل هذه التأثيرات في شيوع استخدام العقد المنفوخ المتجاوز لنصف الدائرة والطرر المربعة التي تحيط به ، والنوافذ المزدوجة ذات العقدين التوأمين . ألا أن تأثير الفن الخلافي بلغ ذروته في كنائس جليقية مثل كنيسة سانتياجو دي بنيالبا (بليون) Santiago de Penalba حيث نشهد العقد المنفوخ الذي تجاوز نصف الدائرة إلى حد أن استدارته بلغت اتساع ثلثي المحيط ، وحيث ترى الطرر المستطيلة تحيط بالعقود ، والنوافذ المزدوجة ذات العقود التوأمية . وكانت مملكة ليون أكثر ممالك إسبانيا المسيحية تقبلاً للعناصر المستعربة وتشبعاً بتأثير الفن الخلافي القرطبي ، ففيها أقام الرهبان القرطبيون منشآتهم التي سجلوا فيها الطابع المستعرب. وشهدت العمارة الليونية إبان القرن العاشر الميلادي فيضاً من التأثيرات القرطبية تتمثل بوجه خاص في بازيليكية سان ميجل دي اسكالادا بليون San Miguel de Escalada التي أسّسها القس الفونسو مع بعض رهبان هاجروا من قرطبة في سنة ٩١٣ . وتتكون البازيليكية المذكورة من ثلاثة أروقة تفصلها فيما بينها صفوف من العقود المتصلة ، من النوع المنفوخ المتجاوز لنصف الدائرة ، تقوم على عمد على النحو الذي نشاهده في بلاطات المساجد قرطبية الطابع . ويشغل مقدم الكنيسة ثلاثة مصليات عقودها منفوخة . ويعلو حنية الكنيسة من الخارج برطل أو ظلة بارزة تحملها كوابيل ذات لفائف تشبه الكوابيل القرطبية [١] .

---

(١) Camps y Cazorla, op. cit. p. 26 – جومث مورينو، ص٤٣٩ وما يليها.

كذلك تتمثل التأثيرات القرطبية أروع تمثيل في كنيسة سان ميّان دي لاكوجويّا San Millan de la Cogolla ببلدة لاريوخا la Rioja التي أقيمت في سنة ٩٨٤ م[١]، وكنيسة سان ثبريان دي ماثوتي San Cebrian de Mazote التي أسسها القس القرطبي خوان في سنة ٩٢١ ، وكنيسة سان باوديل دي برلانجا San Baudel de Berlanga في سورية بقشتالة ، التي أقيمت في العقد الثاني من القرن الحادي عشر ، وتتميز بقبوتها القائمة على الضلوع البارزة المتقاطعة على النحو الذي شاهدناه في جامع قرطبة [٢] .

ونلاحظ أن بناني هذه الكنائس استخدموا العقود المنفوخة المتجاوزة لنصف الدائرة من النوع القرطبي إستخداماً عاماً ، وقد تتسع هذه العقود في كنيسة سان ميجل دي اسكالادا بنسبة تبلغ ثلاثة أرباع المحيط . ونلاحظ أن بكنيسة سان سلفادور دي فلدي‌ديوس San Salvador de Valdedios نافذة لها متكأ فرغت فيه زخارف هندسية جصية متشابكة تشبه كل الشبه إحدى متكآت جامع قرطبة . ويتجلى في كنيسة سان ثبريان دي ماثوتي عقد خلافي الطابع يتعاقب في سنجاته اللونان الأبيض والأحمر . وفي كنيسة سانتاماريا دي ليبنيا Santa Maria de Lebena التي أقيمت في سنة ٩٣٠ م ظلة تقوم على كوابيل ذات لفائف تحتشد فيها الزخارف ، ويتوسط كل كابولي منها شريط مزين بتوريق متموج وأحياناً بزخرفة هندسية ، على النحو الذي نشاهده في كوابيل جامع قرطبة منذ عصر عبد الرحمن الناصر [٣] . ومن

---

(١) Gomez Moreno, Iglesias Mazarabes, Madrid 1919, pp. 203 - 205 .

وبهذه الكنيسة قبوة يتقاطع في وسطها أربعة ضلوع بارزة على شكل عقود نصف دائرية ، ولكنها تختلف عن الحل الذي توخاه مهندسو جامع قرطبة (راجع جومث مورينو ، ص ٤٥٨).

(٢) جومث مورينو ، الفن الاسلامي ص ٤٦١

Camps y Cazorla, op. cit. p. 29 .

(٣) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, p. 358 والترجمة العربية لهذا الكتاب ص ٤٥٨ – Camps y Cazorla op. cit. p 28

الطريف أيضاً في باب التأثيرات القرطبية أن تخطيط حنية كنيسة سانتياجو دي بنيالبا يتخذ شكل عقد منفوخ أشبه بحدوة الفرس لا يفترق كثيراً عن عقد المحراب بالمسجد الجامع بقرطبة .

ب – أثر القبوات والقباب القرطبية ذات الضلوع البارزة والمتقاطعة في نظام التقبيب في إسبانيا المسيحية وفرنسا

رأينا في دراستنا السابقة (١) أن جامع قرطبة يضم أقدم أمثلة للقباب ذات الضلوع المتقاطعة (٢) ، وأن هذه القباب أقدم من قباب كنيسة أشبط الأرمنية وقبوات الجامع الكبير بأصفهان ، وأشرنا إلى التقارب الواضح بين قباب جامع قرطبة القائمة على الضلوع البارزة وقبة المحراب بجامع الزيتونة بتونس حيث تظهر بين فصوص القبة المتشعبة من المركز ضلوع قليلة البروز لم تصل بعد الى المرحلة التي تنفصل فيها عن غطاء القبة (٣) . ثم تطور هذا النوع من القباب فيما بعد بطليطلة الى قبوات حلت فيها الرغبة في استنباط أفكار زخرفية نابعة من الفكرة المعمارية من تقاطع الضلوع محل الفكرة المعمارية الأصيلة التي يعبر عنها تقاطع الضلوع في القباب القرطبية ، ويتمثل هذا التطور في نظام التقبيب من الفكرة الهندسية المعمارية إلى التشكيلات الزخرفية في قبوات مسجد باب مردوم بطليطلة الذي يعرف باسم كنيسة الكريستو دي لا لوث ، وفيها يقوم نظام التقبيب على تقاطع العقود البارزة أو

---

(١) راجع الصفحات من ٣٤٨ الى ٣٩٣ بالجزء الأول من هذا الكتاب .

(٢) Lambert, l'Architecure musulmane du Xe siècle à Cordoue et à Tolède, dans Gazette des Beaux arts, t. XII, 1925, pp. 142 - 147 — Lambert, les coupoles des grandes Mosquées de Tunisie et d'Espagne, aux IXe et Xe siècles, Hespéris, t. XXII, fasc. II, 1936—Torres Balbàs, Arte Hispano musulman, pp. 521-524.

(٣) Lambert, les Coupolos des grandes mosquées de Tunisie et d'Espagne, p. 215 .. وارجع الى الصفحة رقم ٣٩٢ بالجزء الأول .

الضلوع في صور مختلفة، منها ما يمثل شكلاً رباعياً منحرفاً ذا أقطار متقاطعة تكسبه شكل قبوتين من الطراز القوطي واحدة بداخل الأخرى ، ومنها قبوة ضلوعها المتقاطعة تتخذ نفس التشكيل الزخرفي الناشيء من تقاطع القبة المخرمة الكبرى بجامع قرطبة [1] . كذلك يتمثل الاتجاه الزخرفي في تقاطع الضلوع بالقبوة التي تعلو الأسطوان الأوسط من مسجد الدباغين المعروف في الوثائق الطليطلية بمسجد المسلمين ، ونظام هذه القبوة قوامه أربعة عقود نصف دائرية متقاطعة فيما بينها : إثنان رأسيا وإثنان أفقيا ، ويشغل كل مربع من المربعات التسعة الناشئة من هذا التقاطع قبيبات صغيرة يتقاطع فيها قوسان صغيران في شكل صليبي ، وهو تطور غريب لقبوات مسجد الباب المردوم : فبدلا من وجود تسع قبوات يعلو كل منها أسطواناً من أساطين المسجد، اجتمعت القبوات التسع في قبوة واحدة تغطي الأسطوان الأوسط من مسجد المسلمين، في حين غطيت الأساطين الأخرى بقبوات نصف أسطوانية ذات أربعة مقاطع رأسية . وتمثل هذه القبوة مرحلة جديدة من مراحل تطور القبة ذات الضلوع المتقاطعة : من الفكرة المعمارية البحتة التي رأيناها في جامع قرطبة ، الى الفكرة الهندسية الزخرفية التي تتمثل بصورة واضحة في قبوات مسجد الباب المردوم . ثم مر نظام التقبيب القرطبي بمرحلة رابعة استهدفت الناحية الزخرفية الخالصة ، وتتمثل في قبة مصلى قصر الجعفرية بسرقسطة التي لم تصل الينا [2]، وفي قبة المحراب بالمسجد الجامع بتلمسان وهي قبة من النوع القائم على الضلوع المتقاطعة تختلف عن قباب قرطبة في أنها تقوم على جوفات ركنية مقربصة وينبت من القاعدة المربعة للقبة ١٢ عقداً كبيراً بارزاً تتقاطع فيما بينها تاركة في الوسط قبيبة مقربصة ، وتزدان

---

(١) راجع الجزء الأول ، ص ٣٩٢ .

(٢) J. Galiay, el Castillo de la Aljaferia, 1906, p. 20 -
المساجد والقصور في الأندلس ، ص ٩٦ — العمارة المدنية بالأندلس، كتاب الشعب عدد ٦٤ ص ١٣١ .

الفراغات الناشئة من تقاطع الضلوع بتوريقات مفرغة في الجص [١] ، وأخيراً في القبة التي تعلو إحدى قاعات المنزل رقم ٣ الواقع ببهو البنود من أبهاء قصر الموحدين بإشبيلية ، وتقوم على اثني عشر عقداً تتقاطع فيما بينها على نسق قبة المحراب بجامع تلمسان [٢] .

ثم طرأ تحول نهائي في نظام القبوات ذات الضلوع عندما ظهرت القبوات المقربصة التي تبرز فيها ضلوع زخرفية متقاطعة بين الجوفات والدلايات المثلثة والمخروطية التي تشكل المقربصات ، ويتجلى ذلك في القبوة المقربصة القائمة اليوم بالمدخل الشرقي من صحن جامع القصبة الكبير بإشبيلية [٣] .

ولقد انتقلت فكرة تقاطع العقود البارزة بالقبوات إلى نظام التقبيب في الكنائس المسيحية ذات الأسلوب الروماني فيما بين القرنين العاشر والثاني عشر، وطغى نظام التقبيب القرطبي على نظام التقبيب المصلب في هذه الكنائس ، فنراه واضحاً في المران بقشتالة ، وفي قبوة مصلى توريس دل ريو بنبرة (Navara) وبرج دير موساك وبوابة كاتدرائية سان برتران دي كومنج وأولورون ومستشفى سان بليز بفرنسا . أما القبوة التي تسقف الغرفة العليا ببرج دير موساك فقد أقيمت فيما بين عامي ١١١٥ م ، ١١٢٠ م ، وتقوم على اثنى عشر عقداً بارزاً تنبت من إثنى عشر عموداً ملتصقة بالجدران ، وتتقاطع هذه العقود فيما بينها حول فتحة وسطى . وأما مستشفى سان بليز المعروف بمستشفى الرحمة فقد أقيمت في منطقة جبال البرانس ، في ممر سومبور الذي يقع في الطريق الذي يسلكه الحجاج الفرنسيون الى شنت

---

(١) Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, Paris, 1954, p. 197 — المغرب الكبير ج ٢ : العصر الاسلامي ، ص ٧٠١ .

(٢) العمارة المدنية بالأندلس ، ص ١٣٤ .

(٣) المغرب الكبير ، ص ٨٠٦ .

ياقب Santiago de Compostela في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر ، وهي بناء يغلب عليه الطابع الشرقي إذ أن رواقها الأوسط يزيد ارتفاعه عن الرواقين الجانبيين ، وتعلوه عند منتصفه قبة ترتكز على قاعدة مربعة ، بأركانها جوفات مقربصة لتحويل القاعدة المربعة الى عنق مثمن ترتكز عليه قاعدة القبة ، وتتوسط جوانب القاعدة المربعة مساند حجرية يتلقى كل منها منبتي عقدين من العقود الثمانية البارزة التي تؤلف هيكل القبة ، وتتشابك هذه العقود فيما بينها مكونة شكلاً نجمياً يتوسطه فراغ مركزي على النحو الذي نشاهده في القبتين المجاورتين لقبة المحراب بجامع قرطبة ، وإحدى قباب مسجد الباب المردوم بطليطلة[1] ، وتشبه هذه القبة قبة أخرى بكنيسة سانت كروا بأولورون قوامها هيكل من الضلوع المتقاطعة يؤلف شكلاً نجمياً كبير الشبه بالشكل النجمي الذي نشاهده في قبة سان بليز ، وكل الفارق بين القبتين لا يزيد على أن ضلوع قبة أولورون لا تترك فراغاً مركزياً . ولا يختلف بناء هاتين القبتين على قباب قرطبة وطليطلة إلا في أنها مبنية من الحجر بقصد معماري بحت .

ويمكننا أن نضيف إلى القبتين المذكورتين قبوة ثالثة هي قبوة مصلى طلبيرة في الكاتدرائية العتيقة بشلمنقة ، وهي قبوة تذكرنا بقبوة صومعة جامع الكتبية بمراكش ، وقبوة بهو البنود بقصر الموحدين بإشبيلية ، وقبوة دير لاس إويلجاس بمدينة برغش [2] (Las Huelgas de Burgos) .

---

(١) Elie Lambert, L'hôpital Saint Blaise et son église hispano-mauresque, al-Andalus, 1940, fasc. I, pp. 179 - 187.
Emile Mâle, Art et artistes du Moyen âge, Paris 1947, pp. 73 - 74.
ويتجلى أثر الفن القرطبي في كثير من العناصر المعمارية بهذه الكنيسة ، كالشبكات المخرمة في النوافذ بدلاً من الشمسيات الزجاجية الملونة ، والعقد المفصوص متعدد الفصوص فوق حنية الكنيسة .

(٢) Jasé Camon Aznar, la boveda gotica morisca de la Capilla de Talavera, en la Catedral Vieja de Salamanca, al-Andalus, vol. V, fasc. I, 1940, p. 176.

ومن بين القباب التي ترجع إلى القرنين العاشر والحادي عشر ، والتي تشبه في نظامها قباب جامع قرطبة وطليطلة ما كان تخطيط عقوده البارزة أكثر بساطة من تخطيط عقود القباب بقرطبة ، بحيث يميل إلى التخطيط الذي ترسمته التصليبات القوطية الفرنسية فيما بعد ، إذ أن العقود البارزة في بعض هذه القباب التي تندرج في قائمة القباب الأندلسية تتقاطع في مركزها دون أن تترك فراغاً مركزياً ، وقد رأينا أمثلة من هذا النوع من قباب الضلوع ذات التخطيط المصلب في أولورون وفي كنيستي سان ميان دي لاكوجوبا ، وسان بوديل دي برلانجا San Baudel de Berlanga في قشتالة وهناك أمثلة أخرى في قبوة فيراكروث بشقوبية Segovia ، وقبوتيْ كنيسة سان جوان دي دويره بولاية سورية الإسبانية ، وقباب كاتدرائية خاكا بوشقة Huesca [1]، والبرج القديم بكاتدرائية أبيط Oviedo المعروف ببرج سان سلفادور ، وبرج سان مرتين دي أريفالو بآبلة Avila [2] .

ولعل هذه الأمثلة جميعاً اتبعت نفس نظام إحدى قبوات مسجد الباب المردوم أو قبوة مسجد المسلمين بطليطلة [3] ، ولا يمكننا في حالة هذه القبوات أن نفترض تأثرها بالقبوات القوطية الفرنسية ، لأنها تقليد لنماذج قرطبية أو طليطلية ، ويؤيد ذلك وجود قبوات ذات ضلوع متقاطعة في منطقة غسقونية ولنجدوك وأقطانية وآنجو ونورمندي ، ولكنها لا تمت للتصليبات القوطية إلا بصلة بعيدة ، لأنها سبقت التصليبات القوطية في الظهور

---

(١) Torres Balbas, la progenie hispano-musulman de las primeras bovedas nervadas francesas, al-Andalus, vol. III, 1935, pp. 398 - 410 .

(٢) Gomez Moreno, et arte romanico espanol, Madrid 1943, p. 70.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، مسجد المسلمين بطليطلة، مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، ١٩٥٨ .

بمهد طويل ، ومن ثم فلا يمكن أن نفسر ظهورها على أنها مجرد تقليد خاطىء للقبوات القوطية في ايل دي فرانس ، كما لا يمكن اعتبارها مجرد تقليد للقباب القرطبية الاسلامية ، ولكنها تتخذ حلاً وسطاً بين النظام القرطبي والنظام القوطي الأمر الذي يدعونا الى الإعتقاد بأنها اقتبست من القباب الطليطلية التي فقدت المدلول المعماري وغلب عليها الطابع الزخرفي الهندسي ، وبذلك يكون فنانو فرنسا قد أخذوا من أساليب العمارة الاسلامية بقرطبة ما يتفق مع رغباتهم وأهوائهم ، ولم ينقلوها صورة مطابقة للأصل (١) .

ولا يهمنا الدور الزخرفي الغالب الذي لعبته القباب القرطبية ذات الضلوع بقدر ما يهمنا ما أدته من خدمات جليلة في إلهام المهندسين الفرنسيين لهذا الحل المعماري الفريد الذي تمثله القبوات القوطية . ومع ذلك فإن التصليبات القوطية التي نشاهدها في أروع الكنائس والكاتدرائيات الفرنسية لم تظهر هكذا فجأة دون مقدمات ، وإنما سبقتها محاولات متعددة في نورماندي ومناطق أخرى من فرنسا نخص بالذكر منها سانتونج وبواتو (٢) . ولكن التصليبات القوطية لم تأخذ مظهرها النهائي إلا عندما اتحدت فكرة الضلوع القرطبية مع فكرة القبوة المتعارضة ، وذلك بدعم خطوط التلاحم البارزة في هذه القبوة الأخيرة وإبرازها في شكل ضلوع متقاطعة على شكل الصليب ، ثم استخدم هذا الابتكار لتغطية مسطحات واسعة في الكنائس عوضاً عن أماكن ضيقة محدودة .

ج - أثر الزخارف المعمارية القرطبية في فن الزخرفة المعمارية الفرنسية

لم تقتصر التأثيرات القرطبية في العمارة المسيحية باسبانيا وفرنسا على

---

(١) Lambert, les Voûtes nervées hispano musulmanes du XIe siècle et leur influence possible sur l'art chrétien, Hespéris, 1928.

(٢) Torres Balbas, la progenie, p. 406.

القبوات ذات الضلوع البارزة التي أدت إلى استلهام فكرة القبوات القوطية المصلبة ، وإنما تجاوزتها في فرنسا إلى العناصر الزخرفية أيضاً : ففي كنيسة نوتردام دي بوردي كليرمو التي تعتبر أقدم كنائس مقاطعة أوفرني Auvergne بفرنسا استخدمت الكوابيل قرطبية الطابع ، ومن العجيب أن تتماثل كوابيل كليرمو مع كوابيل جامع قرطبة في حين تختلف عن كوابيل الكنائس المستعربة مثل كنيسة سانتياجو دي بنيالبا ، وسان ميجل دي ثيلانوفا ، وسان ميّان دي لاكوجويا[1] ، مما يدل دلالة واضحة على أن الفنان الفرنسي أخذ مباشرة من جامع قرطبة .

وقد انتشر في فرنسا عنصر هام من عناصر العمارة الخلافية بقرطبة هو العقد ثلاثي الفصوص أكثر من انتشاره في قرطبة نفسها ، وكان مركز انتشاره في بلدة بوي Puy وتتجلى هذه الظاهرة في واجهة كاتدرائية نوتردام دي بوي ، بل إننا نشهد في هذه الواجهة العقود متعددة الفصوص أو المفصوصة ، والعقود المنفوخة التي تتناوب في سنجاتها الألوان ، الأمر الذي يدل على وجود تأثير مباشر من جامع قرطبة . والواقع أن ظهور هذه العقود القرطبية مع تناوب الألوان وظاهرة تقليد الكتابة الكوفية في طرة الباب لم يكن وليد الصدفة ، ولكنه دليل حاسم على أن الفنان الفرنسي استهدف تقليد نظائرها في جامع قرطبة .

ولا يقف الأثر الاسلامي القرطبي على هذه الواجهة ، وإنما نراه ممثلاً في برج الكاتدرائية الذي يزدان بفتحات عقودها متعددة الفصوص على غرار عقود صومعة جامع قرطبة . ونشاهد هذه العقود المفصصة أيضاً في ديركلوني ببورجوني ، كما نراها في برج كنيسة لا شاريتيه سيرلوار ، وتشبه العقود في

(١) Emile Mâle, Art et Artistes, p. 55.
ويزدان الإفريز بين الكوابيل في كليرمو بزخارف من قبيبات مفصصة أشبه شيء بزهور ذات ثماني ورقات ، تماثل نظائرها في قبة المحراب بجامع قرطبة . وهذا النوع من الكوابيل نشاهده أيضاً في بيريجيه ببرج قرون الذي يرجع الى القرن الحادي عشر .

هذين الأثرين عقود المجاز بكنيس سانتاماريا لابلانكا بطليطلة وهو إحدى روائع الفن المدجن [١] .

وقد بحث أستاذي الدكتور أحمد فكري في أصل العقود المفصصة والمقصوصة ، وذكر لها أمثلة عديدة بفرنسا ، على الواجهات وفي العقود وفي القباب وفي قرم التيجان وعلى الأبواب [٢]، كما قام بدراسة العقود التي يتناوب فيها اللونان الأبيض والأسود ، التي لا يقتصر وجودها على عقود الفناء والواجهة بكاتدرائية نوتردام دي بوى ، بل نشاهدها أيضاً في عقود المبنى المثمن المجاور للكاتدرائية ، وفي مقصورة سان ميشيل داجويل ، وفي واجهة كنيسة موناستييه ، وربوتار ، وبولنياك سيرلوار ، وفي كاتدرائية فالنس ، وفي عقود البرج الروماني بفيين التي كانت تربطها ببوى جادة قديمة [٣] .



مدى التأثيرات القرطبية في العمارة الاسلامية

أ – في المغرب الأقصى

توثقت الصلات الفنية بين الأندلس وبلاد المغرب طوال العصر الاسلامي ، وعلى الأخص في عهد الحكم الربضي الذي قضى على ثورة أهل الربض بقرطبة

---

(١) يغلب على الظن أنه بني في القرن الثالث عشر الميلادي (راجع العمارة الدينية بالأندلس، كتاب الشعب رقم ٦٤ ، ص ١٢٠) .

(٢) Ahmad Fikri, l'art roman du Puy et les influences islamiques, Paris, 1935, pp. 203 - 221.

(٣) Ibid. p. 233.

سنة ٢٠٢ هـ ونفاهم من الأندلس فلاذوا بفاس[١] ثم ازدادت هذه الصلات وثاقة منذ أواخر عصر الخلافة الأموية بالأندلس ، وبدأت التأثيرات الأندلسية تتسلل من الأندلس الى المغرب الأقصى ، واشتد تيارهـا في عصر دولتي المرابطين والموحدين حتى شملت كل بلاد المغرب . وكان طبيعياً أن تتدفق هذه التأثيرات القرطبية التي يمكن أن نسميها أيضاً الخلافية والأندلسية على المغرب الأقصى في العصر الأموي بعد أن سعى خلفاء قرطبة منذ عبد الرحمن الناصر الى مد نفوذهم السياسي الى أرض المغرب مستهدفين من وراء ذلك محاربة النفوذ الفاطمي على التراب المغربي نفسه ، فعبد الرحمن الناصر هو الذي أمر ببناء صومعة جامع القرويين بفاس[٢] في شهر ربيع الأول سنة ٣٤٥ هـ من أخماس غنائم الروم ، «وجعل في أعلاها قبة صغيرة وضع في دورانها تفافيح مموهة بالذهب في زج من حديد » على نحو مـا فعله مهندسوه في مئذنة جامع قرطبة الجديدة التي أمر الناصر بإنشائها في موضعها الحـالي قبل بناء مئذنة القرويين بخمس سنوات ، كما أن الناصر هو أيضاً الذي أمر بإنشاء صومعة الأندلسيين بفاس في جمادى الأولى سنة ٣٤٥ هـ[٣] .

ولكن تأثيرات الفنون القرطبيـة ، التي تطورت في عصر الطوائف الى ما يعرف بالفنون الأندلسية[٤] ، بدأت تفد على المغرب منذ أن تأثر المرابطون

---

(١) فيما يتعلق بنزول أهل ربض قرطبة بأغمات راجع : البكري ، ص ١٥٥ ، وفيما يتعلق بنزول الأندلسيين أهل الربض القرطبي بفاس راجع للمؤلف : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٢٢٤ ، وتاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس ، ص ٧٠ ، وتاريخ مدينة الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، ص ١٣٠ .

(٢) الجزناوي ، كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، تحقيق الاستاذ ألفريد بل ، الجزائر ١٩٢٢ ص ٣٦ Terrasse, La mosquée des Andalous à Fès, p. 8

(٣) نفس المصدر ، ص ٨١ .

(٤) كان للفن الخلاقي بقرطبة الفضل الأعظم في تشكيل الفن الزخرفي الأندلسي ، وإمداده بمادته الحيوية ومقوماته الأساسية في عصر ملوك الطوائف وما تلاه من عصور حتى سقوط غرناطة ، ولم تتوقف قرطبة إبان هذه العصور عن تغذية هذه الفنون بتيار دافق من تأثيراتها حتى -

برقة الحياة الأندلسية ، وانغمسوا في الترف الذي اتسمت به الأندلس ، وشجع أمراؤهم شعراء الأندلس وأدباءها على الوفود الى المغرب ، « فانقطع الى أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) من الجزيرة من أهـل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتّاب وفرسان البلاغـــة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار [1] » .

وأخذ أمراء المرابطـــين منذ أيام يوسف بن تاشفين يستقدمون من الأندلس رجال الفن والبناء ويشركونهم في الأعمـــال الفنية في المغرب ، فقد ذكر الادريسي أن علي بن يوسف عندمـــا عزم على بناء قنطرة على وادي تنسيفت استقدم من الأندلس الخبراء في بنـــاء القناطر [2] . ويذكر الأستاذ تراس أن

= استكملت هذه الفنون نموها ونضارتها في عصر الطوائف الذي بلغ فيه فن الزخرفة الغـاية في الإسراف في التعقيد ، والغلو في حشد الزخارف ، والتوسل بالأقواس المتقاطعة التي تظهر فيهـــا التوريقات المتشابكة والتشجيرات المتداخلة الى حد من التعقيد يستحيل معه على المرء أن يتقصى امتداد خطوط الأقواس إذ هي تتشابك وتتداخل فيما بينها بطريقة ساحرة أخـــاذة. ونلمس في فنون الزخرفة الأندلسية في هذا العصر (سواء في سرقسطة أم في طليطلة وغرناطة ومالقة والمرية وإشبيلية وغيرها من قواعد الأندلس) تحرراً مما كان يغلب عليها من جمود ، كما نشهـــد حرية في الأداء ورشاقة في الحركة وميلاً الى التموج والانثناء والتداخل والتشابك الى حد يعجز عنـــه الوصف . ولم تنقطع قرطبـة – التي كانت معيناً من المادة الفنية لا ينضب – عن مـــد فنون المرابطين والموحدين بعد ذلك بكل ما من شأنه أن يخفف من جفوة الفن المغربي وزهـده حتى تحولت هذه الفنون في العصر الموحدي إلى فنون أندلسية ، غنية بزخارفها التي تتمثل فيما وصل إلينا من أمثلة (في جامع إشبيلية والكتبية بمراكش) . ثم واصلت هذه الفنون تطورها الطبيعي حتى بلغت في عصر بني نصر (بتشجيع من السلاطين واستجابة طبيعيـــة للأحاسيس والمشاعر الإنسانية في هذا العصر عندما أدرك أهل الأندلس النهاية المحتومـة والمصير التعس الذي ينتظرهم في الغد ، فعمدوا إلى الإقبال على المتع الحسّية ، واتجهوا إلى الإستمتاع بالقيم الجمالية) غاية مـــا يمكن أن تصل إليه، ثم قدر لها أن تهجر هذا الوطن إلى المغرب تاركة آثاراً تضم أروع ما أبدعه الفن الأندلسي ، وتراثاً ضخماً محفوظاً في قصور الحمراء وغيرهـــا من الآثار التي أصبحت مادة أساسية لفنون الزخرفة المدجّنة .

(١) المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ١٦٣ – ١٦٤ .

(٢) الادريسي ، ص ٦٩ .

قلعة تاسغيموت المغربية أقيمت في سنة ١١٢٥ في عهد علي بن يوسف بتوجيهات رجل أندلسي يقال له الفلكي ، هاجر الى مراكش[١] ، وتتجلى تأثيرات الفن القرطبي بصورة واضحة في زخارف قبة الباروديين بمدينة مراكش[٢] .
ويعتبر عصر الموحدين العصر الذي توثقت فيه العلاقات الفنية بين المغرب والأندلس الى حد التزاوج ، وفيه انتقلت التأثيرات الأندلسية الى المغرب الأقصى وظهرت في الأبنية التي أقامها خلفاء الموحدين هناك مثل جامع حسان بالرباط وجامع الكتبية بمراكش وجامع القصبة بالرباط . ويذكر ابن سعيد المغربي «أن حضرة مراكش هي بغداد المغرب، وهي أعظم ما في بر العدوة، وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة وبساتينها إنما ظهرت في مدة بني عبد المؤمن ، وكانوا يجلبون لها صناع الأندلس من جزيرتهم وذلك مشهور معلوم إلى الآن »[٣] . ولا نشك في أن عدداً كبيراً من هؤلاء الصناع والمهندسين كانوا قرطبيي الأصل أو تلقوا أصول حرفتهم في قرطبة، لأن هذه المدينة على الرغم مما آلت اليه من تدهور بعد سقوط الخلافة الأموية ظلت تحتفظ بتفوقها الفني في الأندلس ، وقد برز من مهندسي الموحدين مهندسان أندلسيان لعبا دوراً هاماً في تطوير فن البناء المغربي في عصر الموحدين، هما : الحاج يعيش المالقي، وأحمد بن باسة .

أما الحاج يعيش المالقي فهو أندلسي من مالقة ، أرسله الخليفة الموحدي عبد المؤمن بن علي مع المهندس الأندلسي أحمد بن باسة في سنة ٥٥٥ هـ (١١٢٠ م) للإشراف على أعمال البناء بجبل الفتح (جبل طارق) ، وهناك شرع المهندسون في بناء حصن الجبل في ٩ ربيع الأول سنة ٥٥٥ ، وكمل

---

(١) Terrasse, l'art hispano mauresque, pp. 256, 227

(٢) Boris Maslow, la Qubba Barudiyyin à Marrakuch, al - Andalus, 1948, fasc. I, pp. 180 - 185 — Marçais, L'architecture Musulmane d'Occident, p. 200.
وراجع أيضاً المغرب الكبير ، ص ٧٥٢ .

(٣) المقري ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٤٧ .

بناؤه في أقل من ثمانية أشهر ، كما أقام الحـــاج يعيش طاحونة هواء في أعلى الجبل [1] . والحاج يعيش هو أيضاً صاحب المقصورة المشهورة الملحقة بجامع مراكش [2] ، وهي عمل ينم عـن فن أصيل وحيل هندسية وبراعة أعجبت كل من شاهده ، فقد كانت المقصورة تدور بحركات خفية ترفع وتهبط بعد ساعات الصلاة ، ولا يرى منها إلا الجزء الأدنى من المحراب. ولا تزال في أرضية الكتبية بمراكش – في الموضع الذي كان يفصل هـذا الجزء عن باقي أجزاء المسجد – آثار قطعتين من الخشب بينهما فراغ كاف عميـــق يتسع لجدران المقصورة حين تهبط فيه . ولا يشك الأستاذ تراس في أن الحاج يعيش المالقي هو الذي شيد جامع الكتبية بمراكش وجامع تنمال . كذلك يرجع اليه الفضل الأعظم في الكشف عن جسر المياه الروماني بإشبيلية سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وكان يحمل المياه قديماً من الوادي قرب قلعة جابر ، ثم انقطع منذ زمن قديم ، فتتبعه يعيش في الطريق الى قرمونة حتى قلعـة جابر ، وجدد بنيانه [3] . ولقد تبقى اليوم في مدينة سلا الواقعة على ساحل المحيط الأطلسي بابان بدار الصناعة التي أنشأهـا بين عامي ٦٥٠ ، ٦٦٠ هـ (١٢٦٠ / ١٢٧٠ م) مدجن من أهـل إشبيلية هاجر في هذا العصر الى سلا ، واسمه أبو عبدالله محمد بن علي بن عبدالله بن محمد بن الحـــاج الاشبيلي [4] الذي أنشأ أيضاً الدولاب (الساقية) القائم في مدينة فاس جديد وذلـــك في النصف الثاني من القرن الثالث عشر في عهد السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني. أما أحمد بن باسة فنعتقد أنه قرطبي الأصل ، إذ ورد اسمه في أحد فصول المقتبس لأبي مروان

---

(١) ابن صاحب الصلاة ، تاريخ المنّ بالامامة ، ص ١٤٢ .

(٢) الحلل الموشية ، تونس ١٣٢٩ ص ١٠٨ .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ .

(٤) يغلب على الظن أنه ينتسب الى الحاج يعيش المالقي ، ويقول ابن الخطيب في الاحاطـــة حين يتعرض لذكر محمد الحاج الإشبيلي أن هذا المهندس يجيدالحيل الهندسيـــة ، وكذلك الآلة الحربية الجافية وقد أقـام بفاس الدولاب الكبير . (السلاوي ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ ج ٣ ص ٢٢) .

ابن حيـان باعتباره المسؤول الأول عن تدمير آثار بني أمية بقرطبة وبيـع أنقاضها [١]، ولقد قام أحمد بن باسة بتجديد قصور قرطبة في سنة ٥٥٥ هـ[٢]، ثم أمره الخليفة أبو يعقوب يوسف بإدارة أعمال البناء في جامع إشبيلية [٣] في عـام ٥٦٧ هـ ، وشرع ابن باسة في بناء قصور البحيرة خارج باب جهور من إشبيلية في هذه السنة ، كما شرع في سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) في بناء صومعة جامع إشبيلية الكبير بعد أن ردم أساسها الذي تملؤه المياه بالأحجار والجيار ، وبلّطه لتأمين استقرار الأساس [٤] .

ولقد اشتد تيار التأثيرات الأندلسية في عمائر المغرب بعد انهزام الموحدين في موقعة العقاب في سنة ٦٠٩ هـ ، فعبر عدد كبير من أهـــل الأندلس إلى بر العدوة مهاجرين إلى المغرب ، ولم يمض أربـــع وعشرون سنة حتى كانت قرطبة قــد سقطت في أيدي القشتاليين وهاجر من أهلها عدد كبير الى بر العدوة، وتتابعت الهجرات الى المغرب بعد ذلك ، ولقد أشار ابن مرزوق في كتابه المسند الى بعض الصناعات الأندلسية التي راجت في بـلاد المغرب لتوافر البنائين والنجارين والجباسين والزلّيجيين والرخّامين والقنويين والدهانين والحدادين والصفارين [٥] . ويؤكـد الاستاذ بنعبـد الله أن الأثر الأندلسي

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، قسم ١ ، مجلد ٢ ، ص ١١١ — ١١٢ . وراجع الجزء الأول من كتابي قرطبة ص ١١٦ وما يليها .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، ص ٢٠٦ .

(٣) ابن صاحب الصـــلاة ، ص ٤٦٧ — To··es Balbas, Arquitectos andaluces de las épocas almoravide y almohade, al - Andalus, 1946, p. 217.

ولعل ابن باسه أو ابن باشه المذكور ينتسب أيضاً الى أسرة البـاصة بطليطلة التي ينسب إليها اليان بن أبي الحسن بن الباصة في أواخر القرن الثاني عشر (راجع :

Palencia (A. Gonzalez) los Mozarabes de Toledo, vol. I, Madrid, 1926).

(٤) ابن صاحب الصلاة ، ص ٤٨٢ .

(٥) Lévi-Provençal, un nouveau texte d'histoire mérinide: le Musnad d'Ibn Marzuk, Hespéris, t. V, année 1925, p. 38

واضح في هذه الصنائع ، فالزليجي الفاسي ، وهو نوع من الترصيع الخزفي ، أصله من الأندلس ، كما أن أغلب فنون التطريز والترقيم المغربي من أصل أندلسي [1] . وفي هجرة أهل الأندلس إلى المغرب الأقصى يقول ابن غالب : « ولما نفذ قضاء الله تعالى على أهل الأندلس بخروج أكثرهم عنها في هذه الفتنة الأخيرة المبيرة تفرقوا ببلاد المغرب الأقصى من بر العدوة مع بلاد إفريقية ، فأما أهل البادية فمالوا في البوادي إلى ما اعتادوه ، وداخلوا أهلها وشاركوهم فيها ، فاستنبطوا المياه وغرسوا الأشجار وأحدثوا الأرض الطاحنة بالماء وغير ذلك ، وعلموهم أشياء لم يكونوا يعلمونها ولا رأوها ، وصلحت أمورهم ، وكثرت مستغلاتهم وعمتهم الخيرات... وأما أهل الحواضر فمالوا الى الحواضر واستوطنوها . فأما أهل الأدب ، فكان منهم الوزراء والكتاب والعمال وجباة الأموال والمستعملون في أمور المملكة . ولا يستعمل بلديٌ ما وجد أندلسيٌ ، وأما أهل الصنائع فإنهم فاقوا أهل البلاد وقطعوا معاشهم وأخملوا أعمالهم وصيروهم أتباعاً لهم ، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد ما يميلون به النفوس إليهم ويصير الذكر لهم » [2] .

ب – في تونس

أما تونس فقد انتقل اليها كثير من أهل شرق الأندلس وأقاموا في كنف السلطان أبي زكريا يحيى الحفصي (٦٢٠ – ٦٤٧ هـ) وذلك بعد أن استولى خايمي الأول ملك أرغون على بلنسية في سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) ، وجزيرة شقر في سنة ٦٣٩ ، ومرسية سنة ٦٤١ ، وشاطبة في سنة ٦٤٥ هـ [3] . ويعبر ابن خلدون عن ذلك أصدق تعبير في قوله : « فأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس حظ كبير من الحضارة ، واستحكمت به

---

(١) عبد العزيز بنعبدالله ، مظاهر الحضارة المغربية ، ج ٢ ، ١٩٥٨ ص ٩٣ – ٩٥ .

(٢) المقري ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٤٧ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، مدينة مرسية موطن الشيخ الزاهد أبو العباس المرسي ، الجزء الثالث من دراسات أثرية وتاريخية ، الاسكندرية ، ١٩٦٩ ص ١٨ – ٢١ .

عوائدها ، بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس . وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعاً وكرهاً ، وكانت من اتساق النطاق ما علمت ، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها، ومعظمها من أهل الأندلس. ثم انتقل أهل شرق الأندلس عند جالية النصارى إلى إفريقية ، فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثاراً معظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوائدها ...»[1] . وفي موضع آخر يشير إلى تأثر عمران تونس بحضارة الأندلس بسبب أن « أكثر ساكنها من شرق الأندلس حين الجلاء لعهد المائة السابعة ورسخ فيها من ذلك أحوال وإن كان عمرانها ليس بمناسب لذلك لهذا العهد ، إلا أن الصبغة إذا استحكمت فقليلاً ما تحول إلا بزوال محلها . وكذا نجد بالقيروان ومراكش وقلعة ابن حماد أثراً باقياً من ذلك وإن كانت هذه كلها اليوم (أي في زمن ابن خلدون) خراباً أو في حكم الخراب »[2] . ولقد كان من أثر نزول أهل الأندلس بحضرة تونس زمن السلطان الحفصي أبي زكريا أن ازدهرت الحضارة التونسية ازدهاراً لم تعرفه من قبل إلا في عهد الأغالبة ، ففي عهد المستنصر بالله الحفصي (٦٤٧ — ٦٧٥) « اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على أبيه وخصوصاً الأندلس من شاعر مفلق ، وكاتب بليغ ، وعالم نحرير ، وملك أروع ، وشجاع أهيس ، متفيئين ظل ملكه ، متناغين في اللياذ به ... وفي أيامه عظمت حضارة تونس ، وكثر ترف ساكنها ، وتأنق الناس في اللباس والمراكب والمباني والماعون والأبنية ، فاستجادوها ، وتناغوا في اتخاذها وانتعاشها إلى أن بلغت غايتها »[3] . ومن مظاهر تأثر الحضارة التونسية بالحضارة الأندلسية عن طريق مهاجري الأندلس ، رسوخ التقاليد الأندلسية في القراءات والخط ، وفي ذلك يقول ابن خلدون أيضاً :

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة أو الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون ، طبعة دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٥٩ ، ص ٦٦٠ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٧١٧ .

(٣) نفس المصدر ، ج ٦ ص ٦٧٥ ، ٦٧٦ .

« وأما أهل الأندلس فافترقوا في الأقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خالفهم من البربر، وتغلبت عليهم أمم النصرانية، فانتشروا في عدوة المغرب وإفريقية من لدن الدولة اللمتونية إلى هذا العهد، وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع، وتعلقوا بأذيال الدولة، فغلب خطهم على الخط الإفريقي وعفى عليه ... وصارت خطوط أهل إفريقية كلها على الرسم الأندلسي بتونس وما إليها لتوفر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس» [١]، ويقول أيضاً : « وأما أهل إفريقية فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب الى طريقة أهل الأندلس، لأن سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الأندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على شرق الأندلس، واستقروا بتونس، وعنهم أخذ ولدانهم بعد ذلك » [٢].

وفي هذه المعاني يقول ابن سعيد المغربي : « ومدينة تونس بإفريقية قد انتقلت اليها السعادة التي كانت في مراكش بسلطان إفريقية أبي زكريا يحيى ابن أبي محمد بن أبي حفص، فصار فيها من المباني والبساتين والكروم ما شابهت به بلاد الأندلس، وعرفاء صنّاعة من الأندلس، وتماثيله التي يبني عليها فإنما أكثرها من أوضاع الأندلسيين ». وكان ابن سعيد يدرك تمام الإدراك مدى الأثر الأندلسي في بلاط تونس، لأنه خدم الأمير أبا عبدالله المستنصر، خليفة أبي زكريا يحيى، وكان بلاطه يزخر بالأندلسيين الذين هاجروا إلى جواره [٣].

وهناك موجة أندلسية أخرى وفدت الى تونس والجزائر في سنتي ١٠١٦ هـ، ١٠١٧ هـ نتيجة لسياسة تنصير المسلمين المدجّنين بالإكراه وتعريض من يتهم من

---

(١) نفس المصدر، ج ١ ص ٧٥٠ .

(٢) ابن خلدون، ج ١ ص ١٠٣٩، ١٠٤٠ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم، التأثيرات الأندلسية في تونس، دائرة معارف الشعب، عدد ٦٤ ص ١٦٧ .

الموريسكيين ، أي المتنصرة ، بممارسة فروض الاسلام لأقصى العقوبات كالحرق مثلاً ، مما حمل العدد الأعظم من المسلمين الأندلسيين الى الخروج من وطنهم والالتجاء الى المغرب . وفي هذا المعنى يذكر المقري أن النصارى الإسبان شددوا في البحث عن المسلمين « حتى أنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد ، وقاموا في في بعض الجبال على النصارى مراراً ، ولم يقيّض الله لهم ناصراً ، إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف ، فخرجت ألوف بفاس وألوف أخر بتلمسان من وهران ، وجمهورهم خرج بتونس ، فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم ، وهذا ببلاد تلمسان وفاس ، ونجا القليل من هذه المضرة . وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم ، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها . وكذلك بتطاون وسلا وفيجة الجزائر ، ولما استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكراً جراراً ، وسكنوا سلا ، كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن ، وحصنوا قلعة سلا ، وبنوا بها القصور والحمامات والدور ، وهم الآن بهذا الحال . ووصل جماعة الى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الاسلام ، وهم لهذا على ما وُصف »[1] . وأورد السلاوي نصاً نقله عن صاحب الخلاصة النقية في أمراء إفريقية جاء فيه : « وفي سنة ست عشرة وألف قدمت الأمم الجالية من جزيرة الأندلس ، فأوسع لهم صاحب تونس عثمان داي كنفه ، وأباح لهم بناء القرى في مملكته ، فبنوا نحو العشرين قرية واغتبط بهم أهل الحضرة ، وتعلموا حرفهم وقلدوا ترفهم »[2] . وفي هذا المعنى نفسه يقول مؤرخ تونسي معاصر هو الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب : « ثم إن عثمان داي أقطع مهاجري الأندلس ما اختاروا من الأراضي ، ووزع على محتاجيهم الأموال والنفقات ، فانتشروا في أكناف البلاد يشيدون القرى ،

---

(١) المقري ، ج ٦ ص ٢٧٩ — ٢٨٠ .

(٢) السلاوي ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج ٦ ، ص ١١ .

وينشئون المزارع والبساتين حتى استأنفت تونس عمرانها . فمن المدن التي أسسوها : سليمان ، وقرنبالية ، والجديدة ، وزغوان ، وطبربة ، ومجاز الباب، وتستور ، وقلعة الأندلس . وعلاوة على ذلك فقد استوطن منهم جانب وافر حاضرة تونس ، واتخذوا بها حارات عرفت بهم مثل حومة الأندلس ، وزقاق الأندلس ، وأنشئوا أسواقاً للصناعات التي جلبوها معهم كصناعة الشاشية ونسج الحرير ونقش الرخام والجبس والزليجي ، وقد نقل أهل البلاد عنهم أصول تلك الحرف حتى أتقنوها »[1] . وقد استخدم اسطى مراد مهاجري الأندلس وعمر بهم مرسي غار الملح (قرب بنزرت) في سنة ١٠٤٧ هـ ، وأنشأ بها قلعة دفاعية [2] .

ج – في الجزائر

أخذت التأثيرات المعمارية القرطبية تتدفق على المغرب الأوسط (الجزائر) منذ قيام يوسف بن تاشفين باستنزال ملوك الطوائف في الأندلس في أعقاب الزلاقة ، وتتمثل هذه التأثيرات القرطبية بوجه خاص في محراب المسجد الجامع بتلمسان الذي يشبه محراب جامع قرطبة شبهاً كبيراً : فاللوحتان الرخاميتان اللتان تكسوان إزار واجهة المحراب بقرطبة قلدتا تقليداً واضحاً بالنسبة لمحراب جامع تلمسان ، كما قلدت في جامع تلمسان أيضاً طرز الكتابة التي تملأ طرر محراب قرطبة ، هذا بالاضافة الى البائكة الزخرفية من العقود ثلاثية الفصوص التي تعلو عقد محراب جامع قرطبة في نفس الموضع من واجهة محراب جامع تلمسان [3] . ولا يقف تأثير قرطبة في جامع تلمسان الى هذا الحد، فسقف المسجد خشبي مسطح يعلوه سطح منشوري الشكل أو مسنم على

---

(١) حسن حسني عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس ، تونس ١٣٧٣ هـ ، ص ١٣٥ .

(٢) نفسه ، ص ١٣٦ .

(٣) Marçais, l'Architecture musulmane d'Occident, p. 241

النحو المتبع في جامع قرطبة ، والبلاطة الوسطى تزيـد في الاتساع عن البلاطات الأخرى ، ويقطع سطحها قبتان ، يعلوهما جوسقان من الخارج ، واحدة منها تقع بأعلى الأسطوان الأوسط من القسم الشمالي من البلاطة الوسطى ، أي في نفس الموضع تقريباً الذي تقوم عليه القبة المحرمة الكبرى المسماة بقبة فيلا فيثيوسا بجامع قرطبة ، أما القبـة الثانية فتتقدم المحراب ، وهي قبة من النوع القائم على الضلوع المتقاطعة ، تذكرنا بقباب المسجد الجامع بقرطبة مـع بعض الثراء في الزخرفة نتيجة طبيعية لتطور فن الزخرفـة الأندلسي في عصر المرابطين . والظاهر أن مهندس جامع تلمسان تأثر في بناء هذا الجامع بجامع قرطبة ، فجاء تخطيط جامع تلمسان مماثلاً لتخطيط جامع قرطبة بجميـع ما أضيف إليه من زيادات ، بـل إن مهندس جامع تلمسان مبالغة منه في تقليد جامع قرطبة ، قلد صفوف الدعائم التي تفصل بين مسجد عبد الرحمن الأوسط وزيادة الحكم المستنصر (١) .

ولم تتوقف التأثيرات الفنية الأندلسية عن التدفق على المغرب الأوسط في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي حتى منتصف القرن الرابع عشر ، وكانت تربط ميناء وهران بميناء المرية روابط وثيقة ، ولقد طلب أبو حمو الأول (٧٠٧ — ٧١٨ هـ) وابنه أبو تاشفين (٧١٨ — ٧٣٧) من السلطان أبي الوليد اسمـاعيل سلطان غرناطة (٧١٣ — ٧٢٥) أن يبعث إليه عدداً من صناع الأندلس وفنانيها لبناء القصور بحاضرته تلمسان ، وشرع هؤلاء في بناء هذه القصور في عهد أبي حمو ، وتم بناؤهـا في عهد خلفه أبي تاشفين ، وأمهرت تلمسان وقتئذ بالقصور والدور والحدائق والجنات التي لم يبن مثلهـا بعد ذلك ، نذكر منها دار الملك ودار السرور ودار أبي فهر .

---

(١) Lambert, les mosquées de type andalou, p. 285. وارجـع إلى المغرب الكبير ، الجزء الثاني : العصر الاسلامي ، ص ٧٥١ ، وطالع ما جاء في الجزء الأول من هذا الكتاب (قرطبة) صفحة ٣٦١ — ٣٦٢ .

ويتجلى تأثير فن البناء الأندلسي في الفنون الجزائرية في عمارة المساجد ، ويعد مسجد سيدي بل حسن الذي أقامه السلطان المريني أبو سعيد عثمان صورة مماثلة لمسجد قصر الحمراء ، بل أن واجهة مسجد العباد بتلمسان تعبر أصدق تعبير عن عمق تأثير العمارة الأندلسية في أبنية الجزائر في عهد السلطان أبي الحسن المريني علي بن عثمان (الذي انتزع تلمسان في سنة ٧٣٧ من ابن أبي تاشفين سلطان بني عبد الواد) ، إذ أن زخارف التوريقات والزخارف الهندسية التي تكسو الجدران جميعاً موزعة في تقسيمات رائعة مماثلة لزخارف قصر الحمراء بغرناطة ، كذلك يمكننا مقارنة مئذنة المنصورة المجاورة لتلمسان بمئذنة جامع إشبيلية لتشابه تقاسيمها الزخرفية ، وتفاصيلها المعمارية ، وتشبيكاتها القائمة على تقاطع العقود [1] .

د — في مصر

بدأت التأثيرات الفنية القرطبية تتوافد على مصر منذ أن تمكن فريق من البحريين الأندلسيين من السيطرة على الاسكندرية في سنة ٢٠٠ ﻫ (٨١٦ م) ، وظلوا يتولونها زهاء عشر سنوات حتى أرغمهم عبدالله بن طاهر على الخروج منها إلى جزيرة إقريطش[2] . ومنذ العصر الفاطمي زاد اتصال أهل الأندلس بمصر ، وأصبح ميناء الاسكندرية محطاً رئيسياً للسفن القادمة من المغرب والأندلس إلى مصر والشام ، تحمل علماء يرغبون في مزيد من المعرفة على أيدي المشارقة ، أو حجاجاً يسعون إلى زيارة الأراضي المقدسة وأداء فريضة الحج ، أو تجاراً همهم ملأ أيديهم من المكاسب التجارية . ثم ازدادت حركة الهجرة من الأندلس إلى المشرق بعد الأحداث التالية :

---

(١) راجع بحثي عن التأثيرات الأندلسية في الجزائر ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٦٤ ، ص ١٦٧ .

(٢) راجع التفاصيل في كتابي : تاريخ الاسكندرية ، ص ١٣٨ - ١٤٣ ؛ تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس ص ٧٥ — ٨٠ ؛ تاريخ البحرية الاسلامية في مصر والشام ، ص ٤١ .

١ - قيام الفتنة وسقوط الخلافة الأموية بقرطبة . ٢ - استيلاء الفونسو السادس على طليطلة في سنة ٤٧٨ هـ . ٣ - هزيمة العقاب التي مني بهـا الموحدون في سنة ٦٠٩ هـ .

وعلى هذا النحو نزل مصر كثير من الوافدين من أهل الأندلس على الأخص من علمائها، نخص بالذكر منهم أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي، وأبو عبدالله محمد بن لب الشاطبي ، وأبو محمد عبد المنعم عمر المالقي ، وأبو الخطاب عمر ابن الحسن بن دحية .

ويعتبر عصر المماليك العصر الذي تسربت فيـه التأثيرات الأندلسية الى مصر ، إما عن طريق التجار الذين تربطهم بمصر علاقات تجارية عبرت عنهـا المعاهدات التجارية المعقودة بين أرغون وقشتالة وبين مصر [١] أو عن طريق المهـاجرين الأندلسيين الذين خرجوا من الأندلس على أثر استيلاء النصارى على مدنهم . وقد يكون من بين هؤلاء الأندلسيين جماعة من أرباب الحرف والفن استخدمهم سلاطين مصر ونوابهم في أعمـال البناء والزخرفة والصناعات . وتتجلى هـــذه التأثيرات القرطبية والأندلسية في العقود المنفوخة المتجاوزة والعقود التوأمية في الواجهات والمآذن[٢] ، كما تتجلى في القبوات المقربصة[٣] . ولكنها تظهر في جامع ابن طولون صريحة كما لو كانت منقولة نقلاً مباشراً من

---

(١) انظر المعاهدات بين اسبانيا المسيحية ومصر في : Maximiliano Alarcon , los documentos arabes del archivo de la corona de Aragon, pp. 335, 344, 372

وراجع أيضاً : أحمد دراج ، المماليـك والفرنج ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٧٠ - ٧٣ ، ٩٧ - ٩٨ ، ١١٠ - ١١٢ وملاحق ٩ ، ١٠ ، ١٢ .

(٢) نشاهدها في نوافذ قبة فاطمة خاتون ، وفي ضريح سنجر الجاولي ، وفي ضريح زين الدين يوسف وضريح المنصور قلاوون وفي جامع ألجاي اليوسفي .

(٣) انظر مقالي : بعض التأثيرات الأندلسية في العمارة المصرية الاسلامية ، المجلة ، عدد ١٢ ، سنة ١٩٥٧ ص ٨٨ - ١٠٠ .

قرطبة ، وتتمثل هــذه التأثيرات في العقدين المنفوخين اللذين يحملان القنطرة الموصلة بين مسجد ابن طولون ومئذنته ، وفي عقد المدخل الى المئذنة ، وفي العقدين التوأمين اللذين يزينان كل وجه من أوجه المئذنة ، وجميع هــــذه العقود تتفق في نسبهــــا وفي مواقع مراكزها ، وفي تشعيع سنجاتها ، مع العقود المتجاوزة الخلافية . وبأدنى مئذنــة ابن طولون تحت القنطرة الموصلة بين المئذنة والمسجد كوابيل تماثل نظائرها في واجهة الصحن بجامع قرطبة[1]. ومن المعتقد أن هذه العناصر المعمارية أندلسية الأصل قــد تداخلت في بناء مئذنة جامـــع ابن طولون على أيام السلطان المملوكي حسام الدين لاشين المنصوري .

كذلك ظهر في بعض المساجد المملوكيّة نوع معقد من القبوات ، قسمت فيه القبوة الى تقاسيم هندسية متعددة ، تتشعب خطوطهــا من كل ركن من أركان القبوة بحيث تترك فراغاً مركزياً يشغله صليب تتوسطه قبيْبة زخرفية مطبقة من النوع المفصص الذي يشبه قباب قرطبة . ويعزو الأستاذ هوتكير أصل هذا النظام الى تأثير سوري [2] ولكنه نسي أن الشكل الصليبي الذي يشغل القسم المركزي من القبة يرجع الى تقاليد أندلسية ، فقد ظهر في قباب قرطبة مع الضلوع المتقاطعة التي تؤلف الهيكل البنائي للقباب ، كما تطور بعد ذلك إلى صور زخرفية في طليطلة وسرقسطة وتلمسان بحيث فقدت الضلوع المتقاطعــة في قبوات مسجد الباب المردوم ، ومسجد المسلمين بطليطلة ، وفي قبة المحراب بجامع تلمسان وظائفها المعمارية . ثم ظهرت المقربصات في عهــد

---

(١) Torres Balbas, Intercambios artisticos entre Egipto y el Occidente musulman, al-Andalus, vol. III, 1935, pp. 411 - 424
السيد عبد العزيز سالم ، المآذن المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١٦ .

(٢) Hautecoeur et Wiet, les mosquées du Caire, t. I, 1932, p. 277

المرابطين والموحدين ، وانصهرت مع الضلوع المتقاطعة في القبة كما هو الحـال في قباب جامع تنمال والكتبية بمراكش ، ويتجلى هـذا النوع من القبوات في قبة مدخل الجاي اليوسفي ومدرسة المؤيد شيخ [1] بالقاهرة .

---

(١) بعض التأثيرات الأندلسية ، ص ٩٩ .

القسم الرابع

التراث الفني والعلمي

الفصل الحادي عشر

فن الغناء والموسيقى

(١) تطور فن الغناء والموسيقى من الجاهلية حتى عصر الدولة العباسية

(٢) قرطبة المركز الرئيسي لفن الغناء والموسيقى في الأندلس في عصر الدولة الاموية

(٣) مراكز الغناء والموسيقى في الاندلس بعد سقوط الخلافة الاموية

(٤) فن الغناء والموسيقى في عصر المرابطين والموحدين وبني نصر

فن الغناء والموسيقى

(١)

تطور فن الغناء والموسيقى من الجاهلية حتى عصر الدولة العباسية

العرب من الشعوب التي أسهمت بنصيب وافر في تقدم فن الغناء والموسيقى في تاريخ الحضارات العالمية، فالحجاز كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب على حد قول ابن عبد ربه [١]، والحيرة قبل الاسلام كانت ما تزال تحتفظ بقدر كبير من الثقافة السامية كلدانية وآشورية وما استجد عليها من ثقافة فارسية وقحطانية ويهودية، وكان لتفاعل هذه الحضارات وتواصلها في الحيرة أعظم الأثر في ازدهار هذا المركز الحضاري علمياً وفنياً وأدبياً، واشتهرت الحيرة بالغناء الحيري كما ذاعت شهرة آلاتها الموسيقية كالعود الحيري والمزمار والدف [٢]. والغساسنة عاشوا في ديارهم ما بين الجولان واليرموك عيشة تجمع بين التبدي والتحضر، وقد وصف حسان ابن ثابت مجلساً من مجالس جبلة بن الأيهم أحد أمرائهم فقال: « ولقد رأيت عشر قيان: خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط وخمس يغنين غناء أهل الحيرة وأهداهن إليه إياس بن قبيصة، وكان يفد إليه من يغنيه من العرب من

---

(١) ابن عبد ربه، كتاب العقد الفريد، القاهرة ١٩٤٩، ج ٦ ص ٤ .

(٢) يوسف رزق غنيمة، الحيرة المدينة والمملكة العربية، بغداد، ١٩٣٦، ص ٩٠ – ناصر الدين الأسد، القيان والغناء في العصر الجاهلي، بيروت، ١٩٦٠، ص ٤٨، ٤٩ .

مكة وغيرها[1]. وفي اليمن وحضرموت انتشر الغناء والقيان انتشاراً يعبر عنه شعر الأعشى وامرىء القيس، وفي البادية عرف عرب الجاهلية ألواناً من الغناء منها الحداء الذي يصحب الإبل في قوافل الصحراء لتغذية السير، ومنها أناشيد الركبان، ونواح الثاكلات، وأراجيز الحروب، ومُكاء الحجاج، وغناء الكرائن (أي القيان المغنيات) من عهد عاد[2]. وقسموا الغناء إلى ثلاثة أنواع:

١ — النصب غناء الركبان.

٢ — القينات والسناد وهو الثقيل الترجيع الكثير النغمات.

٣ — الهزج وهو الخفيف الذي يرقص عليه ويصحبه عادة النقر بالدف والنفخ بالمزمار[3].

ولقد وصلنا عدد من أسماء المغنين الجاهليين، نذكر منهم عدي بن ربيعة شاعر تغلب الذي لقب بمهلهل من أجل صوته، وأعشى قيس الذي عرف بصناجة العرب إما لأنه كان يغني أشعاره مع العزف على الصنج[4] أو لجودة شعره وما يحدثه في الآذان من رنين يوحي لسامعه أنه ينشد على جرس الصنج[5]، أو لسهولة شعره على الغناء[6]. وشاع استخدام عدد من الآلات الموسيقية في العصر الجاهلي بعضها وترية وأخرى للقرع وثالثة للنفخ. فمن الآلات الوترية العود وقد عرف بأسماء مختلفة منها المزهر والكران والبربط

---

(١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، مجلد ١٦، القسم الأول، طبعة بيروت ١٩٥٦ ص ٢٦ — أحمد أمين، فجر الاسلام، القاهرة، ١٩٤٥، ص ٢١.

(٢) شوقي ضيف، الشعر والغناء في المدينة ومكة، بيروت ١٩٦٧، ص ٥٥ — نا رالدين الأسد، القيان والغناء في العصر الجاهلي، ص ٢٩ — ٣٢.

(٣) ابن عبد ربه، ج ٦ ص ٢٧ — ابن خلدون، المقدمة، ص ٧٦٤، ٧٦٥ — عبدالعزيز عتيق، ابن أبي عتيق، منشورات جامعة بيروت العربية، ص ٨٩ (تحت الطبع).

(٤) فارمر، تاريخ الموسيقى العربية، ترجمة الدكتور حسين نصار، القاهرة ١٩٥٦، ص ٢٨ وما يليها.

(٥) ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، شرح وتعليق الدكتور محمد محمد حسين، بيروت ١٩٦٨، ص ٧.

(٦) عبد الرحمن الحجي، تاريخ الموسيقى الأندلسية، بيروت ١٩٦٩، ص ١٥.

والموتر [1] ، ومن هـــذه الآلات أيضاً الجنك الفارسي والمعزفة والرباب والطنبور والمربع [2] . ومن آلات القرع : الدف والطبـــل والصنج والجلاجل [3] ، ومن آلات النفـخ : الناي والمزمـار والقصابة والصُّور والناقور [4] ، وتعتبر الجلاجل والصنوج والدف والكرج [5] من آلات الأنغام الراقصة وتستخدمها الراقصات لتوقيع الأصوات على الحركات .

ولما ظهر الإسلام أباح من الغناء والموسيقى ما يستخدم للتعبير عن المشاعر البريئة ، وحظر كل غناء فيــه تبذل وجاهلية وتخنث [6] ، ولكن أبا بكر وعمر — رضي الله عنهما — تشددا مع الملهين وقيان الحانات [7] ، وأسهما بهذا التشدد فيما أشيع عن كراهية الاسلام للغناء والموسيقى، وإن كان النبي(صلعم) لم يحرمه ولم ينه عنه ولم يجد في سمـــاع الغناء والموسيقى ما يتعارض مع الاسلام . ثم أدت سياسة التساهل واللين التي اتبعها الخليفة الراشد عثمان بعد بعد تشدد الشيخين وتضييقهما على المسلمين ، وإسرافه في إدرار القطائـــع والأرزاق والأعطيات إلى شيوع لون من الترف والرفه يذكر بما كان شائعاً في

---

(١) ابن عبد ربه ، ج ٦ ص ٢٧ .

(٢) فارمر ، ص ٢٦ .

(٣) نفس المرجع .

(٤) نفسه .

(٥) يتكون من تماثيل خيل مسرجة من الخشب تعلق بأطراف أقبية تلبسها النساء ، يحاكين بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويتثاقفون في الولائم والأعراس والأعيـــاد ومجالس الفراغ واللهو (ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٦٦) .

(٦) راجع في ذلك الأمثلة الواردة في : فـارمر ، ص ٥١ — شوقي ضيف ، الشعر والغناء ص ٥٨ — الحجي ، ص ١٨ .

(٧) أورد المؤرخون أمثلة كثيرة لهذا التشدد والصرامة ، فقد استخـدم عمر الدرة لضرب جواري يضربن الدفوف ويغنين (ابن الفقيه الهمذاني ، مختصر كتـــاب البلدان ، ليدن ١٨٨٥ ص ٤٣ — شوقي ضيف، ص ٦٣) وذكر الطبري أن المهاجر بن أمية أحد قادة الردة أمر بقطع أيدي مغنيتين غنت إحداهما بشتم النبي والأخرى تغنت بهجـاء المسلمين ، ونزع ثنية الأولى حتى تعجز عن الغناء والعزف (الطبري ، طبعة بيروت ، ج ٣ ص ٢٧٧) ؛

الحواضر الحجازية في الجاهلية ، وأغرى تدفق الأموال والرقيق على المدينة الناس بالاستمتاع بالحياة والتخلي عن الزهد والإقبال على اقتناء القيان وأمهر المغنين ، وكان ذلك من المآخذ التي أخذت على عثمان وتسببت في قيام الفتنة التي أطاحت به [1] . وكان من الطبيعي أن يتطور فن الغناء والموسيقى في أعقاب عصر الفتوحات الأول ، فبعد أن اكتظت المدينة بجماهير الأسرى والسبي، وتدفقت على المسلمين كنوز كسرى وهرقل لم يتردد الناس في التخلي عن خشونتهم والإقبال على الترف ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « فلما جاءهم الترف وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الأمم صاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ ، وافترق المغنون من الفرس والروم ، فوقعوا إلى الحجاز ، وصاروا موالي للعرب ، وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير ، وسمع العرب تلحينهم للأصوات ، ولحنوا عليهم أشعارهم » [2] . وظهر في المدينة في هذه الفترة نوع من الغناء يعرف بالغناء المتقن والغناء الموقع ، ونعني به الهزج والسناد [3] ، فظهرت عزة الميلاء المغنية [4] التي اقتنت بالمدينة داراً كان يقصدها رواد الغناء من أهل المدينة لسماعها ، كما ظهرت جميلة التي يروى أنها ظهرت للحج في موكب يغص بالمغنين والمغنيات . ثم برز طويس أستاذ عدد من مشاهير المغنين والمغنيات منهم ابن سريج والدلال ونومة الضحى [5] ، وأول من غنى في الاسلام الغناء الرقيق [6] ، وأول من تغنى في المدينة غناء يدخل في الإيقاع يسميه أبو الفرج

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الدولة العربية ، بيروت ، ١٩٧٠ ص ٥٥٠ ، ٦٨٩ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٦٥ .

(٣) فارمر ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

(٤) تتلمذت على سيرين المصرية التي كان المقوقس قد أهداها للنبي (الحفني ، إسحق الموصلي ، ص ٢١ — ناصر الأسد ، ص ٩٧) .

(٥) ابن عبد ربه ، ج ٦ ص ٢٩ .

(٦) نفسه ، ص ٢٧ .

الغناء المتقن [١] ، وأول من ألقى الخنث بالمدينة ، فقد ذكر ابن عبد ربه أنه كان يغني لأبان بن عثمان بن عفان والي المدينة وقد خضب يده غمساً، واشتمل على دف له ، وعليه ملاءة مصقولة ، وكان ينقر على الدف ويغني [٢] . كذلك ظهر سائب خاثر معلم عزة وابن سريج ومعبد ، وأول من عزف على العود من المغنين العرب ، وهو الذي ابتكر الإيقـــاع المسمى الثقيل الأول [٣] .
ويعتبر معبد المغني إمام المغنين في المدينة زمن الأمويين ، وهو صاحب الألحان الـــتي عرفت بدارات معبد [٤] . وفي تفوق معبد في فن الغناء على سابقيه يقول الشاعر :

أجاد طويس والسريجي بعده وما قصبات السبق إلا لمعبد

ومن أشهر المغنين في العصر الأموي حنين الحيري ، وكان نصرانيـاً من أهل الحيرة وتزعم حركة الغناء في العراق [٥] ، ومنهم ابن محرز أشهر المغنين الموالي في مكة، وجمع بين ألحان الروم والفرس، وعرف بصناج العرب لجمـال صوته وحسن أدائه [٦] ، ومنهم ابن طنبورة اليمني وكان أهزج الناس وأخفهم غناء [٧] ، والغريض – من مولـّدي البربر – وكان تلميذاً لابن سريج ، وجعله إسحق الموصلي أحد خمسة تفوقوا في فن الغناء بالحجاز [٨] ، ومن أشهر المغنين بمكة أيضاً الأبجر الذي لزم الخليفة الوليد بن يزيد حتى قتل الوليد . واشتهر

---

(١) الأغاني ، ج ٢ ص ٣٢٥ وما يليها .
(٢) ابن عبد ربه ، ص ٢٨ – عبد العزيز عتيق ، ص ١٢٨ .
(٣) الأغاني ، ج ٨ ص ٣٢٤ – الحفني ، إسحق الموصلي الموسيقـار النديم ، ص ٢٠١ . وظهر أيضاً في هذا العهد عدد من كبار المغنين منهم نشيط وفند والدلال .
(٤) ابن عبد ربه ، ج ٦ ص ٢٥ – شيخاني ، أشهر المغنين عند العرب، بيروت، ص١٥.
(٥) الأغاني ، ج ٢ ص ٢٣٥ – ٢٤٨ ؛ شيخاني ، المرجع السابق ، ص ٦٦ .
(٦) الأغاني ، ج ١ ص ٢٧٤ – ٢٧٨ – عبد العزيز عتيق ، ابن أبي عتيق ، ص ٩٤ .
(٧) ابن عبد ربه ، ج ٦ ، ص ٣٠ .
(٨) محمود الحفني ، إسحق الموصلي ، ص ٢٥ .

في العصر الأموي من المشتغلين بفن الغناء كذلك عطرد ويونس الكاتب ويحيى بن قيل والبيذق الأنصاري ، كما اشتهرت من المغنيات جميلة وسلامة الزرقاء وسلامة القس وأم عوف ، وذكروا أن يزيد بن عبد الملك أغرم بسلامة القس[1] ، كما أغرم بحبابة [2] ، وكان الوليد بن يزيد عالماً بصناعة تأليف الألحان ، كما كان يوقع بالعود ويضرب بالطبل والدف ، وإليه يرجع الفضل في ارتقاء فن الغناء والموسيقى العربية حتى اقترن اسمه بهذا الفن ، فأطلق عليه اسم خليع بني مروان ، وذكروا أنه ورث الطرب في الشعر عن أبيه ، وكان « أول من حمل المغنين من البلدان إليه ، وجالس الملهين وأظهر الشرب والملاهي والعزف ، وفي أيامه كان ابن سريج المغني ومعبد والغريض وابن عائشة وابن محرز وطويس ودحمان ، وغلبت عليه شهوة الغناء في أيامه وعلى الخاص والعام ، واتخذ القيان » [3] . وكان يقول أن الغناء أحب إليه من كل لذة وأشهى إلى نفسه من الماء إلى ذي الغلة[4] ، وذكر ابن الأثير أنه كان مع الوليد يوم قتل مالك بن أبي السمح المغني وعمرو الوادي المغني [5] .

ولقد تأثر فن الغناء والموسيقى في العصر الأموي بفنون الغناء عند الفرس، خاصة فيما يتعلق بأسماء بعض الآلات الموسيقية كالجنك والبربط وبعض الاصطلاحات الموسيقية مثل دستان الفارسية بمعنى حساس أطلقها العرب على مواضع الأصابع في لوحة الأصابع بالعود أو الطنبور[6] . كذلك نقل الخلفاء

---

(١) ابن عبد ربه ، ص ١٦ .

(٢) ذكر المسعودي أنه لما مرضت أقام أياماً لا يظهر للناس، فلما ماتت أقام أياماً لا يدفنها جزعاً عليها حتى جيّفت (المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ١٩٨ وما يليها) .

(٣) المسعودي ، ج ٣ ص ٢١٣ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، طبعة بيروت ١٩٦٥ ، ج ٥ ص ٢٩٠ .

(٥) نفسه ، ص ٢٨٨ .

(٦) فارمر ، ص ٨٦ .

الأمويون (ثم العباسيون) عن الفرس بعض عـادات ملوك الفرس في مجالس الغناء والطرب، فحاكوهم في تقسيم المغنين والندماء إلى طبقات، وفي احتجاب الخليفة عن المغنين بستارة حتى يكون بينه وبين أول طبقاتهم عشرون ذراعاً فلا يطلع أحد من الحاضرين على ما يفعله الخليفة للتعبير عن نشوتـــه بالغناء بالرقص أو بحركة زفير تتجاوز المقدار [1] .

ولما دالت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية اعتمد العباسيون على العناصر الفارسية في تصريف شؤون الدولة اعترافاً منهم بفضل الفرس عليهم، وأفسحوا لهم المجال في الوظائف الكبرى والمناصب القيادية في الدولة ، وكان من الطبيعي لذلك أن نشهد في هذا العصر سيطرة العنصر الفارسي في جميع مناحي الحياة أدبية ومادية ، وعلى هذا النحو تسرب إلى الموسيقى العربيـة الكثير من ضروب النغم الفارسي، فازدهر فن الغناء والموسيقى في هذا العصر حتى وصل إلى ذروته في عصر الرشيد الذي نمت فيه كل فنون المعرفـــة واكتملت كل مقومات النهضـة الفنية بتشجيع من الخلفاء بحيث يمكننا أن نعتبر هذا العصر العصر الذهبي للموسيقى العربيـة . فقد كان المهدي من أكثر الخلفاء العباسيين حباً للموسيقى والغنـاء ، وكان بلاطه يكتظ بالمغنين وذوي المواهب الفنية أمثال حكم الوادي وسياط وابراهيم الموصـلي ، ويشير ابن خلكان إلى أنــه كان أحسن الناس صوتـا ، وكان أبو اسحق ابراهيم بن المهدي العباسي من كبار المغنين والموسيقيين في بلاط الرشيـد والأمين، وعد ابراهيم بن المهدي زعيم الحركة الموسيقية الإبداعيـة الفارسية بخلاف اسحق الموصلي الذي تزعم المدرسة التقليدية العربيـة [2] . وكان عالماً بفن الموسيقى

---

(١) الحفني ، إسحق الموصلي ، ص ٢٧ .

(٢) فارمر ، ص ١٤٢ .

والنغم ، فألف كتاباً في الغناء [1] .

وكان موسى الهادي رغم قصر عهده مغرماً بالغناء والموسيقى ولهذا فقد قرب إليه ثلاثاً منهم هم : إبراهيم الموصلي وابن جامع وحكم الوادي . أما هارون الرشيد فقد أسرف في عنايته بالمغنين والمغنيات والموسيقيين ، وأنفق على ذلك الأموال الطائلة حتى تجمعت لديه من أصحاب المواهب شخصيات عديدة لامعة منهم : ابن جامع ، ويحيى المكي ، وزلزل ، ويزيد حوراء ، وفليح بن أبي العوراء ، وعبد الله بن دحمان ، والزبير بن دحمان ، وإسحق الموصلي ، ومخارق ، والغنوي ، وعبد الرحيم الدفاف ، وابن قيلاء الطنبوري ، ومسكين المدني، وفريدة ، وعلوية ، وابن الحارث ، وعمرو الغزال، وبرصوما الزامر ، ومحمد الدف [2] . ومن العوامل التي ساعدت على ظهور هذه الأعداد الهائلة من المغنين والمغنيات اشتغال كثير من الناس بتجارة الرقيق والنخاسة في بغداد واتساع ثرواتهم لذلك ، وشغف الناس بالغناء مما استلزم اهتمام النخاسين بتلقين الجواري أصول فن الغناء والموسيقى مع القدرة على العزف بالآلات وتحصيل قدر واف من فنون الشعر والأدب[3] . وقد اهتم العباسيون بتدوين الغناء ومذاهبه ، وأول من دون الغناء يونس بن سليمان الكاتب المعروف بيونس المغني في العصر الأموي ، فوضع كتاباً في النغم [4] ، والخليل بن أحمد الذي صنف كتاباً في الموسيقى قيد فيه الألحان وأصناف النغم [5] ، ويحيى بن أبي مرزوق المكي الذي ألف كتاباً في الأغاني جمع فيه

---

(١) ذكر ابن النديم أن لابراهيم بن المهدي «صنعة في الغناء يتقدم بها كل أحد، وكان إسحق وابراهيم قبله يأخذان عنه ويتحاكم المغنون إليه في صناعتهم » (الفهرست ، تحقيق فلوجيل ، ص ١١٦) .

(٢) فارمر ، ص ١١٢ .

(٣) الحفني ، إسحق الموصلي ، ص ٥٨ وما يليها .

(٤) الفهرست ، ص ١٥٤ .

(٥) نفسه ، ص ٤٣ .

اثني عشر ألف صوت [1] . وألف إسحق الموصلي كتباً في الأغاني وأخبار عزة الميلاء وكتاب أغاني معبد وكتاب الأغاني الكبير وغيرها من الكتب التي عالج فيها أخبار كبار المغنين[2] . ومن كبار الكتاب في الأغاني أبو الحسن علي بن هارون بن علي ، ألف رسالة في الفرق بين إبراهيم بن المهدي وإسحق الموصلي في الغناء [3] ، ومن الكتاب في الأغاني والمشتغلين بالموسيقى والغناء : جحظة البرمكي وكان حاذقاً بصناعة غناء الطنبور وصنف كتاب الطنبوريين[4] ، وأبو أيوب المدني المغني ، الذي ألف عدة كتب في أخبار المغنين وطبقاتهم[5] ، وقريص المغني من حذاق المغنين وألف كتاب صناعة الغناء وأخبار المغنين[6].

شغف الناس بالغناء ومجالس الطرب حتى أصبح الغناء وكأنه ضرورة في المجتمع العراقي في عصر الدولة العباسية ، وفي هذا العهد دخلت أنواع جديدة من آلات النغم ، فقد أدخل زلزل نوعاً من العيدان سمي بالعود الكامل والعود الشبوط [7] ، وأدخل زرياب وتراً خامساً للعود ، واتخذت آلات جديدة كانت معروفة عند الفرس كالكرج والجنك والقبوز والناي والكوس . وظهرت التخصصات في طائفة من المغنين والموسيقيين : فزلزل كان إمام العوّادين ، وبرصوم كان أبرع من عزف بالناي والمزمار ، وجعفر الطبال كان خير من من وقع الطبل والكوبة [8] ، وإبراهيم الموصلي أول من وقع بالقضيب [9] .

---

(١) الصادق المرزقي ، الأغاني التونسية ص ٣٣ .
(٢) الفهرست ، ١٤١ .
(٣) نفسه ، ص ١٤٤ .
(٤) نفسه ، ص ١٤٥ .
(٥) نفسه ، ص ١٤٨ .
(٦) نفسه ، ص ١٥٦ .
(٧) فارمر ، ص ١٣٠ – الحفني ، إسحق الموصلي ، ص ١٣٥ .
(٨) الحفني ، إسحق الموصلي ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .
(٩) ابن عبد ربه ، ص ٣٢ .

(٢)

قرطبة المركز الرئيسي لفن الغناء والموسيقى في الاندلس في عصر الدولة الاموية

شغل ولاة الأندلس، قبل قيام عبد الرحمن الداخل بتأسيس دولته، بالغزو فيما وراء البرانس ثم بالصراع بين العصبيتين اليمنية والمضرية عن الاهتمامات الخاصة والفنون والآداب، فتعطلت الحركة العلمية والفنية في هذا العهد، ولكننا سنشهد منذ قيام الدولة الأموية دفعاً متواصلاً بتشجيع أمراء بني أمية لهذه الحركة العلمية والفنية في قرطبة الحاضرة. ولقد اعتبر فن الغناء والموسيقى والرقص في الأندلس منذ طليعة القرن الثالث الهجري أكثر وسائل اللهو شيوعاً وتفشياً في المجتمع الأندلسي، ولم تكن مجالس الأنس التي يعقدها الكبراء والأعيان بقرطبة مجالس حقيقية ما لم يصحبها غناء على نغم عود أو مزمار وما يتبع ذلك من حركات إيقاعية راقصة بطبيعة الحال [١]. ولقد روى جمهور من أدباء الأندلس وعلى الأخص ابن بسام صاحب الذخيرة أوصافاً رائعة ودقيقة للغاية شعراً أم نثراً تصور طريقة الاحتفال بهذه المجالس التي يعقدها الأمراء والخاصة بقرطبة وإشبيلية وغيرها من قواعد الأندلس، والتي بلغت من الكثرة إلى حد أن أخبارها ملأت مئات الصفحات في المصادر الأدبية الأندلسية، ومن أمثلة هذه المجالس ما رواه الحميدي، إذ ذكر أن عبدالله بن عاصم صاحب الشرطة بقرطبة — وكان أديباً سريع البديهة، كثير النوادر — دخل على الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط في يوم ذي غيم وبين يديه غلام بهي الطلعة جميل الزي، فبادره الأمير يسأله عما يصلح لمثل هذا اليوم، فأجابه قائلاً: «عقار ينفر الذبان ويؤنس الغزلان»، وجنيت

---

(١) Lévi - Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. III, Paris, 1953, p. 448.

كقطع الروض قد سقطت فيه مؤونة التحفظ ، وأرخى له عنان التبسط ، يديرها هذا الأغيد المليح » . فاستضحك الأمير ، ثم أمر بمراتب الغناء وآلات الصهباء »[1] .

وأمر المنصور محمد بن أبي عامر يوماً بإحضار الوزراء والندماء في مجلس أنس أعده للهو ، وحضر في جملة الحاضرين الوزير أحمد بن عبد الملك بن شهيد في محفة إذ كان يعاني من نقرس لازمه ، وقضي الجميع يوماً لم يشهدوا في اللهو مثله ، وطما الطرب وسما بهم حتى تصايح القوم وأخذوا يرقصون بالنوبة حتى جاء دور ابن شهيد فأقامه الوزير أبو عبدالله بن عباس ، فجعل ابن شهيد يرقص وهو متوكيء عليه ، وارتجل أبياتاً وجهها إلى المنصور ، فقال :

هاك شيخ قاده عذر لكا	قام في رقصته مستهلكا
لم يطق يرقصها مستثبتا	فانثنى يرقصها مستمسكا
عاقه عن هزها معتدلاً	نقرس أخنى عليه فاتّكا
طرب اللهو وقد حق له	طرباً أرمضه حتى اشتكى
من وزير فيهم رقاصة	قام من طيب يناغي ملكا
أنا لو كنت كما تعرفني	قمت إجلالا على رأسي لكا
قهقه الإبريق مني ضحكا	ورأى رعشة رجلي فبكى

وكان من من بين الحاضرين رجل بغدادي من أصحاب ابن شهيد يعرف بالكك حسن النادرة فشاهد ابن شهيد في بداية المجلس — وقد ألح عليه ألم النقرس — كلما حانت صلاة صلاها جالساً ، فلما « حمي الوطيس ، وأنس الجليس ، وطاب المجلس ، ودارت الأكؤس ، ونسي أوجاع النقرس ، وقام ذلك

(١) الحميدي ، جذوة المقتبس ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٦٤ — المقري ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ٢٣٠ .

الصاحب الجليس يرقص، ودار الدور حتى انتهى الى ابن شهيد فقام يرقص»، فلم يملك البغدادي نفسه أن قال : « لله درك يا وزير تصلي بالقاعدة وترقص بالقائمة »[١] .

ويعبّر أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد (حفيد ابن شهيد السابق) هو الآخر عن حالة المرح التي تتخلل مجالس الأنس ، فيصف مجلساً للشراب واللهو شارك فيه برقصه :

وعلا بنا سكر أبَى إلا الإنابـــة للمحارم
نرمي قلانسنا لــــه ونجر من عذب العمائم
وترنّمت فيهـــا القيا ن لنا ورجّعت البواغم
قمنـــا نصفق بالأكـــف لها ونرقص بالجماجم[٢]

ويروي ابن بسام – نقلاً عن ابن حيان – وصفاً رائعاً كاملاً لمجلس أنس عقده المأمون ابن ذي النون في قصره بطليطلة ، وأحضر فيـه جميع آلات الأنس ، ثم مدت ستارة الغناء لأهل الحجاب ، « ونظمت نوبة المغنين زمراً فهاجوا الأطراب ، واستخفوا الألباب »[٣] .

ونستدل من الأمثلة السابقة على أن معظم مجالس الأنس والطرب في الأندلس كانت تختلف عنهـا في بغداد ، فبينما يصطف الندماء في قاعة المجلس وبأيديهم كؤوس الراح وأمامهم الموائد حافلة بالفواكه ، كانت المغنيات يقفن حاملات

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ١٧ – المقري ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ٢٤٣ – ٢٤٤ .
(٢) ديوان ابن شهيد الأندلسي ، تحقيق يعقوب زكي ، القاهرة ، ص ١٥٦ – شارل بلا ، ابن شهيد الأندلسي ، حياته وآثاره ، عمان ، ١٩٦٥ ص ١١٦ .
(٣) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ١٠٥ . وارجـع الى النص الكامل لهذا المجلس في الملحق .

العيدان والطنابير ، وأخريات بأيديهن المزامير والأبواق والدفوف، بينما تتصدر المجلس مغنية جالسة وبيدها عود قد أسندته على ركبتيها، أما في الأندلس فقد تكون هناك مجالس بمثل هذه الأبهة البغدادية ، كما يحدث عادة في حفلات العرس والإعذار ، ولكن معظم المجالس الأندلسية تجري على نسق بسيط ، فهناك مغنية تغني على أنغام عود تضرب عليه أو مزمار ينفخ فيه زامر أو صنج تقوم مقام الزمرة وذلك في حالة إذا ما أشركت في المجلس راقصة مع الزامر ، وتعرف هذه المشاهد اليوم باسم Zambras ، ويعتقد الأستاذ ليفي بروفنسال أنها مشتقة من الزمرة، كما يعتقد أن التزام الأندلسيين بهذا النوع من المجالس البسيطة هو إرث تقليدي من عهود الأندلس القديمة عندما كانت فتيات قادس يرقصن رقصات تصحبها صلصلة الصنج البرونزية ، ولهذا فإن مجالس الأنس الأندلسية في العصر الإسلامي في رأيه زمرات ومشاهد من الرقص والطرب الأيبيري الحقيقي أكثر منها مشاهد لحفلات موسيقية من طابع حفلات زرياب ، وأن هذه المجالس الأندلسية القديمة أحياها ابن قزمان بأزجاله في القرن الثاني عشر [1] . على أننا مع اعتقادنا بوجود فن أندلسي تقليدي للغناء والموسيقى والرقص ما زال ينبض اليوم بالحياة لا ينبغي أن نتجاهل الأثر الشرقي البغدادي والمدني فيه ممثلاً في شخصيات زرياب وصاعد وقمر من العراق وشخصيات عابدة وفضل وعلم المدنيات ، هذا لى إجانب بعض الشخصيات المحلية . هذه التأثيرات الفنية تدفقت على الأندلس من المشرق الاسلامي الذي كان يعتبر في نظر الأندلسيين المعين الذي لا ينضب بثروته من العلماء والفنانين ، ويكفي أن نذكر من أسماء الأدباء المشارقة الذين وفدوا إلى الأندلس أسماء أبو علي القالي ، وصاعد اللغوي ، وأبو الفضل محمد ابن عبد الواحد البغدادي الدارمي ، وأبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني الفيلسوف والأديب . وعلى الرغم من أن فقهاء الأندلس كانوا لا ينظرون إلى

---

(١) Lévi - Provençal, op. cit. p. 451 – وراجع له أيضاً : الاسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة السيد عبد العزيز سالم .

الموسيقى والغناء بعين الرضا ويعتبرون الاشتغال بهـا أمراً مُحِطاً لا يليق إلا بالموالي والإماء ، ويقدمون أحياناً على منع بيع كتب الغناء والموسيقى علناً ، بـل يعمد القضاة المتشددون إلى إصدار الأمر بكسر آلات الموسيقى التي يحملها المغنون في الطرقات ، على الرغم من ذلـك فقد شاع الغناء في الأندلس ونفقت سوق الفن الموسيقي في هذه البلاد (١) ، فشارك فيه الأمراء والأدباء وبعض الشخصيات البارزة ؛ فقد كان الأمير أبو القاسم المطرف بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط عالماً بالغناء (٢) ، كما ينتسب أسلم بن أحمد بن سعيد بن القاضي أسلم بن عبد العزيز الى بيت جليل ، وكان أسلم هذا شاعراً وأديباً وعالماً بالغناء وألف كتابـاً خصصه لأغاني زرياب (٣) ، وكانت ولادة بنت المستكفي قديرة في صنعة الغنـاء (٤) ، وكان أبو الأصبغ عبـد العزيز بن عبد الرحمن الناصر مغرماً بالخمر والغناء ، فلما بلغ الحكم المستنصر أنـه ترك الخمر حمد الله وتمنى عليه أن يترك الغنـاء أيضاً ، فأجابـه قائلاً : « والله لا تركته حتى تترك الطيور تغريدها » ، ثم قال :

أنا في صحة وجـاه ونعمى	هي تدعو لهـذه الألحان
وكذا الطير في الحدائق تشدو	للذي سر نفسه بالقيان (٥)

وكان عبيدالله بن محمد الرشيد من أبناء المعتمد بن عباد ملك إشبيلية يجيد ضرب العود(٦)، وكان الوزير أبو الحسين بن أبي جعفر الوقشي عالماً بالموسيقى مجيداً للغناء (٧) ، وكان عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب أوحد عصره

(١) آنخل جنثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، ص ٥٥ .
(٢) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، ج ١ ص ١٢٨ .
(٣) ابن حزم القرطبي ، كتاب طوق الحمامة ، ص ١٨٦ – الحميري ، ص ١٧٢ .
(٤) المقري ، نفح الطيب ، ج ٥ ص ٣٣٤ .
(٥) نفس المرجع ، ج ٥ ص ١٢٣ .
(٦) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٦٨ .
(٧) المقري ، ج ٥ ص ٢٦٩ – ٢٧٠ .

في الغناء الرائق والأدب الرائع والشعر الرقيق واللفظ الأنيق ورقة الطبع ، وكان « أعلم الناس بضرب العود واختلاف طرائقه وصنعة اللحون » ، وكثيراً ما غنى على نغمات بشارة الزامر [١] . ومن الأمثلة الدالة على شيوع فن الغناء والموسيقى في طبقات المجتمع القرطبي والأندلسي أن القاضي أبا عبدالله محمد ابن عيسى من بني يحيى بن يحيى الليثي ، خرج ليشهد جنازة ، فألح عليه أحد أصحابه – وكان له منزل بقرب مقبرة قريش – في أن يزوره في بيته ، فزاره ، فأحضر له طعاماً وغنّت جارية أبياتاً ، فكتبها القاضي طرباً على ظهر يده ، ثم شوهد يُكبّر في الجنازة والأبيات على ظهر يده [٢] .

ويعتبر عصر دولة بني أمية في الأندلس العصر الذهبي لفنون الغناء والموسيقى وما يتبعها من فنون اللهو كالرقص والتهريج والألعاب والفكاهة ، وصحب هذا الازدهار الفني ازدهار أدبي واضح المعالم لارتباط فن الغناء بالشعر ، وعلى الرغم من ظهور عدد كبير من فحول شعراء الأندلس الذين يتسم شعرهم بالرقة المتناهية أحياناً وبالتعقيد الزخرفي الذي يشبه التوريقات المتشابكة في الزخرفة الاسلامية أحياناً أخرى ، واستحداث ألوان جديدة من الشعر كالموشحات والأزجال ، فإن ابن شهيد ينعى على الشعر الأندلسي خلوه من الأصالة والتجديد ويرجع سبب ذلك إلى سوء مستوى معلمي اللغة في قرطبة ويتهمهم بأنهم لا يهتمون إلا بحفظ الكلمات والتقليد دون الطبع ، ويشبههم في تفهم كتب البديع والنقد « بما يفهمه القرد اليماني من الرقص على الإيقاع والزمر على الألحان ، فهم يصرّفون غرائبها فيما يجري عندهم من لم يرزق آلة الفهم ومن لم تكن له آلة الصناعة مما هي مخصوصة بها ، ولا تقوم تلك الصناعة إلا بتلك الآلة ، فهو كالحمار لا يمكنه أن يتعلم صناعة ضرب العود والطنبور لتوقد رسغه

(١) نفس المرجع ، ج ١ ص ١٨٠ ، ١٨١ .
(٢) المقري ، ج ٥ ص ١٠٤ .

واستدارة حافره ولا له بنان يجس بـــه على دستان »[1] . والظاهر أن ابن شهيد قد بلغ به حبه لوطنه قرطبة إلى هـذا الحد من توجيه النقد إلى أدبائها وشعرائها ، ومن المعروف أن ابن شهيد كان متعصباً لقرطبة محباً لهـا حتى بعد انقراض دولة بني أمية في أعقاب الفتنة ، ومن المعروف أيضاً أنه لم يبارح قرطبة مسقط رأسه إلا مرة واحدة في ظروف قاهرة ، وقد عـبّر عن هذا الحب في رسالة بعث بهـا إلى المؤتمن يعتذر فيها له عن عدم اللحاق به بمشقه الذي يشكو منه لعجوز تدعى قرطبة تقاصر عن طولهـا قونكة ، وتبعد عن غنجها دانية ، وفي هواها يطيب له الموت ويلذ له سقي دمـــه لثراها[2] . وعندما اشتعلت نار الفتنة ومحت رسومهـــا وطمست أعلامها وأصبحت قرطبة بعد تشرد أهلها صحارى مجدبة وفيافي موحشة بعد الأنس، وشملها الخراب وعمها الهدم[3] ، بكاها ابن شهيد بقوله :

فلمثل قرطبة يقل بكاء من	يبكي بعين دمعهـــا متفجر
دار ، أقال الله عثرة أهلها	فتبربروا وتغربـوا وتمصروا
في كل ناحية فريـق منهم	متفطر لفراقهـــا متحير
عهدي بها والشمل فيها جامع	من أهلها والعيش فيها أخضر
ورياح زهرتهـا تلوح عليهم	بروائح يفتر منها العنـبر

إلى أن يقول :

يا منزلاً نزَلتْ به وبأهله	طيرُ النوى فتغيروا وتنكروا
أسفي على دار عهِدْت ربوعها	وظباؤها بفنائهـــا تتبختر
أيام كانت عين كل كرامة	من كل ناحية إليها تنظر[4]

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم أول ، مجلد أول ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .
(٢) نفس المصدر ، ص ١٧٥ .
(٣) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ١٤٩ .
(٤) ديوان ابن شهيد ، ص ١٠٩ – ١١١ .

أما ابن حزم فقد بلغ حبه لقرطبة – مسقط رأسه – مدى قومياً شمل الأندلس ، ورسالته في فضائل الأندلس [1] وحرصه على الرد على ابن الربيب القيرواني تؤكد هذا المعنى ، والحقيقة أن كل مظاهر الحضارة الأندلسية حتى عصر الطوائف كانت تتجسد في قرطبة الحاضرة ، فلما أطاحت بها الفتنة تمزقت الحضارة في الأندلس إلى أشلاء ، وفقدت قرطبة إلى الأبد قدرتها على الاستيعاب الشامل للحضارة المذكورة .

وهكذا كانت قرطبة زمن الأمويين قمة الحضارة ومركزها ، وأم المداين ، ومستقر الخلافة، ودار الإمارة ، ومقر العلم والعلماء ومعدن الفضلاء والأدباء، ودار الهجرة للعلم وهدف الرحلة لأولى الفهم [2] .

ولقد جرى الأمويون منذ قيام دولتهم في الأندلس على تجديد ما طمس من رسومهم في المشرق ، فاهتموا بفن الغناء والموسيقى ، وغرسوا من بذوره المشرقية أدواحاً في قرطبة، وحرص مؤسس هذه الدولة وأعني به عبدالرحمن الداخل على أن يجعل من قرطبة دمشق أجداده ، وبغداد عصره ، فبعث إلى الحجاز تجاراً يشترون له الجواري ممن ذاعت شهرتهن في فن الغناء والموسيقى فأغدق عليهن الأموال وبالغ في إكرامهن مشجعاً بذلك على اجتذاب أعداد كبيرة منهن أخذن يتوافدن على قرطبة ، وأولى المغنيات اللائي استقدمهن الأمير الداخل المغنية فضل المدنية ، وكانت حاذقة بالغناء كاملة الخصال ، وأصلها لإحدى بنات هرون الرشيد ، ونشأت وتعلمت ببغداد ، ودرجت من هناك الى المدينة أعظم مراكز الغناء في المشرق الاسلامي ، فأتقنت هناك هذا الفن ، واشتريت للأمير عبد الرحمن مع مغنية أخرى يقال لها

---

(١) فضائل الأندلس وأهلها لابن حزم وابن سعيد والشقندي ، نشر المنجد ، بيروت ١٩٦٨ .

(٢) ابن الشباط ، وصف الأندلس من كتاب صلة السمط وسمة المرط ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، مدريد ١٩٧٢، ص ١٤١ - ١٤٢ .

علم المدينه، ومغنيات أخريات استقدمهن أيضاً من المدينة ، وخصص لهن داراً بقصره سُمّيت بدار المدنيات ، وكان يؤثرهن لجودة غنائهن ورقة أدبهن . ثم أضيفت إلى هذه الفرقة مغنية تعتبر الثالثة بعد فضل وعلم في مراتب الغناء، وهي الجارية قلم وكانت أندلسية الأصل من سبي البشكنس ، ثم حملت صبية إلى المشرق ، فوقعت في المدينة ، وتعلمت هناك فن الغناء فحذقته وأجادته[1]. ويورد المقري اسم جارية سوداء اللون من رقيق المدينة وفدت على الأندلس في هذه المرحلة من التاريخ[2] ، ويشير المقري أيضاً إلى أن غزلان أم المطرف بن عبد الرحمن الأوسط ، كانت مغنية بديعة محسنة وعوادة أديبة[3] . وذكر المقرى أيضاً أن عبد الرحمن الداخل اشترى جارية مدنية أخرى كانت تُعد من أحسن المغنيات غناء اسمها العجفاء جارية مسلم بن يحيى الزهري ، ذكروا أنه عندما سمعها الأرقمي « ألقى عليها طيلسانه وأخذ شادكونة فوضعها على رأسه وصاح إعجاباً »[4]، وذكر ابن حزم أن عبدالرحمن الداخل أحب جارية اسمها دعجاء[5] .

وفي عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل فتحت الأندلس أبوابها لكل من ضاق المشرق بمواهبهم من أهل الغناء والموسيقى ، فدخل الأندلس في عهده علون وزرقون أول المغنين الذين وفدوا إلى الأندلس فنفقا عليه ، وكانا محسنيْن في صنعتها ولكن غناءهما تلاشى بغلبة غناء زرياب عليه[6]. وظهر في عهد الحكم بن هشام أيضاً موسيقي بارز ، هو عباس بن النسائي ، غنى للأمير قصائد من شعره[7] .

---

(١) المقري ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٣٦ ، ١٣٧.

(٢) نفسه ، ص ١٣٦ .

(٣) نفسه ، ج ٥ ص ١٢٠ . ويذكر ابن حزم أنها أم بنيه عثمان والمطرف والقاسم (ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ١١) .

(٤) المقري ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٣٩ .

(٥) طوق الحمامة ، ص ١١ . (٦) المقري ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ١٢١ .

(٧) فارمر ، تاريخ الموسيقى العربية ، ص ١٥٤ .

ويرجع الفضل الأعظم في ازدهار فن الغناء والموسيقى بقرطبة إلى الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، ويمكننا أن نعتبر عهده العصر الذهبي لهذا الفن في الأندلس ، فقد كان أهم ما يتميز به أنه فنان رقيق المشاعر والأحاسيس ، شديد التأثر بالفنون الجميلة ، وعلى الأخص بفن الغناء ، ولذلك شغف بسماع الألحان والانغام ، فرفع منزلة المغنين والموسيقيين ، وأحسن إليهم ، وأكرم وفادتهم ، وأغدق عليهم العطايا والخلع والأموال ، وفتح أبواب قرطبة لكل فنان وافد ، ورحب بهم في بلاطه ، وشجع غيرهم على قصده ، والسعي الى ساحته ، وعلى هذا النحو أصبحت قرطبة في عصره محط الرحلة ومقصد أهل الفن والأدب ، وأشهر من قدم الى قرطبة ليستظل برعايته المغنى البغدادي المشهور على بن نافع المعروف بزرياب ، والمغني المصري عبد الواحد الاسكندراني[1] . وبفضل عطائه للفن وأهله ، وبذله لقصاده ، سمت الحياة الفنية بقرطبة ، وتألقت في عهده ، وتحول مجتمع قرطبة في أمد قصير الى مجتمع أقل ما يقال عنه أنه مجتمع راق ، يمكن أن نضاهيه بمجتمعات حواضر الشرق الزاهرة .

وأحدث دخول زرياب الأندلس في عهد عبد الرحمن الأوسط ثورة شاملة على المجتمع القرطبي عامة ، وعلى فنون الغناء والموسيقى والفنون الصناعية في الأندلس بوجه خاص ، فقد أصبح زرياب بما أحدثه من تجديد في هذه الفنون الأندلسية صاحب مدرسة تسامى مدرسة إسحق الموصلي في بغداد ، « وأصبحت له طرائق أخذت عنه ، وأصوات استفيدت منه ، وألفت الكتب بها ، وعلا عند الملوك هنالك بصناعته وإحسانه فيها علواً مفرطاً ، وشهر شهرة ضرب بها المثل في ذلك »[2]. وقد صنف أسلم بن أحمد بن سعيد ابن القاضي أسلم بن عبد العزيز كتاباً في أغانيه ، وفي طرائق غنائه

---

(١) ابن حيان ، المقتبس ، نشر دكتور مكي ، ص ١٦٩ .

(٢) الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص ١٠٢ ، ١٧٢ .

وأخباره [١] ، لم يصل إلينا .

لقد كثر الحديث عن زرياب منذ أن كان تلميذاً لاسحق الموصلي في بغداد يتلقى عليه كل خبراته وتجاربه ، ويختلس من أغانيه وألحانه ، ويتلقفها استراقا ، حتى خروجه إلى المغرب عندما أصبح نبوغه في صناعته ، وتفوقه على أستاذه خطراً يهدد حياته في بغداد ، إلى أن اجتذبته أضواء المجتمع القرطبي الساطعة ، وحملته على نزولها واستيطانها ، في رعاية الأمير عبد الرحمن الأوسط ، بحيث أصبح ما يقال عنه بعد ذلك ضرباً من التكرار الذي لا طائل وراءه [٢] . وقصارى القول ، لقد لقي وفود زرياب الى الأندلس ترحيباً حاراً على الصعيدين الرسمي والشعبي ، فقد كتب الأمير إلى عماله في البلاد التي يمر عليها زرياب في طريقه من الجزيرة الخضراء الى قرطبة ، أن يحسنوا إليه ، وأمر فتى من كبار فتيان بلاطه ، لعله نصر أو مسرور ، أن يتلقاه أحسن لقاء ، وأن ينزله في دار من أفخم دور قرطبة ، ويحمل اليه جميع ما يحتاج إليه ، ثم أمر له الأمير بأن يجري له هو وأولاده رزقاً شهرياً معلوماً [٣]، وأن يمنح بمناسبة الأعياد ثلاثة آلاف دينار في العام ، ويخصص له من الطعام ثلاثمائة مدى شعير وقمح ، ويقطع من دور قرطبة ومستغلاتها وبساتينها وضياعها ما يقدر بأربعين ألف دينار [٤] ، كل ذلك فعله الأمير مستهدفاً إشاعة الطمأنينة في قلب هذا الفنان حتى يتهيأ له أن ينتج ويجيد ،

---

(١) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ١٨٦ — الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص ١٧٢ .

(٢) لدراسة حياة زرياب ارجع الى : العقد الفريد ، ج ٦ ص ٣٤ وما يليها — المقري ، نفح الطيب ، ج ٤ ص ١١٨ — ١٢٨ ؛ وانظر : جنثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الاندلسي ، ص ٥٢ — ٥٥ ؛ الحجي ، تاريخ الموسيقى الأندلسية ، ص ٢٨ — ٣٧ ؛ عبد العزيز سالم ، فن الغناء والموسيقى بالأندلس ، كتاب الشعب رقم ٦١ ، ص ٩٩ — ١٠٥ ، محمود الحفني ، زرياب موسيقار الأندلس ، مجموعة أعلام العرب رقم ٥٤ .

(٣) جعل لزرياب مائتي دينار راتباً ، ولكل من بليه الذين قدموا معه عشرين ديناراً .

(٤) المقري ، ص ١٢٧ .

ولما استوثق من أنه حقق له ما يصبو إليه استدعاه وجالسه على النبيذ ، وسمع غناءه ، فاستهوله ، وطرح كل غناء سواه ، وأحبه حباً شديداً وقدمه على جميع المغنين ، وفتح له باباً خاصاً في قصره يستدعيه منه متى أراده . وذكر ابن القوطية القرطبي ، أنه غناه يوماً صوتاً استحسنه الأمير ، فأمر الخزّان بأن يدفعوا إليه ثلاثين ألف دينار ، فامتنع الخزان عن دفع هذا المبلغ الكبير لمغن ، وأرسلوا إلى الأمير يطلبون منه أن يدفعه من ماله ، ففعل [١] .

وكان زرياب يلحن أشعاره بنفسه ، وذكروا أنه ادعى بأن الجن كانت تعلمه كل ليلة ما بين نوبة أي دور إلى صوت واحد ، وأنه كان يهب من نومه سريعاً فيدعو جاريتيه غزلان وهنيدة ، فيأخذان عودهما ، ويتناول عوده ، فيطارحهما ليلته ثم يكتب الشعر ويعود عجلاً الى مضجعه [٢] . ومع ذلك فقد كان زرياب يغني أشعار غيره وخاصة المشارقة في بعض الأحيان ، أمثال أبو العتاهية [٣] .

وتتلخص جهود زرياب الفنية ومبتكراته فيما يلي :

١ — ابتكر وهو بقرطبة وتراً خامساً متوسطاً للعود ، وضعه فوق المثنى وتحت المثلث .

٢ — اتخذ بالأندلس مضراباً للعود من قوادم النسر [٤] معتاضاً به عن مرهف الخشب ، وكان لهذا الابتكار آثار هامة في تخريج الألحان والأنغام بسبب ليونة الريشة وخفتها على الأصابع وعلى الأوتار .

---

(١) ابن القوطية ، ص ٦٩ .
(٢) المقري ، ص ١٢١ .
(٣) نفس المرجع ، ج ٥ ص ١٤٩ .
(٤) ابن دحية ، المطرب في أشعار أهل المغرب ، ص ١٣٧ .

٣ ـ ترجم كتاب الموسيقى لبطليموس ، وحفظ عشرة آلاف لحناً .

٤ ـ اتخذ رسوماً في مجالس الغناء استمرت في الاندلس من بعده ، فكان يفتتح الغناء بالنشيد بأي نقر ، ثم يأتي أثره بالبسيط ، ويختم بالمحركات والأهزاج [١] .

٥ ـ أسس مدرسة لتعليم الغناء ومعالجة الأصوات تبعاً لاختلاف طبائعها، واكتشاف الموهوبين . وبفضل هذه الجهود الموفقة تألق عدد كبير من تلاميذه وتلميذاته ونجحوا في إتمام رسالة ، زرياب ، فنشروا الوعي الموسيقي عند العامة والخاصة ، وهذبوا أذواق أهل الأندلس فنياً ، وهيئوا المجال لظهور ألوان جديدة من الشعر الغنائي الأندلسي وأعني بها الموشحات والأزجال ، ولم يلبث حب الغناء والموسيقى عندهم أن تحول إلى شغف بالطرب وتلهف للسماع ، فتعددت مجالس الغناء والأنس والشراب ، التي كانت تجمع العديد من المغنين والمغنيات ، حتى قيل إن أحد تلك المجالس ضم ما يقرب من مائتي مغني ومغنية يضربن بمختلف الآلات من عيدان وطنابير ومزامير [٢] ، وأصبح من الأمور المألوفة في قرطبة أن تتعالى أصوات الموسيقى من دور الخاصة ، ويتردد صدى أنغامها في الليل فتجتذب الطفيليين ومن شاء السماع والمشاركة من هواة الغناء .

ولكن هذه الشهرة التي أصابها زرياب ، واستئثاره دون غيره بصحبة الأمير وحظوته الأثيرة عنده أهاجت عليه حسد زملائه من المغنين المغمورين أو الذين تضاءلوا عند ظهوره ، كما أثارت عليه فريق ممن كانوا ينعمون بصحبة الأمير ومنادمته ، ثم ضعفت مكانتهم عنده وبهتت صورتهم في نظره ، وفتر ما بينه وبينهم منذ اليوم الذي تعلق فيه الأمير بصوت زرياب وتمسك بوجوده

---

(١) المقري ، ج ٥ ص ١٢٢ — ١٢٤ .

(٢) الحفني ، زرياب ، ص ١١٤ .

بقربه ، ويضع المؤرخون العرب على رأس هؤلاء الحاسدين شاعر البلاط والممثل الشخصي للأمير ومبعوثه الخاص إلى الامبراطور البيزنطي تيوفيل في سنة ٢٢٦ هـ وإلى أريك ملك النورمان الدانيين في سنة ٢٣٠ [١] ، وأعني به الشاعر يحيى بن حكم الغزال (ت ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م) أحد الشخصيات البارزة في بلاط الأمير [٢] : فقد هجا الغزال زرياب هجاء مقذعا تحرج ابن دحية من ذكره ، وعندئذ شكاه زرياب إلى الأمير ، فأمر بنفيه من الأندلس ، فرحل إلى العراق [٣] .

ونبغ من تلاميذ زرياب في الفترة التي عاشها في قرطبة (من وصوله الى قرطبة في ٢٠٦ هـ حتى وفاته في ٢٤٣ هـ) أبناؤه الذكور الثمانية عبد الرحمن، وعبيد الله ، ويحيى ، وجعفر ، ومحمد ، وقاسم ، وأحمد ، وحسن ، وبنتاه علية وحمدونة ، وكلهم تعلموا الغناء ومارسوا هذه الصناعة وإن اختلفت بهم الطبقة ، فكان أعلاهم شأنا ابنه عبيد الله ، ويليه في المكانة عبد الرحمن الابن الأكبر لزرياب ، وخليفته في صناعته وحظوته [٤] ، ولكنه لم يلبث أن اغتر بنفسه وداخله الزهو بغنائه ، فتجرأ على الملوك ، واستخف بالكبراء [٥] ، أما محمد فكان مخنثا ، وأما قاسم فقد كان أحذقهم غناء [٦] .

---

(١) تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس ، ص ١٥٨ ، ١٥٩ .

(٢) انظر : ابن دحية ، المطرب ص ١٣٦ وما يليها — المقري ، ج ٢ ص ٢٤ . وقارن ذلك بما أورده : Lévi - Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. I, p. 253 — حسين مؤنس ، غارات النورمانيين على الأندلس بين سنتي ٢٢٩ ، ٢٤٥ هـ ، المجلة التاريخية المصرية ، عدد ١ ، مجلد ٢ ، مايو ١٩٤٩ ص ٤٢ — ٦٤ .

(٣) ابن دحية ، ص ١٣٧ .

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٧٨ .

(٥) راجع ما رواه المقري عن سخفه وغروره وما سببه له ذلك من متاعب (المقري ، ج ٤ ، ص ٢٦) .

(٦) المقري ، ص ١٢٦ .

وكانت حمدونة بنت زرياب تفوق أختها عليّة إجادة للغناء ، ويبدو أنها حظيت بشهرة كبيرة في هذا الفن ، ولعل ذلك كان من الأسباب التي دعت الوزير هشام بن عبد العزيز وزير الأمير محمد بن عبد الرحمن إلى أن يتزوجها. أما علية فكانت أقل حظاً من أختها في الشهرة ، ولكنها عمرت طويلاً بعد أختها حمدونة وأخوتها ، ولم يبق من أهل بيتها سواها .

ونبغ من تلميذاته من غير أبنائه جاريته متعة ، ومصابيح جارية الكاتب أبي حفص عمر بن قلهيل ، وغيرهن من المغنيات اللاتي أتيح لهن نشر فن زرياب إلى مجالات بعيدة . أما متعة فكانت تلميذته الأثيرة لديه : أدّبها وعلّمها أحسن أغانيه ، وكانت بارعة الجمال ، وكان جمالها وحسن صوتها سبباً في حظوتها عند الأمير ، فقد جلست يوماً بين يدي الأمير عبد الرحمن الأوسط تغنيه مرة وتسقيه أخرى حتى نالت إعجابه وفطنت هي إلى ذلك رغم محاولاته إخفاء ما بنفسه ، فغنته بهذه الأبيات .

يا من يغطي هواه	من ذا يغطي النهارا ؟
قد كنتُ أملك قلبي	حتى عَلِقْتُ فطارا
يا ولتا أتراه	لي كان أو مستعارا
يا بأبي قرشي	خلعت فيه العذارا

فلما انكشف أمرها لزرياب، أهداها للأمير فحظيت عنده [1] شأن غيرها من جارياته مؤمرة [2] ، وطروب أم ولده عبد الله [3] ، وضرتها فجر [4]

---

(١) المقري ، ج ٤ ص ١٢٧ .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٥٢ ، وكان لها مسجد باسمها .

(٣) المقري ، ج ١ ص ٣٢٦ وباسمها سمي أحد مساجد قرطبة .

(٤) ابن حيان ، تحقيق الدكتور مكي ، ص ١٥٠ .

حظيته، وعجب جارية أبيه الحكم [1]، والشفاء[2]، وقلة[3]، وغزلان[4]. وقد أقامت متعة بعد أن أصبحت محظية للأمير مسجداً عرف باسمها [5]، ولما توفيت دفنت في مقبرة تقع الى الشمال الغربي من مقبرة عامر القرشي، ونسبت هذه المقبرة إليها كذلك [6]. أما مصابيح فقد أخذت الغناء على زرياب، وكانت على درجة كبيرة من الفطنة بحيث بلغت الغاية في عذوبة الصوت وجمال الغناء، فأعجب بها الكاتب الأديب ابن عبد ربه، فكتب إلى مولاها زرياب:

يا من يضن بصوت الطائر الفرد	ما كنت أحسب هذا الضن من أحد
لو أن أسماع أهل الأرض قاطبة	أصغت إلى الصوت لم ينقص ولم يزد
فلا تضن على سمعي تقلده	صوتاً يجول مجال الروح في الجسد
لو كان زرياب حياً ثم أسمعه	لذاب من حسد أو مات من نكد

وما إن طالع زرياب هذه الأبيات حتى خرج حافياً، وأدخله إلى مجلسه فتمتع بسماعها [7]. وعلى أيدي هؤلاء نبغ جيل من المغنيات ظهرن في عهدي الأميرين المنذر وعبدالله، منهن جارية اسمها طرب أهداها أحد التجار إلى الأمير المنذر، وكانت على درجة كبيرة من الجمال مع حظ من الاتقان في صنعة

---

(١) تنسب اليها منية عجب في ربض شقندة القبلي.

(٢) كانت جارية وأم ولد لعبد الرحمن الأوسط، وينسب إليها مسجد وربض في المدينة الغربية من قرطبة.

(٣) المقري، ج ١ ص ٣٢٦.

(٤) هي أم المطرف بن عبد الرحمن الأوسط، وكانت مغنية بديعة محسنة وعوادة وأديبة ولعلها إحدى جاريات زرياب التي سبق أن ذكرناها مع منيدة (المقري، ج ٥ ص ١٢٠).

(٥) تاريخ المسلمين وآثارهم بالأندلس، ص ٢٩٩.

(٦) Lévi-Provençal, l'Espagne musulmane au Xe siècle, p. 209— Histoire de l'Espagne musulmane, t. III, p. 376

(٧) المقري، ص ١٢٨. وأورد الحميدي هذه الأبيات مع بعض الاختلاف، انظر: جذوة المقتبس، ص ١٠٢.

الغناء وحسن الأداء ، فما كاد يسمعها الأمير المنذر حتى أخذت بمجامع قلبه ، فقبل الهدية بعد أن وهب التاجر ألف دينار[1]. ومنهن جيجان جارية الأمير عبدالله ، سمعها سعيد بن جودي[2] بقرطبة في إمارة الأمير محمد فهام بها[3] .
وعلى الرغم من كثرة عدد تلاميذ زرياب ، فإن أكثر ما وصلنا من أخبارهم يقتصر على أسماء المغنيات . ومع توافر عدد المشتغلين بصنعة الغناء فقد ظل المشرق الاسلامي يزوّد الأندلس بدفعات جديدة ، فهذا إبراهيم بن حجاج اللخمي الذي انتزى بإشبيلية في عهد الأمير عبد الله يبعث الأموال لشراء جارية من بغداد كان قد بلغه ما حظيت به من شهرة في الغناء والفصاحة ، والمعرفة بصوغ الألحان اسمها قمر ، فقدمت قمر واستقرت في بلاطه بإشبيلية[4] ، ومن أغانيها في مدحه :

ما في المغارب من كريم يرتجى إلا حليف الجود إبراهيم
إني حللت لديه منزل نعمة كل المنازل ما عداه ذميم[5]

كذلك بعث الخليفة عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر لدين الله في سنة ٣٤٤ هـ – رغم أعبائه الثقيلة في الداخل والخارج – سفينة إلى المشرق لشراء عدد من المغنيات من الاسكندرية ، وعادت السفينة مشحونة بعدد من الجواري والمغنيات[6] .

وفي عهد الحاجب المنصور ذاعت شهرة المغنية أنس القلوب[7] .

---

(١) المقري ، ج ٥ ص ١١٦ ، ١١٧ .
(٢) هو ثائر عربي ولاه عرب غرناطة عليهم بعد وفاة الأمير محمد ، وقتل في سنة ٢٨٤ هـ (ابن حيان ، كتاب المقتبس في تاريخ رجال الأندلس ، نشره الأب ملشور أنطونيا P. Melchor Antuna ، باريس ١٩٣٧ ص ٣٠) .
(٣) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٥٧ .
(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٩٤ .
(٥) المقري ، ج ٤ ص ١٣٧ .
(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٨ ص ٥١٣ – أبو الفداء ، المختصر ، ج ٣ ص ١٢٧ .
(٧) المقري ، ج ٢ ص ١٤٦ – جنثالث بلنثيا ، ص ٦٩ .

وممن برع في فن الغناء من أبناء وبنات الأمراء والخلفاء : الأمير أبو القاسم المطرف بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط [1] ، والأمير أبو الإصبغ عبدالعزيز ابن عبد الرحمن الناصر [2] ، والأميرة ولادة بنت المستكفي ، وكان لها صنعة في الغناء [3] ، ومن مغنياتها مغنية اسمها عتبة [4] . وفي مجال الموسيقى نبغ موسيقيان بقرطبة في عهد الحكم المستنصر أحدهما أبو مقيم الزامر [5] ، والثاني النكوري الزامر [5] ، وكان هذا الأخير يزمر في البوق قبل ذلك لعبدالرحمن الناصر. ولا شك أن قرطبة كانت تفيض بأعداد هائلة من الموسيقيين ، إلا أنه للأسف لم يصل إلينا من أسمائهم سوى الإسمان سالفي الذكر. ويصف الحميدي موكب عرس في بعض شوارع قرطبة يتوسطه النكوري الزامر وقد وضع على رأسه قلنسوة من الوشي، ولبس ثوب خز عبيدي، وكان يسايره في زمره مغن محسن يغني أبياتاً من شعر أحمد بن كليب النحوي الشاعر ، جرت على الألسنة وتنوشدت في المحافل كان الشاعر قد ضمنها حبه لأسلم بن عبدالعزيز منها قوله:

أسلمني في هوا ه أسلم هذا الرشا
غزال له مقلة يصيب بها من يشا [7]

ويبدو أن أمراء بني أمية في قرطبة ورؤساء الأندلس في عصر الطوائف لم يكتفوا في مجالس شرابهم من الملهين بالمغنين والموسيقيين ، بل عمد بعضهم إلى أن يلتزم بخدمته لاعبون بالسيوف والدك ومهرجون ومضحكون ، ومن هؤلاء الأمراء سليمان بن المرتضى بن محمد بن عبد الملك بن الناصر الذي رشحة شيوخ قرطبة مع أميرين آخرين للخلافة في سنة ٤١٤ ، ولكنه لم يظفر

---

(١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ١ ص ١٢٨ .
(٢) المقري ، ج ٥ ص ١٢٢ .
(٣) نفس المرجع ، ج ٥ ص ٣٣٤ . (٤) ابن بسام ، مجلد ١ ، قسم ١ ، ص ٣٧٧ .
(٥) الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص ٣٩٨ .
(٦) نفس المصدر ، ص ١٤٣ .
(٧) نفسه ، ص ١٤٤ .

بها . وكان سليمان هذا غاية في الوسامة وجمال الوجه حتى لقبوه بالغزال ، وكان مولعاً بالفكاهة والنوادر ، محباً للظرفاء، فالتزم بخدمته المضحك المشهور بالزرافة ، « وحدث أن لعبوا يوماً في مجلس سليمان لعبة أفضوا فيها إلى أن تقسموا اثنين اثنين ، كل شخص ورفيقه . فقال سليمان : ومن يكون رفيقي ؟ فقال له المضحك : يا مولاي ، وهل يكون رفيق الغزال إلا الزرافة ؟ . ودخل عليه وهو قاعد في رحبة قصره، وقد أطل عذاره ، فقال له ما تطلب الزرافة ؟ فقال : ترعى الحشيش ، وأشار إلى عذاره ، فقال له اغرب لعنك الله »[1] . ومنهم المعتصم بن صمادح صاحب المرية في عصر دويلات الطوائف، وكان يحضر في مجالسه من يقوم باللعب والرقص المطرب من الجاريات ، ومن يلعب لعب المهرجين من الرجال[2] .

ونستدل على ازدهار فن الغناء والموسيقى والرقص في عصر الخلافة من النقوش المحفورة في العلب والصناديق العاجية التي كانت تنتجها دار الصناعة بقرطبة ، وهي نقوش تمثل في بعض الأحيان مجالس أنس وشراب : منها نقش محفور على علبة من العاج أسطوانية الشكل من عصر الحكم المستنصر ، تحمل تاريخ سنة ٣٥٧ ، محفوظة اليوم بمتحف اللوفر ، يُمثل منظراً لمجلس من تلك المجالس ، نشاهد فيه صورة رجلين جالسين، يحمل أحدهما قنينة الشراب ، ويعزف الآخر على آلة مستديرة الرأس يغلب على الظن أنها البربط أو الرباب ، ويقف بينهما رجل يعزف على عود يحمله بين يديه . ويتجلى في نقوش صندوق من العاج يحمل تاريخ سنة ٣٩٥ أي يرجع إلى عصر الحاجب سيف الدولة عبد الملك بن المنصور ، محفوظ في كاتدرائية بنبلونة ، بعض مناظر تمثل حياة القصر الخلافي ، محصورة داخل ثلاث جامات مفصصة على شكل زهرة في كل من الوجهين الكبيرين للصندوق ، نشهد في إحداها (وهي

---

(١) المقري ، ج ٥ ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

(٢) ابن بسام ، قسم ١ ، مجلد ٢ ، ص ٢٢٨ — المقري ، ج ٤ ص ٢٤٦ .

الجامة اليمنى من وجه الصندوق) صورة تمثل الخليفة [١] هشام يجلس منتشياً في بستان وبيديه كأسي خمر بين فتيين من فتيانه ، ويبدو الخليفة في هـذا النقش ملتحياً ، وقد بلغ به الطرب والنشوة مبلغاً عظيماً نستشفه من ابتسامته العريضة . وفي الجامـــة الوسطى منظر آخر يكمل المنظر السابق يبدو فيه زامران جالسين ، بينهما مغنية . والجامة اليسرى تمثل نديمـين يستمعان إلى الغناء ، ويمدان أيديهما إلى عنقودي عنب يتدليان من شجرة بينهما . وتعـبّر هـذه المناظر أصدق تعبير ، وتنطق بجلاء عن ولع خلفاء قرطبة بفن الغناء والموسيقى . ومن المعروف أن هذا الفن بلغ درجة كبيرة من التطور والرقي في عصر المنصور وابنه المظفر عبد الملك ، فكان المنصور يكثر مـــن مجالس الأنس التي يتخللها الغناء والموسيقى والرقص وتُدار عليه فيها كؤوس الخمر ، وقد أشرنا فيما سبق إلى أحد هذه المجالس التي حضرها الوزير أبو عامر أحمد ابن شهيد ، ورقص فيها على أنغام الموسيقى . وأورد ابن بسام أن أبا العلاء صاعد بن الحسن البغدادي دخل يوماً على المنصور ، فوجد عوداً بين يديه ، ثم قال له المنصور : « قد تواتر الخبر وتحدث عنك البشر أنك فرد في عـلم الموسيقى ، وقد أردت غير مرة الانبساط معك سراً في ذلك » . فشق الأمر على صاعد هنالك ولم يجد من محيد عن أخذ العود ، فتناوله وجس أوتاره ، وسوى تسوية أطربت ابن أبي عامر ، ثم اندفع ينشده بيتي مجنون بني عامر:

أبى القلب إلا حبّها عامرية ⁂ لها كنية عمرو وليس لها عمرو
تكاد يَدِي تندى إذا لمستهـا ⁂ وينبت في أطرافها الورق الخضر [٢]

---

(١) هكذا استنتجت من ضخامة صورة الخليفة بالقياس الى صورة خادميه الواقفين على جانبيه لخدمته ، ومن لحيته الغزيرة الكثة التي تظهره كهلا ، ولا يعقل أن يكون صاحب هذه الصورة المظفر بن عبد الملك ، الذي عرف بكثرة حروبه وانصرافه إلى الغزو ، بالإضافة إلى أن المظفر كان شاباً . ونضيف إلى حججنا على أن المقصود بالصورة المنقوشة هو هشام وليس الحاجب المظفر وجود خادمين أحدهما يحمل مذبة والثاني يحمل قنينة خمر . (راجع محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية الاسلامية في المغرب والأندلس ، بيروت ١٩٧٢ ص ١٩٧) .

(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، قسم ٤ ، مجلد ١ ، ص ١٩ .

أما المظفر عبد الملك ، فقد فاق أباه في إباحة الحريات والتخفيف عن الناس ، فراقت أيامه وأحبه الناس سراً وعلانية ، وانصب الإقبال والتأييد عليه انصبابا لم يسمع بمثله ، وسكن الناس منه إلى عفاف ونزاهة نفس ، فباحوا بالنعمة ، وأخذوا في المكاسب والزينة من المراكب والملابس والقيان حتى سمت أثمان هذه الأشياء في مدته، وبلغت الأندلس في أيامه الى نهاية الجمال والكمال وسعة الحال في كنف ملك مُقتبل السعد ، ميمون الطائر ، غافل عن الأيام ، مسرور بما تنافس فيه رعيته من زخرف دنياها ... ثم أغرق عبد الملك النزع في دولته ، وانهمك في طلب الآلات الملوكية حتى جلب إليه من ذلك كل علق خطير ، وتأنق في مراكبه هو وأصحابه ... » [1]

وكان ابتكار الموشحات والأزجال من العوامل التي ساعدت على النهوض بفن الغناء والموسيقى في قرطبة ، فقد كان المغنون في عصر الإمارة وفترة من عصر الخلافة يقتطفون من القصائد ويغترفون منها ما يتلاءم مع الألحان ، إلى أن ابتكرت الموشحات لخدمة الغناء ، والموشحات أشعار أكثر موضوعاتها التي تصلح للغناء تدور حول الغزل والخمر ووصف الطبيعة وكلها موضوعات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمجالس الطرب [2] . والموشحة بنيت على أغاني شعبية كانت شائعة بالرومانسية أي اللاتينية الدارجة أو العجمية [3] ، وكان الموشح ينظم أسماطاً وأغصاناً أغصاناً ، يكثر منها ومن أعاريضها المختلفة ، وكان المقطع الأخير من البيت الواحد في الموشحة يعرف بالخرجة [4] . وكان من الطبيعي أن تتسم الموشحة بسهولة الألفاظ وعذوبة مقاطع الكلمات ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) مصطفى الشكعه ، الأدب الأندلسي ، موضوعاته ومقاصده ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ٤٠٣ .

(٣) آنخل جنثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ١٤٢ .

(٤) لطفي عبد البديع ، الإسلام في إسبانيا ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٧٩ – الشكعه ، المرجع السابق ، ص ٣٧٦ .

وحسن إيقاعها الصوتي حتى تصلح للغناء ويملح ترنيمها، ويجاد توقيعها، ويجمل تأديتها[1] . فهذا ابن رافع رأسه كبير شعراء المأمون بن ذي النون بطليطلة يبدأ موشحته المشهورة بقوله :

العود قد ترنم بأبدع تلحين وسقت المذانب رياض البساتين[2]

وهذا البيت يشير إلى أن الموشحة كانت تنشد مع النقر على العود .

ويجمع مؤرخو الأدب الأندلسي القدامى على أن فن التوشيح نشأ في الأندلس ، وأن أول من صنع أوزان الموشحات مقدم بن معافي القبري (وفقاً لما ذكره ابن خلدون) أحد شعراء الأمير عبدالله بن محمد[3] ، وأخذ عنه بعد ذلك ابن عبد ربه ، وإن كان ابن بسام يجعل مبتكر أوزان الموشح في الأندلس محمد بن محمود القبري الضرير الذي كان يصنعها على أشطار الأشعار ويأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ، ويصنع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان[4] . إلا أن فن التوشيح لم يبلغ ما بلغه من عظمة وشهرة إلا في عصر ملوك الطوائف الذي ازدهرت فيه الفنون والآداب نتيجة طبيعية لتعدد مراكز الثقافة في الأندلس على أثر سقوط الخلافة وقيام دويلات الطوائف . وأول من برع في صوغ الموشحة الموسيقية عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح ملك المرية ، ثم ابن رافع رأسه شاعر المأمون بن ذي النون ملك طليطلة[5] . وقد أعجب أهل الأندلس بالموشحات وأخذوا بها واستظرفوها لسهولة تداولها ، وسرعة حفظها ، وسلاستها ، وتنميق كلماتها

---

(١) الشكعة ، ص ٢٧٠ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١١٣٩ .

(٣) نفسه ، ص ١١٣٨ .

(٤) ابن بسام ، قسم ١ ، مجلد ٢ ، ص ١ ، ٢ .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١١٣٨ .

وترصيع أجزائها [1] .

وفي عصر المرابطين استحدث أبو بكر بن قزمان القرطبي فناً جديداً في الشعر الشعبي هو الزجل [2] يصاغ في فقرات تسمى أبياتاً ، وتبدأ مقطوعته ببيت يعرف بالمركز أو السمط تليه أغصان ذات قافية واحدة ووزن واحد ، كل غصن منها يتألف من ثلاثة مصاريع أو أكثر يليها بيت في نفس وزن المركز وقافيته [3] ، وقد خلف ابن قزمان في صناعة الزجل عبدالله بن الحاج المعروف بمدغليس [4] .

(٣)

مراكز فن الغناء والموسيقى في الأندلس بعد سقوط الخلافة بقرطبة

ازدهرت فنون الغناء والموسيقى في عصر الطوائف ، وتعددت مراكزها بعد أن فقدت قرطبة مكانتها ، وحاط ملوك الطوائف أنفسهم بمشاهير المغنين والمغنيات وفحول الشعراء والكتاب ، ويعبر عن ذلك ابن الكردبوس إذ يقول : « وصادف أيامه (أي الفونسو السادس ملك قشتالة) نفاقاً كثيراً بين المسلمين ، واختلافاً عظيماً ، وضعف بعضهم عن بعض إلا بمعونة الروم ، فبذلوا للفنش ما يحبه من الأموال ليعينهم على مناوئيهم بأنجاد الرجال ، واللعين في أثناء ذلك ، لما بينهم من الفتنة ، مسرور ، وهم مع ذلك مشتغلون بشرب الخمور ، واقتناء القيان ، وركوب المعاصي وسماع العيدان » [5] .

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١١٥٣ .

(٢) ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، ج ١ ص ١٠٠ — ابن خلدون ، المصدر السابق ، ص ١١٥٤ .

(٣) جنثالث بالنثيا ، ص ١٤٣ .

(٤) ابن خلدون ، ص ١١٥٤ .

(٥) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، ص ٧٧ .

وفي هذا العصر تألق عدد كبير من المغنين اختص بهم ملوك الطوائف في قواعدهم وصلت إلينا أسماء بعضهم، منهم على سبيل المثال : أبو يوسف المغني[1] الذي دعاه المتوكل على الله ابن الأفطس ملك بطليوس ليقضي معه ليلة أنس في قصر منيـــة البديـع [2] بحاضرته بطليوس ، والمغني السوسي [3] الذي لازم الرشيد بن المعتمـــد بن عباد ، وأبو بكر الاشبيلي[4] مغني المعتمـد . واشتهرت أبدة [5] بكثرة « أصناف الملاهي والرواقص المشهورات بحسن الانطباع والصنعة ، فإنهن أحذق خلق الله تعـــالى باللعب بالسيوف والدك وإخراج القرى والمرابط والمتوجـــه »[6] .

وفيما يلي عرض لأهم مراكز الغناء في عصر الطوائف .

١ — اشبيلية

تخلت قرطبة بعد دثورها زمن الفتنة عن مكانتها السامية في فن الغنـــاء والموسيقى إلى إشبيلية التي لم تلبث أن أصبحت مدينة الأدب واللهو والطرب[7] ، واشتهر أهلها بحبهم للهو حتى « ضرب بهم المثل في الخلاعة وانتهاز فرصـة

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ١٨٥ .

(٢) هو قصر بناه المتوكل خارج بطليوس على نهرها الأعظم المعروف بوادي أنه ، وهو روض كان المتوكل يكلف بوافاته ، ويبتهج بحسن صفاته .

(٣) المقري ، ج ٥ ص ٢٣٥ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٢٣٤ .

(٥) مدينة صغيرة تقع قريبـــا من بياسة ، وعلى مقربة من نهر الوادي الكبير (الحميدي ، ص ١١) .

(٦) فضائل الأندلس ، ص ٥٦ .

(٧) المقري ، ج ١ ص ١٩٣ .

الزمن ساعة بعد ساعة [١] » ، وشغفوا بالغناء الذي توارثوه عن زرياب ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « فأورث (أي زرياب) بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف ، وطما منها بإشبيلية بحر زاخر » [٢] . ويأتي المقري بمثل يعبّر عن شهرة إشبيلية في الغناء ، فيقول: «اشتغل أبو القاسم بن محمد بن المليح أول أمره بالزهد ، وكتب التصوف ، فنصحه أبوه بأن يعاشر الأدب والظرفاء ويأخذ نفسه بقول الشعر ومطالعة كتب الأدب ، فلما عاشرهم زينوا له الراح ، فتهتك في الخلاعة ، وفر إلى إشبيليــة ، وتزوج بامرأة لا تليق بحاله ، وصار يضرب معها بالدف » [٣] . ومما لا شك فيه أن ازدهار فن الغناء والموسيقى في إشبيلية زمن الطوائف لم يكن ليتحقق ما لم يكن قد حظى برعاية بني عباد وتشجيعهم لأهل هذا الفن وأربابه ، فقد كان المعتضد بالله عباد بن محمد بن عباد قــد أوتي من ثقوب الذهن ، وحضور الخاطر ، وصدق الحس ، ورقة المشاعر ما فاق به نظراءه من مـلوك الطوائف ، ولم يقصر المعتضد بالله في دولته التي مهدها على أطراف الأسنة « في توفير حظه الأوفى من الأمور الملوكية ، والعدد السلطانية ، والآلات الرياسية ، فابتنى القصور السامية ، واعتمر العمارات المغلة ، واكتسب الملابس الفاخرة ، وغالى في الأعلاق السنية ، وارتبط الخيل السابحة ، واقتنى الغلمان الروقــة .. ، وكان مع انشغاله بالحروب سائر أيامــه وعلو همته ، يقرض الشعر الرقيق مثل قوله :

شربنا وجفنُ الليل يغسل كحله	بماء صباحٍ والنسيمُ رقيقُ
معتّقةً حمراءَ أمّا بخارُهـا	فضخمٌ وأما جسمها فدقيق [٤]

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ١٥١ .
(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٧٦٦ .
(٣) المقري ، ج ٥ ص ٢١١ .
(٤) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٥٧ .

أما المعتمد على الله محمد بن عباد ، فكان فذاً في البلاغة ، طرفاً في الشعر والكتابة ، بارع النظم والنثر ، يكثر من مجالس الشراب والطرب مع زملائه الشعراء وخلانه الندماء أمثال ابن عمار وابن عبد الصمد وابن اللبانة . وكان المعتمد خير مثل للشاعر الرقيق الذي يصوّر حياته الناعمة في إشبيلية بقوله :

ولقد شربتُ الراح يسطع نورُها — والليل قد مدّ الظلام رداءَ
حتى تبدّى البدرُ في جوزائه — مَلِكاً تناهى بهجةً وبهاءَ

إلى أن يقول :

وترى الكواكب كالمواكب حوله — رفعت ثريّاها عليه لواءَ
وحكيته في الأرض بين مواكب — وكواعب جَمَعَت سناً وسناء
إن نشّرتْ تلك الدروع حنادساً — ملأت لنا هذي الكؤوس ضياء
وإذا تغنّتْ هذه في مزهر — لم تأل تلك على التريك غناء [1]

وكان المعتمد أندى ملوك الأندلس راحة ، وأرحبهم ساحة ، وكان يميل الى الاستكثار من الجواري والمغنيات [2] ، ولهذا أصبحت إشبيلية في عهده بؤرة الرحال وقبلة الآمال ، ومركز الشعراء ، ومجتمع الفنانين والأدباء . وحظيت إشبيلية في عهد آل عباد في مجال الغناء والموسيقى بشهرة طمست فيه غيرها من حواضر الأندلس ، وظلت تحتفظ بهذه المكانة حتى سقطت في أيدي القشتاليين ٦٤٦ م . وقد عبر ابن رشد القرطبي عن هذه الشهرة بقوله : « إذا مات عالم في إشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية » [3].

---

(١) جنثالث بالنثيا ، ص ٩٩ .

(٢) منهن جوهرة ووداد (المقري ، ج ٥ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣) ومنهن اعتماد الرميكية التي اشتراها من صاحبها التاجر لإعجابه بها وبسرعة بديهتها ، وتزوجها (جنثالث بالنثيا ، ص ٩٥) .

(٣) المقري ، ج ١ ص ١٤٧ .

ومن الأسماء اللامعة في إشبيلية في فن الغناء والموسيقى زمن المعتمد أبو بكر الإشبيلي [١] ، والمغنى السوسي [٢] ، وكان الرشيد عبيد الله بن المعتمد يجيد ضرب العود [٣] .

٢ - قرطبة

لا شك أن مركز قرطبة الفني اهتز كثيراً في أعقاب الفتنة البربرية التي انتهت بسقوط الخلافة وانكماش رقعة عمرانها ، ومع ذلك فقد ظلت قرطبة تحتفظ ببقية من ازدهار في مجال الغناء والموسيقى ، فابن حزم يتحدث عن مجالس أنس وغناء كان يعقدها بعض كبار رجال الدولة [٤] . ويذكر ابن الخطيب أن حكم بن عكاشة ، أحد قواد ابن ذي النون صاحب طليطلة ، هاجم القائد الإشبيلي ابن مرتين بقرطبة وهو عاكف على شرابه ولهوه ، ففر واختفى ببعض دور صنائعه ، فاستحضر ابن عكاشة من كان بيديه ليلتذ من القينات والملهين [٥] . وفي أواخر عصر الطوائف ظهر بقرطبة موسيقي شهير هو إسحق بن سمعان اليهودي ، كان صديقاً لابن باجة ، واشتهر بتأليف الألحان من كل الأساليب [٦] .

٣ - طليطلة

استقلت بطليطلة بعد سقوط الخلافة الأموية أسرة بربرية أندلسية كانت في

(١) المقري ، ج ٥ ص ٢٣٤ .
(٢) نفس المرجع ، ج ٥ ص ٢٣٥
(٣) ابن الأبار ، ج ٢ ص ٦٨ .
(٤) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ٤٨ ، ١٧٦ - ١٧٨ .
(٥) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٥٨
(٦) فارمر ص ٢٥١

حدمة الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر هي أسرة ذي النون ، وقد بلغت هذه الأسرة في البذخ والترف الغاية ، وأقام ملوكها القصور السامقة والآثار الجليلة ، من بينها القصر الذي بناه المأمون يحيى في النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، وتأنق في بنيانه إلى حد أنه أقام فيه بحيرتين صف على أركانها تماثيل أسود معدنية فاعرة الأشداق « ينساب من أفواهها نحو البحيرتين الماء هوناً كرشيش القطر أو سحالة اللجين »[1] ، واتخذ في وسط إحدى البحيرتين قبة من الزجاج البلوري ، وأجرى الماء إلى أعلى القبة على تدبير أحكمه المهندسون[2] .

ويصف ابن بسام حفلاً أقامه المأمون في مجلس خلوته بقصر الناعورة المذكور ، أحضر فيه عدداً من المغنين وجميع آلات الأنس ، وبالغ في تأنيس الحاضرين بالنبيذ ، فيقول : « ثم انثنوا إلى الشراب ونفوسهم به صبة ، وقد مدت ستارة الغناء لأهل الحجاب ، ونظمت نوبة المغنين رمراً ، فهاجوا الأطراب ، واستخفوا الألباب »[3] . وغنى لهم في ذلك اليوم من كبار المغنين ذي الاسرائيلي الذي يقارن في إحسان الصوت بإبراهيم الموصلي ، وكان ما غناه صوتاً شجياً لحنه من خفيف الرمل مطلق بالخنصر في مقطوعة نظمها الشاعر عبد الله بن خليفة الملقب بالمصري ، « فطمح بابن ذي النون الاطراب حتى جن جنون الناب ، وخلع لوقته عليه ثوباً من التستري الأحمر مطرزاً بالذهب ، ووصله بمائتي دينار ذهب ، ثم فض الصلات والخلع في سائر

(١) ابن بسام ، قسم ٤ ، مجلد ١ ، ص ١٠٣ .

(٢) راجع ما كتبته في ذلك فيما يلي : قصر الناعورة بطليطلة ، دائرة معارف الشعب رقم ٦٤ ص ١٢٩ وما يليها - المساجد والقصور بالأندلس ، سلسلة اقرأ ، عدد ١٩٠ ، اكتوبر ١٩٥٨ - ما لا يعرفه المسلمون عن حواضر الأندلس : طليطلة ، مجلة الفكر الاسلامي ، السنة الأولى ، العدد الخامس ، بيروت ١٩٧٠ ص ٤٢

(٣) ابن بسام ، قسم ٤ ، مجلد ١ ص ٥ .

الطبقات » ، وتناوب المغنون تلك الليلة الغناء بقطوعات من شعر عبد الله ابن خليفة المذكور [1] .

٤ — المرية

نجح خيران الفتى العامري في التغلب على أفلح الصقلبي ودخل المرية في سنة ٤٠٥ هـ ، واتخذها مقراً له ، وازدهرت المرية في عهده (حتى سنة وفاته في ٤١٩ هـ) ازدهاراً عظيماً ، وأصبحت من أهم مدن الأندلس في عصر الطوائف ، وكان عصره عصر ارتقاء وازدهار في الحياة الأدبية والفنية ، فقد قصده بعض أدباء الأندلس المشهورين أمثال وزيره أحمد بن عباس الكاتب ، وابن دراج القسطلي الشاعر. ثم آلت المرية بعد أحداث طويلة في سنة ٤٣٣ هـ إلى ابن الأحوص معن بن صمادح التجيبي الملقب بالمعتصم (ت ٤٨٤ هـ) ، ويعتبر عصره أكثر عصور المرية تألقاً وازدهاراً ، فقد تألقت فيها العلوم والآداب والفنون ، وبلغت حضارة المريّة ذروة رقيّها في زمنه على الرغم من قلة موارده ، وصغر مملكته ، ولزمه فحول الشعراء أمثال أبو عبد الله بن الحداد ، وابن عبادة ، وابن الشهيد [2] ، كما قصده ابن عمار الشاعر ولزمه فترة ، والشاعر السميسر ، والنحلي البطليوسي ، وابن بليطة ، وابن أخت غانم ، وأبو الحسن بن الحاج الوشّاح ، والشاعر أبو الفضل جعفر بن محمد البرجي المعروف بالحكيم الفيلسوف [3] ، وأعملت إلى حضرته الرحال ، واجتذبت المرية على أيامه الكثير من أصحاب المواهب في فن الغناء والموسيقى. ولم يكن المعتصم نفسه يزهد في مجالس الطرب ؛ فلدينا من أمثلة هذه المجالس

---

(١) ابن بسام ، قسم ٤ ، مجلد ، ص ١٠٦ .
(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٠ .
(٣) تاريخ مدينة المرية الإسلامية ، ص ١٧٧ .

أخبار كثيرة في كتب الأدب والتاريخ [1] . وذكروا أنه لما حل به الموت والمرابطون يحاصرون مدينة المرية ، نظر إلى جارية من جواريه تبكي عليه عند رأسه ، فلم يتردد وهو في لحظة انتقاله عن مخاطبتها شعراً ، فقال :

ترفق بدمعك لا تُفْنِهِ   فبين يديك بكاء طويل [2]

ومن أشعر أبنائه رفيع الدولة ، وأبو جعفر أحمد ، وعز الدولة ، وأختهم الشاعرة الوشّاحة أم الكرام . ومن شاعرات المرية ومغنياتها في عهده زينب ، وغاية المنى إحدى قيان المعتصم [3] .

٥ — سرقسطة

تمكن سليمان بن محمد بن هود الجذامي من دخول سرقسطة في سنة ٤٣٠ بدعوة من أهلها ، واستولى على القصر ، ثم اتخذها مقراً له حتى توفي في ٤٣٨ . ثم خلفه ابنه أحمد المقتدر بالله ، ثم المؤتمن محمد بن أحمد ، ثم المستعين بالله أحمد بن المؤتمن . واستمر بنو هود يحكمون سرقسطة حتى قتل آخرهم أحمد ابن عبد الملك بن أحمد المستعين في مرسية سنة ٥٤٠ هـ .

---

(١) راجع : ابن بسام ، قسم ١ ، مجلد ٢ ، ص ٢٢٨ — المقري ، ج ٤ ص ٢٤٦ — جنثالث بالنثيا ص ١١١ . وذكر ابن بسام أنه اصطبح يوماً مع ندمائه ، وأظهر صبية مهدوية متصرفة في أنواع اللعب المطرب من الدك ، وحضر أيضاً لاعب مصري هنالك ، فارتجل ابن الحداد الشاعر يصف ذلك :

وأسمَعْتَنا لاحناً فاتناً   وأحْضَرتَنا لاعبا ساحرا

يزفّنّ فوق رؤوس القنا   ن فتنظرُ ما يذهل الناظرا

ويخطفها ذيل سرباله   فتبصر طالعها غائرا

واللعب بالسيوف والدك نوع من الرقص اختصت به مدينة أبذة .

(٢) ابن الخطيب ، ص ١٩١ .

(٣) المقري ، ج ٦ ص ٢٢ ، ٢٣ .

وكانت أسرة بني النون أسرة مستنيرة رعى ملوكهـا الآداب ، وحموا الفنون ، وأرسوا بسرقسطة أسس حضارة زاهرة . ويتجلّى ميلهم إلى الغلو في التأنـــق والإسراف الجنوني في حشد الزخارف والتنميقات فيما تخلف من قصرهم الجعفرية ، الذي بناه أبو جعفر أحمـد المقتدر بالله ، وكان يسميه مجلس الذهب . وقد شهد هذا القصر مجالس أنس وصفها المؤرخون ، منها مجلس ضم المقتدر بالله وندماءه ومن بينهم الوزير اليهودي أبو الفضل بـن حسداي ، « فصدحت في ذلك اليوم الغواني ، وأفصحت المثالث والمثاني » [1] .

ولما أعرس المستعين بالله أحمد ببنت الوزير الكاتب أبي بكر بن عبـد العزيز ، وزير عبد العزيز بن عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر صاحب بلنسية ، احتفل أبوه المؤتمن قبل سنة ٤٧٨ التي تسجل تاريخ وفاته ، بهـذه المناسبة « احتفالا شهره وأبدع فيه إبداعاً راق من حضره وبهره ، فإنـــه أحضر فيه من الآلات المبتدعة ، والأدوات المخترعة ، فأبهر الألباب ، وقطع بذكائه دون معرفتها الأسباب [2] » . وكان المستعـــين بالله يختص وزيره أبا الفضل بن حسداي بصحبته [3]، فركب يوماً نهر سرقسطة ، مستهدفاً ارتياد نزهه وافتقاد أحد حصونه المنتظمة بحوزته ، وقد أحضر المستعين من آلات إيناسه ، والزوارق قد حفت به ، والتفت بجوانبه ، « ونغمات الأوتار تحبس السائر عن عدوه ، وتخرس الطائر المفصح بشدوه » [4] .

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ١٦٦ .

(٢) نفسه ، ص ١٦٦ .

(٣) هو أبو الفضل حسداي بن يوسف بن حسداي ، من أهل سرقسطة ، نال حظاً جزيلاً من صناعة الشعر والبلاغة ، وبرع في علم العدد والهندسة والنجوم ، وفهم صناعة الموسيقى وحاول عملها ، وأتقن علم المنطق ، وكان له نظر في الطب (ابن أبي أصيبعة ، طبـــقات الأطباء ، ص ٤٩٩) .

(٤) المقري ، ج ٢ ص ١٦٧ .

ودعا المستعين بالله ذات ليلة ابن السيد البطليوسي [1] إلى مجلس قد احتشد فيه الأنس والطرب والشراب [2]. وذكروا أن أبا بكر محمد بن باجة التجيبي المعروف بابن الصائغ، وكان فيلسوفاً عظيماً، وموسيقياً بارعاً، ومؤلف موشحات، عاش في أيام أحمد بن يوسف بن هود الملقب بالمستعين بالله أحد أمراء بني هود المتأخرين [3]. ويذكر ابن خلدون أنه صاحب التلاحين المعروفة [4]، إذ كان يتقن صناعة الموسيقى ويجيد اللعب بالعود [5].

٦ — بلنسية

عرفت بلنسية في ظل بني عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر ازدهاراً في الفنون والآداب لم تشهده من قبل، وعرف أهلها بمرحهم وإقبالهم على الملاهي والاغاني، وفي ذلك يقول العذري: «وقد أطبعت مدينة بلنسية بقلة الهم، لا تكاد ترى فيها أحداً من جميع الطبقات إلا وهو قليل الهم، مليئاً كان أو فقيراً، وقد استعمل أكثر تجارها لأنفسهم أسباب الراحات والفرج، ولا تكاد تجد فيها من يستطيع على شيء من دنياه إلا وقد اتخذ عند نفسه مغنية وأكثر من ذلك، وإنما يتفاخر أهلها بكثرة الأغاني، ويقولون: عند فلان عودان وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك، وقد أخبرت

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن السيد النحوي (٤٤٤ — ٥٢١ هـ) ، كان كاتباً لعبد الله بن رزين صاحب السهلة ، ثم لجأ إلى طليطلة ، فبلنسية ، وانتهى به المطاف إلى سرقسطة (جنثالث بالنثيا ، ص ٣٣٤) .

(٢) المقري ، ج ٢ ص ١٧٠ .

(٣) جنثالث بالنثيا ، ص ١٢٢ .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١١٤٠ .

(٥) ابن أبي أصيبعة ، طبقات الأطباء ، ص ٥١٥ .

أن مغنية بلغت في بلنسية أكثر من ألف مثقال طيبة ، وأما دون الألف فكثيرات(١) .

وبلنسية مدينة سهلية خصبة ، تقع على ضفة الوادي الأبيض المعروف بوادي الأبيار ، ولهذا عرفت بلنسية بكثرة متنزهاتها وبساتينها ، ووفرة جداولها ونضرة خمائلها ، ولا شك أن طبيعة بلنسية كان لها أثرها في فن الأغاني والنغم ، حيث يقبل الناس على ارتياد مجالس الشراب بين الأدواح والخمائل ، والخضرة والجداول . ويكثر ابن خفاجة الشقري في شعره من وصف هـذه المجالس ، ومن أروع ما نظمه في ذلك قوله :

فيا ليت شعري هل لدهري عطفة ... فتجمع أوطاري عليّ وأوطاني
ميادين أوطاري ولذة لذتي ... ومنشأ تهيامي وملعب غزلاني
فسقيا لواديهم وإن كنت إنما ... أبيت لذكراه بغلة ظمآن
فكم يوم لهو قد أدرنا بأفقه ... نجوم كؤوس بين أقمار ندمان
وللقضب والأطيار ملهى [illegible] ... فما شئت من رقص على رجع ألحان
وبالخضرة الغراء [illegible] علقته ... [illegible] قضبان [illegible]
رقيق الحواشي [illegible] ... [illegible] القلوب . وآدابه ،
أغار لخدّيه على الورد كلما ... بدا ولعطفيه على أغصن البان
وهبني أجتني ورد خد بناظري ... فمن أين لي منه بتفاح لبنان(٢)

---

(١) العذري ، ص ١٨

(٢) المقري ، ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٤)

الموسيقى والغناء في الأندلس في عصر دولتي المرابطين والموحدين ودولة بني نصر بغرناطة

إذا كان يوسف بن تاشفين قد أبدى امتعاضه ، عند زيارته لإشبيلية ، من مشاهدة مظاهر الفخامة والأبهة والترف التي تسود المجتمع الأندلسي في ظل ملوك الطوائف ، والتي كان يؤمن بأنها السبب الحقيقي في حالة الضعف والتفكك التي أصابت دولة الاسلام في الأندلس أمام المد القشتالي ، وإذا كان هذا الشعور بالغيرة على الاسلام الأندلسي هو المحرك الرئيسي الذي دفعه إلى الاطاحة بملوك الأندلس الواحد إثر الآخر ، وربط الأندلس بالمغرب في وحدة وثيقة ، فإنه لم يلبث أن وقع هو وبنوه من بعده تحت إغراء هذه الحضارة الأندلسية الزاهرة وتأثير ثقافاتها المتطورة ، فاصطنع فحول شعراء الأندلس واستقدمهم إليه بالمغرب إلى حد أن حضرته بمراكش أشبهت حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، وتبدل بلاطه في أمد قصير من بلاط يتسم بالخشونة والبساطة إلى بلاط متأنق [1] . وأقبل المرابطون — على الأخص في عهد ابنه علي بن يوسف — على الترف ومظاهر الدنيا ، وأغرتهم هذه المظاهر على نبذ خشونتهم ، ولم يلبثوا إلا قليلاً حتى شغفوا بتذوق هذا الترف . وليس أدل على ذلك من قول الوزير أبي محمد عبد الرحمن بن مالك المعافري (ت ٥١٨) في مجلس أطربه سماعه ، وبسطه احتشاد الأنس فيه :

لا تلمني إذا طربت لشجو ... يبعث الأنس فالكريم طروب
ليس شق الجيوب حقاً علينا ... إنما الحق أن تشق القلوب[2]

---

(١) ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٤٧ .

(٢) المقري ، ج ٢ ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

وهذا أبو بكر ابراهيم بن تيفلويت عامل سرقسطة من قبل يوسف بن تاشفين يتخذ ابن باجة كاتباً له منذ اليوم الذي سيطر فيه المرابطون على هذه المدينة، فيلازمه ابن باجة حتى سنة ٥٠٩ هـ التي تسجل تاريخ وفاة ابن تيفلويت. ويروي ابن خلدون أن ابن باجة حضر مجلساً من مجالس مخدومه، فألقى على بعض قيناته موشحته التي أولها:

جرّر الذيل أيّما جر
وصِلِ الشكر منك بالشكر

فطرب الممدوح لذلك، فلما ختمها بقوله:

عقد الله راية النصر
لأمير العلا أبي بكر

وطرق ذلك التلحين سمع ابن تيفلويت، صاح: «واطرباه!!» وشق ثيابه، وقال: «ما أحسن ما بدأت، وما ختمت»، وحلف بالإيمان المغلظة لا يمشي ابن باجة إلى داره إلا على الذهب. فخاف الحكيم سوء العاقبة، فاحتال بأن جعل ذهباً في نعله ومشي عليه [1].

وبرع في فن الموسيقى في هذا العصر الموسيقى الأديب أبو الصلت أمية ابن عبد العزيز الداني الإشبيلي (ت ٥٢٣)، وكان متقناً لعلم الموسيقى، يجيد اللعب بالعود، وهو الذي لحّن الأغاني الإفريقية في عهد الأمير الصنهاجي يحيى بن المعز بن باديس [2].

وفي عصر دولة الموحدين تألقت إشبيلية من جديد، واستعادت مركزها

---

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ١١٤٠.

(٢) حسن حسني عبد الوهاب، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية، قسم ٢، تونس، ١٩٦٦، ص ٢٢٧ - ٢٢٩.

الذي كانت تتبوأه زمن بني عباد ، خاصة بعد أن اتخذها عبد المؤمن بن علي الموحدي قاعدة له في الأندلس ، وقلد ولايتها إلى ابنه أبي يعقوب يوسف الذي تأثر برقة الحياة في الأندلس ، وشارك في الحركة الأدبية والفنية ، وصحبه من فلاسفة الأندلس أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل الوادي آشي ، وأبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي ، ومن الأطباء الأدباء ، أبو بكر محمد بن أبي مروان بن زهر . أما ابنه أبو يعقوب فكان مولعاً بالفنون والبناء ، وحاط نفسه بترف لا مثيل له ، يعيد إلى الذاكرة أيام خلفاء بني أمية العظام بحاضرتهم قرطبة . وفي عهود هؤلاء ، ازدهر فن التوشيح والازجال والغناء والموسيقى، إلى حد الرؤساء أنفسهم كانوا يحرصون على سماع القيان المغنيات ، وغلب الغناء على المجتمع الأندلسي من جديد في ظل حكام يرعون الفنون ويشجعون أهلها بالبذل والعطاء . ويشير الشقندي في رسالته في فضائل الأندلس الى أن جميع «أدوات الطرب وشرب الخمر في وادي إشبيلية غير منكر لا ناهٍ عن ذلك ولا منتقدٍ ما لم يؤد السكرُ إلى شر وعربدة » [1] ، وهذا يفسر شيوع مجالس الطرب في إشبيلية عند الخاصة والعامة على السواء . ولا تخلو كتب الأدب والتاريخ التي تعرضت لدراسة هذه الحقبة من روايات تصور إقبال الناس فيهذا العصر على الخلاعة والطرب، فقد ذكر أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد أنه لما وصل أبوه الى إشبيلية « افتتن بواديها ، واعتكف على الخلاعة فيها ، مصعداً ومنحدراً بين بساتينه ومنازهه ، فمر ليلة بطريانة [2] ، فمال نحو منزه فيه طرب سمعه ... » [3] وذكر ابن سعيد أن الوزير أبا بكر بن سعيد استدعى بغرناطة الشاعر الهجاء المخزومي (توفي بعد ٥٤٠ هـ) إلى مجلس من مجالس الطرب ، بأن كتب اليه بهذه الأبيات يسترضيه ليكفيه هجوه :

---

(١) فضائل الأندلس ، ص ٥١ .
(٢) هي الربض القبلي من إشبيلية ويربطها به جسر يعلو نهر الوادي الكبير .
(٣) المقري ، ج ٥ ص ٣٢٤ .

يا ثانيــا للمعري في حسن نظم ونثر
وفَـرْط ظرف ونُبْل وَغوْص فهم وفكر
صِلْ ثم واصل حفيـا بكـل برد وشكر
وليس إلا حـــديث كما زهـــا عقـد درّ
وشادن يتغنـــى على ربـــاب وزمر
وما يسامح فيـه الـ غفور من كأس خمر

فحضر الشاعر الهجاء ، ولما استقر به المجلس ، وأفعمته روائح الند والعود والأزهار ، وهزّت عطفه الأوتار ، قال :

دار السعيدي ذي أم دار رضوان ما تشتهي النفس فيها حاضر داني
سقت أباريقها للنّد ُسحْبُ ندى تمـــدي برعدٍ لأوتار وعيدان
والـبرق من كل دن ساكب مطراً يحيي به مَيْت أفكار وأشجان
هــذا النعيم الذي كنـا نحدثــه ولا سبيـــل له إلا بـــآذان (١)

وذكروا أن أبا الحسين علي بن الحمارة من أهـل غرناطة كان ممن برع في الألحان وعلمها ، واشتهر عنه أنه كان يعمد إلى الأشجار فيقطع العود بيده ، ثم يصنع منه عوداً للغناء ، وينظم الشعر ويلحّنـــه ، ويغني به ، فيطرب سامعيه (٢) .

وروى ابن سعيد أنه اجتاز على قرية تارحة من قرى مالقة مع أ . ٍ أبي عمران موسى ، وقد أحدقت بها البساتين ، في وقت صباغـة الحرير ، فرأى القوم قد ضربوا في بطن الوادي بين مقطعاتـه خيما ، وأخذ بعضهـم يغني ويطرب (٣) . وكان أبو الحسين بن أبي جعفر الوزير الوقشي الطليطلي غاية في

(١) المقري ، ج ١ ، ص ١٧٨ .
(٢) نفس المرجع ، ج ٥ ص ٢٧١ .
(٣) نفسه ، ج ١ ص ١٦٧ .

الظرف ، وكان بارعاً في الموسيقى والغناء ، إذ تلقى هذا الفن علي أبي الحسين ابن الحسن بن الحاسب شيخ هذه الطريقة ، فرزق أبو الحسين بن أبي جعفر فيها ذوقاً مع صوت بديع . ويذكر أبو عمران موسي بن سعيد المغربي أنه سعى إلى الاتصال به ، إلى أن حضر عنده وجلس بين يديه ، فرحب به الوزير ، « ثم قام إلى خزانة ، فأخرج منها عود غناء يطرب دون أن تجس أوتاره ، وتلحن أشعاره ، واندفع يغني دون أن أسأله ذلك ولا أتجشم تكليفه الدخول في تلك المسالك :

وما زلت أرجو في الزمان لقاءكم فقد يسّر الرحمن ما كنت أرتجي
فذكركم ما زلت أتلوه دائباً إذا ذكروا ما بين سلمى ومنعج

فلما فرغ من استهلاله وعمله قبّلت رأسه وقلت له : لا أدري علام أشكرك : هل تعجيلك بما لم تدَعْني أسألك في شأنه ، أم على ما تفردت بإحسانه ؟ فما هذا الصوت ؟ قال : « هذا نشيد خسرواني من تلحيني » [1] . وذكروا أيضاً أنه اخترع عوداً يعزف من تلقاء نفسه بلا ضرب [2] .

وكان عبد الوهاب بن الحسين الحاجب أعلم الناس بضرب العود واختلاف طرائقه وصناعة الألحان البديعة على أنغام مزمار بشارة الزامر [3] .

وإلى جانب هذا الإتجاه نحو الطرب والانتشاء بالأغاني وما يصحبها من ألحان ظهر علماء في فن الغناء والموسيقى في عصر الموحدين ، نخص بالذكر منهم يحيى الخدج المرسي الذي صنف كتاب « الأغاني الأندلسية » على منزع الأغاني لأبي الفرج [4] ، وأسلم مؤلف أخبار زرياب .

(١) المقري ، ج ٥ ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .
(٢) جنثالث بالنثيا ، ص ٥٥ .
(٣) المقري ، ج ١ ص ١٨٠ .
(٤) فضائل الأندلس ، ص ٢٧ .

ومنذ قيام دولة المرابطين أخذ عدد كبير من المغنين ينتقلون من الأندلس إلى إفريقية والمغرب ، نذكر منهم أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الداني الذي هاجر في سن الثلاثين إلى المهدية حيث نزل على أميرها يحيى بن تميم بن المعز ، فنال عنده حظوة ومنزلة جليلة [1] . وذكر ابن أبي أصيبعة « أنه كان أوحد في العلم الرياضي ، متقناً لعلم الموسيقى وعمله ، جيد اللعب بالعود » [2] ، ولا يخفي الصلة الوثيقة التي تربط بين علم الموسيقى والعلوم الرياضية بدليل أن عدداً من الفلاسفة والرياضيين كانوا علماء في الموسيقى أمثال الفيلسوف أبو نصر الفارابي مخترع الآلة الموسيقية المسماة القانون ومصنف كتاب الموسيقى الكبير وكتاب في إحصاء الإيقاع [3] ، والشيخ الأديب الحكيم أبو الحكم عبيد الله بن المظفر الباهلي الأندلسي الذي هاجر الى دمشق وكان يجمع بين الطب والموسيقى والغناء ، وكان يتقن الموسيقى ويلعب العود [4] ، وأبو زكريا يحيى البياسي الأندلسي الطبيب والرياضي ، وكان جيد اللعب بالعود ، وعمل الأرغن وحاول اللعب به ، وكان يقرأ عليه علم الموسيقى [5] ، والفيلسوف الرياضي والموسيقي ابن باجة الذي سبق أن تحدثنا عنه .

وذكر أحمد التيفاشي القفصي في كتابه متعة الأسماع ، أنه استمع وهو بإفريقية (في أوائل القرن السابع) إلى مطرب أندلسي تغنى في شعر أبي تمام ، « فعددت له في هذا البيت أربعة وسبعين هزة » ، وأضاف « وهذا الغناء موقوف اليوم على إشبيلية من مدن الأندلس ، وبها عجائز محسنات يعلمن الغناء لجوار مملوكات لهن ومستأجرات عليهن ، يشترين من إشبيلية لسائر ملوك المغرب وإفريقية » [6] . وقد ورث الأندلسيون اليوم

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ١ طبعة مصر ١٩٤٨ ، ص ٢٢١ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٥٠١ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٠٨ .

(٤) نفسه ، ص ٦١٥ .

(٥) نفسه ، ص ٦٣٧ .

(٦) حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ .

هـذا النوع من الغناء الذي يسمونه « السيجيريّا » ، ويحتفظ المغرب العربي بتراث كبـير من فن الغناء والموسيقى الأندلسية ، ويشير ابن الخطيب في الاحاطة إلى أن الغناء شاع في غرناطة في زمن بني الأحمر ، فيقول : « والغناء بمدينتهم فاش حتى في الدكاكين التي تجمع كثيراً من الأحداث »[1] .

وكان أهل غرناطة أيام عيد العصير يقفون أياماً في حقول الكروم لجمع المحصول في جو يسوده المرح والرقص والغناء ، ويشير الدكتور مختار العبادي إلى أن العادة جرت على أن يحتفل الغرناطيون بأعيادهم بوسائل مختلفة أهمها الغناء والموسيقى والرقص . وقد حافظت مملكة غرناطة الصغيرة على التراث الموسيقي الأندلسي العريق ، وراحت تصدره إلى البلاد المغربية التي حافظت عليه بدورها حتى اليوم يؤكد ذلك أن الاستاذ حسن حسني عبـد الوهاب يذكر أن لونا من الغناء الشعبي التونسي في الوقت الحـاضر يعرف بلحن غرناطة .

ويشير ابن الخطيب الى أن الحشيش انتشر في غرناطة في القرن الثامن الهجري بين الخاصة والعامة ، وحل محل الخمر في المحافل ومجالس الطرب ، ويلوح بأن السلطان أبا سعيد البرميخو كان من مدمني الحشيش بدليل أنه كان يعرف مكامن الحشاشين في غرناطة ودل عليها صاحب الشرطـة[2] . أما الاحتفال بالأعياد والمناسبات الدينية فقد اتخذ في غرناطة مسحة دينية تختلف بطبيعة الحال عن مجالس اللهو والطرب والشراب التي عهدناها دائماً في الأندلس ، فكان يحتفل بها في المساجد والزوايا والرباطات وفي قصر الحمراء نفسه حيث كانت تقام الصلوات وتتلى الآيات البينات ، وينشد الشعراء القصائد المناسبة

---

(١) ابن الخطيب ، الاحاطة في أخبار غرناطة ، طبعة القاهرة ، ج ١ ص ٣٧ .

(٢) ابن الخطيب ، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ، تحقيق الدكتور أحمد مختـار العبادي ، ص ١٨٣ .

لمقتضى الحال الى جانب الأناشيد والموشحات الدينية وحلقات الذكر التي كان يصاحبها العزف على بعض المزامير المسماة بالشبابة أو البراعة [1] .

* * *

وكان المغنون والمغنيات ينشدون الشعر الغنائي الرقيق سواء كان موشحاً أو زجلاً أو شعراً كلاسيكياً على نغمات الموسيقى ، وتتألف الجوقة الموسيقية عادة من عواد وزامر في الناي ، وناقر على الدف أو ضـــارب بالصنج ، وتصحب هذه الآلات المغني أو المغنية حتى إذا ما وصل إلى الجزء الرابـع من كل بيت رددته معه البطانة [2] ، وهم جماعة المنشدين الذين يرددون مع المغني بعض المقاطع ويعرفون بالزمرة . وفي معظم الأحيان كانت الجوقـــة لا تعدو زامراً أو ضارباً على الدف أو على العود أو الرباب .

ولقد تعددت آلات الطرب في الأندلس في عصر الموحـــدين ، وذكر الشقندي أسماء الآلات التي تقتنيها إشبيلية وحدها فقال : « وقد سمعت ما في هذا البلد من أصنـــاف أدوات الطرب كالخيال ، والكريج ، والعود ، والروطة ، والرباب ، والقانون ، والمؤنس ، والكنيرة، والقتار ، والزلامي، والشقرة والنورة ، وهما مزماران : الواحد غليظ الصوت والآخر رقيقه ، والبوق . وإن كان جميع هذا موجوداً في غيرها من بلاد الأندلس فإنه فيها أكثر وأوجد، وليس في بر العدوة من هذا شيء إلا ما جلب اليه من الأندلس، وحسبهم الدف وأقوال والبرا وأبو قرون ودبدبـــة السودان وحماقـة البربر » [3] . أما ابن خلدون فيذكر أسماء الآلات الموسيقية المعروفـة في

---

(١) مختار العبادي ، الأعياد في مملكة غرناطة ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد ١٥ ، مدريد ١٩٧٠ ص ١٤٧ .

(٢) ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٨٢ .

(٣) فضائل الأندلس ، ص ٥٢ .

المغرب في عصره : فمن آلات الزمر : الشبابة ، وهي قصبة جوفاء مزودة بأنجاش معدودة في جوانبها ، وينفخ فيها فتصوّت، ويخرج الصوت من جوفها على سدادة من تلك الانجاش ، ويقطع الصوت بوضع أصابع اليدين على الأنجاش المذكورة وضعاً متعارفاً حتى تحدث النسب بين الأصوات فيه فيلتذ السمع بإدراكها . ومنها الزلامي ، وهو من نفس نوع الآلة السابقة ، ومنها البوق النحاسي المجوف . أما الآلات الوترية فيذكر أنها كلها جوفاء ، وأن منها ما كان على شكل قطعة من الكرة مثل البربط والرباب أو على شكل مربع كالقانون [١] . والآلات الوترية جميعاً تشد أوتارها على سطحها من جانبيها إلى دسر (مفاتيح) جائلة حتى يتمكن الموسيقي من شد الأوتار وإرخائها حسب ما يقتضيه اللحن وذلك عن طريق إدارتها ، ثم تقرع الأوتار بمضراب من الخشب أو من قوادم النسر أو « بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر عليها بعد أن يطلي بالشمع والكندر ، ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في إمراره أو نقله من وتر إلى وتر ، واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الأوتار توقع بأصابعها على أطراف الأوتار ، فيما يقرع أو يحك الوتر ، فتحدث الأصوات متناسبة ملذوذة » [٢] .

وبالاضافة الى الآلات الموسيقية سالفة الذكر كانت هناك آلات أخرى للقرع مثل الدفوف والأقوال وهي أنواع من الطبول ، ومنها الطسوت التي تقرع بالقضبان [٣] .

وقد انتقلت أسماء كثير من هذه الآلات الموسيقية الأندلسية إلى اللغة القشتالية مثل :

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ٧٥٨ ، ٧٥٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٧٥٩ .

(٣) نفسه ، ص ٧٦٠ .

العود Alàud – الطنبور Tambore – الدف Adufe –
الطبل Atabale – البوق Alboque – القيتار Guitarra –
الكريج Carrizo – الروطة Rota – الكنيرة Citara –
الرباب Rabel .

ومن اللغة القشتالية انتقلت إلى اللغات الانجليزية والفرنسية والإيطاليـة وغيرها مثل العود Lute (بالانجليزية) ، وقيتــار Guitar (بالانجليزية) وطبل Tambour (بالفرنسية) .

ملحق (١)

احتفال المأمون بن ذي النون باعذار حفيده يحيى
بقصر الناعورة بطليطلة

« قال ابن حيان : كتب إليّ الأديب ابن جابر ، قال : احتفل المأمون ابن ذي النون في مدعاة إعذار حفيده يحيى ، فحشد أمراء البلاد ، وجملة الوزراء والقواد ، فأقبلوا إليها كالقطا القارب أرسالا ، وقد رسم لخدمته في توسيع مشارب هذا الإعذار ، وإرغاد موائده ، وتكميل وظائفه ، وإذكاء مطابخه ، رسوماً انتهوا فيها إلى حدّه ، وشقّق عليها جيوب أكياسه ، وأمر بالاستكثار من الطهاة والإتآق للقدور ، والإتراع للجفان ، والصلة لأيام الطعام ، والمشاكلة بين مقادير الأخباز والآدام ، والإغراب في صنعة ألوانها مع شياب أباريقها بالطيوب الزكية ، والقِران فيها بين الأضداد المخالفة ما بين حار وبارد ، وحلو وحامض ؛ والمماثلة بين رائق أشخاصها وبين ما تودَعُ فيه من نفائس صحافها ، والاستكثار لها من أنواع الحلواء المجبّرة للمِعَد من داء الإتخام ، وتجاوز عسليّها إلى السكر . فجاءوا في ذلك كله بأمرٍ كُبار أبيدت لمطابخه أمم من الأنعام ، جمع فيه بين المشّاء والطيّار والعوّام . وانتسفت لمخابزه أهراءٌ من الطعام ، وأنفقت على مجامره ومعاطره جُمَلٌ من الأموال الجسام ، فاغتدى ختاماً لمداعي أهل الإسلام العظام .

وشرّف المأمون بالاشتراك مع تطهير حفيده يحيى صبياناً من بني أصحابه ،

وبدأ بحفيده قبلهم ، فكان أسكن من حُنيف معه جأشا ، وأقلهم زمَعا ، وإنه مشى - زعموا - إلى الحديد مَشْيَ البطل النجيد ، ومكّن الخاتن من عضوه ، فأعانه على إحكام صُنْعه ، وسوّى ختانه ، وخفف آلامه ، وأوشك إقرافه ، فخلص من محنته هذه الشرعيّة ، خلوص صادر السهام المُصمِي للرميّة ، فسُر ابن ذي النون وشام برْقَ الأمنيّة . فعند ذلك أذكى نيرانه ، وأنضج أطعمته ونصب موائده ، ودعا الجَفَلى إليها ، ولم يُفسحْ لأحد عنها . فاكتملت الأطعمة ، وفتحت الأبواب ، وسُهّل الحجاب ، ورُفعت الستور ، وجُليت المقاصير ، وزُيّنت القصور ، وأقيمت المراتب ، ووكّل بكل قسم منها كبيرٌ من وُجوه الخَدَمة ضُمّ إليه فريقٌ من الأعوان والوَزَعة ، يتصرفون بأمره ، ويقفون عند حدّه . قد أخذوا بخفض الأصوات مع سرعة الحركات وحث الأقدام ، فصار من بديع ذلك الصّنيع الفخم أن لم يعلُ فيه صوت ، ولا تشكّى منه فوْت ، فطال العجب من استوائه في مثل ذلك المشهد .

قال ابن حيان ، ولما بَكَرتْ أفواجُ عِلْية الناس إلى باب القصر مستَبقين ، وغَشِيَتْهُ زُمَرُهم وزرافاتُهم مبتدِرين ، أنزلوا عن دوابهم عند باب المنصب الأول ، فأذن لهم بالدخول على مراتبهم ، فمشوْا . وقد حفّتهم سَرَاةُ الصّقْلب الخصيان ، وخواصُّ الحشم والغلمان ، فأجلسوا في الدار الأولى ذات الحائر [1] الريّان . فلما اكتملوا أدخلوا إلى المجلس الكبير ، فلما استقر فيه جمعُهم خرجت تسميةٌ من الأمير المأمون بإدخال القضاة والفقهاء ، والعدول ومن يَليهم من كبار الناس ، دعاهم لذلك ذو الوزارتين أبو الفرج ، فقاموا والسكينة عليهم ، يقدُمهم قاضي القضاة أبو زيد بن عيسى القرطبي ، فأدخلوا بتكريم على تُؤَدَةٍ ورفق ، وجيء بهم إلى الدار الكبرى الثانية ذات الساحة الواسعة الزاهرة ، ثم وصلوا إلى مجلسٍ قد فرش بالدّيباج

---

(١) البستان .

التُّسْتَري المرقوم بالذهب ، وسُدلت فوق حناياه ستورٌ من جنسه تكاد تلتمع الأبصار بصناعةِ ألوانها وإشراقِ عِقْيانها ، وقد جلس لهم الأمير المأمون في جانبٍ منه ، وحفيده في جانبٍ آخر ، فأكبَّ الناس عليه يُهنئونه ، ويلثمون أطرافَه ، ويتناغوْن فيما قد روَّوْا وابتدهوا ، وهو يشملهم بإقبال طَرْفهِ ، ويَعُمهم بإجمال ردّهِ ، فينثنون منه إلى حفيده يدعون له . ثم عُدِل بهم إلى مكان الأطعمة في المجلس الأول – على ذات اليسار من تلك الدار – الواسعِ القُطر الرحب الأبواب ، وقد فُرِشَ بالوطاء التُستَرى ، وعُلّقت على أبوابه وحناياه ستُورُ الطمع المُثَقَّلة ذاتُ الصُّوَر المُقيِّدة للألحاظ ، وقد مُدّت فيه صنوفُ الطعام . فأمعَنَت هذه الطائفة في الأكل ازدقاماً وسَرْطاً ، واختضاماً وقضماً ، وانتهالا وعلاً ، ووُصَفاء الموائد الحافُّون من حولهم يطردون الأذبّة عن مجلسهم بطوال المَذَابّ البديعة الصنعة ، المُقَمَّعَة الأطراف بفاخر الحلية . ولما مضى لهم صَدْرٌ من أكلهم ، نَجَم لهم الأمير المأمون قائماً فوق رؤوسهم ، متهمِّماً بشأنهم ، مبالغاً في تكريمهم ، قد حَفَّ به أذواءُ الوزارة وأهل الخدمة ، وأكابرُ الفتيان وأعاظم القواد قائمين بقيامه . ولما قضى وَطراً من القيام بمكارَمَتهم صَدَر راجعاً إلى مرتبته .

ولما فرغت تلك الطائفة جيء بهم إلى المجلس المرسوم لوُضوئهم ، وقد فرش أيضاً بوِطاء الوشْي المرقوم بالذهب ، وعُلّقَت فيه سُتُورٌ مُثَقَلَةٌ مماثلة ، فأخذوا مجالسهم منه ، وناولهم الوصفاء الطائفون بهم رفيع النُّقاوات والذرائرَ المطيّبات في الأقداح والأشناذدانات الفضيّات المحكمة الصناعات ، كادت تُغْنيهم بطيبها عن الغسْل . ثم أُدْنِيَ إليهم إثْر ذلك الوضوءُ في أباريق الفضّة المحكمة الصّنعة ، يصبُّون على أيديهم في طُسوسِ الفضة المماثلة لأباريقها في الحسن والجلالة ، فاستوعبوا الوضوء ، وأُدْنيت من أيديهم مناديلُ تتضاءلُ لها ما عليهم سَنِيّ الكُسوة . ثم نقلوا إلى مجلس التطييب أفخم تلك المجالس ، وهو المجلس المطل على النهر العالي البناء ، السامي السناء ، فشُرع

في تطييبهم في مجامر الفضة البديعة بفِلَق العود الهندي، المشوبة بقطع العنبر الفُستُقي ، بعد أن نُدّيت أعراض ثيابهم بشآبيب ماء الورد الجوري ، يُصَب فوق رؤوسهم من أواني الزجاج المجدود ، وقنّاشات البلور المحفورة ، ثم أُدنِيَ إليهم قوارير المها المحكمة الصنعة ، الرائقة الهيئة ، وقد أُترِعَت بالغوالي الذكيّة ، النّامّة بسرها قبل الخبرة ، المتخذة من خالص المسكِ التُّبّتِي ، ومحض العنبر المغربي ، لامم بينهما رشح البان البرمكي ، فتناولوا من ذلك حتى لأقطرت سِبَالَهم ذوباناً ، وأعادت شِيبَهم شبّاناً . فلما استتم هؤلاء الخَلّة نعيم يومهم ، من طعمهم وطيبهم ، أقيموا للدخول على المأمون ، فسلّموا عليه ، ودَعَوا له. فأقبل عليهم أحسن قبول ، وردّ أجمل ردّ ، وأمر بإدخالهم إلى سيّد مجالسه المسمى المُكرَم ، نتيج همته ، وبديع حكمته ، السائر خبرُه ، الطائر ذكرُه ، المعدوم (مثله) ، ليمتّعوا أبصارهم بالنُّزهة ، ولم يكن أكثرهم رآه إلى يومهم ذلك مع علُوّ وَصفه بخواطرهم ، فلما رأوه صَغُر عندهم ما كانوا يستكبرونه من وصفه ، ورجّعوا أبصارهم فيه ، ونبّه بعضهم بعضاً على دقائق معانيه » .

[من الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام
القسم الرابع من المجلد الأول ص ٩٩ — ١٠٢]

ملحق (٢)

وصف مجلس الأنس الذي أقامه المأمون بن ذي النون في قصره المعروف بالناعورة

« قال ابن حيـان : وذهب المأمون إلى تتميم تكريم زوّاره من رجـال الأمراء الذين استحضرهم يومئذ لشهود فرحتِه ، بمشاهدة مجلس خَلْوتـه ، وتنعيم أسماعهم بلذّاتِ أغانيه ، وقد علم أن فيهم من يُرَخّصُ في النبيذ ولا يسُوغ له نعيم دونه ، فاحتمل حرج ذلـك مُبالغة في تأنيسهم ، فاحتفل لهم في مجلسٍ قد نُضّد وأحضر فيـه جميـع آلات الأنس . فلما استوى بالقوم مجلسُهم ، واشرأبُّوا إلى الأخذ في شأنهم ، قرّب إليهم أطعمـةً طنوريّة ، جوامد وباردة ، وصنوفاً من المصوص والأشربة والطيـاهج ، موائد مُترعة اتخذوها بُسُطاً لنبيذهم . ثم انثنوا إلى الشراب ونفوسهم به صبّـة ، وقد مُدّت ستارةُ الغناء لأهل الحجاب ، ونُظّمت نوْبَةُ المغنّين زُمَراً ، فهاجوا الأطراب ، واستخفّوا الألباب ، ونقلوا الطباع فجاؤا بأمرٍ عُجاب ، بذّهم فيه سابقُ حلْبتهم ، المُحَسّدُ من جمـاعتهم ، الاسرائيـلي ذي ، الزائد إحسانُه على ابراهيم الموصـلي ، صديقُ إبليس ، الطريف من فتنته ، ومحاياه بالماحور في المكنون ، الذي اغتدى في باطله نسيج وحده ، يزدهي العيدان جسّه ، ويُخرِسُ الأطيارَ شجوُه ، قاتـله الله من آخذٍ بالقلوب ! فطربوا وطرب المأمون ليلتذ على وفور حلمه ، وكان الذي غنّـاه فيها ذي صوتاً

شجياً لحَّنه من خفيف الرمل ، مُطلَق بالخِنْصَر ، في مقطوعة نظمها عبد الله بن خليفة الملقب بالمصري ، وهي :

باكِرْ لبكْرِ الدَّنان إنّ هداءَ العروس في السَّحَر
واشرب عُقاراً تخال حُمرتها تحرق أيدي السقاة بالشرر
فإن يحيى أحيى بدولتــــه ما قد محاه تصرُّفُ القدَر
مَلْكٌ هو الدهر في عزيمته يطلُعُ فينـا بطلعة القمر

فطمح بابن ذي النون الإطراب ، حتى حنّ حنين النـاب ، وخلع لوقته عليه ثوباً من التُستُري الأخضر مُطرزاً بالذهب ، ووصله بمائتي دينار ذهباً، ثم فضّ الصلات والخلع في سائر الطبقات» .

[من الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام
القسم الرابع من المجلد الأول ، ص ١٠٤–١٠٦]

الفصل الثاني عشر

الفنون الصناعية

(١) فن صناعة التحف العاجية

(٢) فن صناعة التحف المعدنية

(٣) فن النقش على الخشب

(٤) فن صناعة التحف البلورية والزجاجية والخزفية

(٥) فن الحفر في الرخام

(٦) صناعة المنسوجات

الفنون الصناعية

ذكرنا فيما سبق[1] أن دار الصناعة بقرطبة كانت تقع شمالي القصر الخلافي، بسبب تسمية أحد بابيه من الجهة الشمالية بباب الصناعة، واستناداً إلى أن ابن عذارى يؤكد أن دار صناعة قرطبة بقصر قرطبة[2]. ويرجع الفضل في إنشاء هـــذه الدار إلى الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط، وذلك بعد الغارة النورمانية على سواحل الأندلس الجنوبية وإشبيلية في سنة ٢٢٩هـ — ٢٣٠[3]، فقد نبهت هذه الغارة الأمير الأموي إلى أمرين: الأول ضرورة تحصين إشبيلية — وكانت عورة — بسور مانع، والثاني إقامة دور لصناعة السفن. أما السور فقد تم إنشاؤه على يدي عبدالله بن سنان أحد الموالي الشاميين[4]، وأما دور الصناعة فقد تم إنشاء واحدة بإشبيلية[5]، وأنشئت أخرى بقرطبة[6]، وثالثة

---

(١) راجع الفصل السادس من الجزء الأول، ص ١٩٣ .

(٢) ابن عذارى، ج ٢ ص ٣٤٥ .

(٣) فيما يختص بهذه الغـــارة راجع : تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والأندلس، ص ١٥٢ — ١٦٢ .

(٤) ابن القوطية، ص ٦٥ — ابن حيان المقتبس، قطعة نشرهـــا الدكتور الحجي، ص ١٤٤ — ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ج ١ ص ٤٩ — الحميري، ص ٢١ .

(٥) ابن القوطية، ص ٦٧ .

(٦) ذكر ابن عذارى أن الأمير محمد بن عبد الرحمن أنشأ بقرطبة عدداً من المراكب لمهاجمة جليقية من البحر (ابن عذارى، ج ٢ ص ١٥٥) . ونستنتج من ذلك أن قرطبة زودت بدار لصناعة السفن، والظاهر أن هذه الدار أنشئت في عصر عبد الرحمن الأوسط .

بقرمونة [١] ، ورابعة بجزيرة شلطيش [٢] . وفي عصر عبـــد الرحمن الناصر أنشئت دور للصناعة في كثير منمدن الأندلس مثل المرية [٣] ، وطرطوشة[٤] والجزيرة[٥]، ولقنت[٦]، وقصر أبي دانس، ودانيه[٧]، والزهراء[٨]، وشنتمرية بالبرتغال [٩] .

ثم تحولت دار صناعة الأسطول بقرطبة – لبعدها عن الساحل – إلى دار لصناعة التحف المدنية والآلات ، بمعنى أن نشاط هذه الصناعة اقتصر على الصناعات المدنية . ويذكر المؤرخون أن عبد الرحمن الناصر أمر بصناعـة اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس في هذه الصناعة ، تمثل أسداً وغزالاً وتمساحاً وثعباناً وعقابـــاً وفيلاً وحمامة وشاهيناً وطاووساً ودجاجة وديكاً وحدأة ونسراً ، تمج جميعها المـاء من أفواهها [١٠]، وذلك لكي تنصب حول الحوض الرخامي الذي استحضره من القسطنطينية .

وكان من الطبيعي ألا تتمكن هذه الصناعـــة من إنتاج ما يفي بتزيين

---

(١) الحميري ، ص ١٥٩ .

(٢) الادريسي ، ١٧٩ .

(٣) كانت هذه الدار مخصصة لصناعة العدة والآلات اللازمة للسفن ومـا يقوم به الأسطول (ابن غالب ، ص ١٤) .

(٤) كانت تصنع فيها المراكب الكبار من خشب جبال طرطوشة الصنوبري الذي يمتاز بطوله وغلظه وصفاء بشرته ودسامته ، كما كانت تصنع منه القرى والصواري (الادريسي ص ١٩٠ — الحميري ، ص ١٢٤) .

(٥) الحميري ص ٧٣ .

(٦) كانت تنشأ فيها المراكب السفرية والحراريق (الادريسي ، ص ١٩٣) .

(٧) الادريسي ، ص ١٩٢ — الحميري ، ص ٧٦ .

(٨) كانت مخصصة لصناعة آلات السلاح (المقري ، ج ٢ ص ١١٢) .

(٩) الحميري ، ص ٧٦ .

(١٠) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٤٤ - المقري ، ج ٢ ص ١٠٤ .

منشآته ، خاصة بعد توسع في أعمال البناء والعمران في الزهراء ، لذلك اضطر إلى إنشاء دار ثانية لصناعة آلات السلاح للحرب والحلي والزينة وغير ذلك من التحف ، أنشأها في مدينة الزهراء [1] .

وقامت في قرطبة بالاضافة إلى هذه الصناعات ، صناعات أخرى للاستهلاك الداخلي أو للتجارة الخارجية كالنسيج وما يتعلق بصناعته ، والتحف الزجاجية والبلورية والخزفية ، والجلود [2] . وكان لكل طائفة حرفية أمين لها يسمى أحياناً العريف يتولى تمثيلها أمام المحتسب ، ويعتبر مسؤولاً أمام شيخ التجار عن كل إخلال داخل نطاق الطائفة التي ينتمي إليها بالقواعد المتفق عليها فيما يتعلق بالأمانة التجارية . وكان لكل طائفة حرفية أو صناعية مواضع للصناعة أو البيع خصصت بالنسبة لكل مدينة في بعض حومات تقع إما في قلب المدينة أو في الأطراف ، وإن كان معظمها يتجمع في السوق الممتد في نواحي المسجد الجامع . وكان السوق التجاري والصناعي بقرطبة بحوانيته العديدة يتألف من شبكة من الحارات الضيقة والدروب خصص كل منها لحرفة تحمل اسم أصحابها [3] ، ويتخلل هذه الحارات هنا وهناك ساحات صغيرة تسمى رحبات [4] . ومن المعروف أن التنظيم الحرفي كان يميز بين المعلم (شيخ الصنعة) ، والصانع المدرب ، والمتعلم (الصبي) ، وكان من حق شيخ الصنعة أن يستثمر أمواله الخاصة ، إلا أنه في معظم الأحيان كان يحدث أن يرتبط اثنان أو

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ١١٢ .

(٢) ذاعت شهرة قرطبة في صناعة الجلود وعمل الأقراق والنعال وجلود الكتب ونقشها ، إلى حد أن اسم قرطبة أصبح يطلق في اللغة الفرنسية على صانع الأحذية Cordonnier وذلك بسبب ما أصابته قرطبة في هذا المجال من شهرة عالمية .

(٣) كالحدادين والفخارين والسروجيين والرقاقين والصباغين والدباغة والطرازين والقراقين والحصارين .

(٤) Lévi - Provençal, Histoire de l'Espagne musulmane, t. III, p. 304 - 305

أكثر بعقد شركات لتوفـــير ما تحتاج إليه الطوائف الصناعية من عدد وآلات ثمينة .

وفيما يلي دراسة لأهم الصناعات الفنية التي اختصت بها قرطبة في العصر الاسلامي .

(١)

فن صناعة التحف العاجية

يتمثل فن النحت الأندلسي أروع تمثيل في التحف المصنوعة من العاج التي كانت تصنع خصيصاً (في دار الصناعة بالزهراء) لجاريات الخلفاء وزوجاتهم إما لحفظ العطور والعنبر والمسك ، أو لصيانة حليهن وأدوات الزينة . ولقد بدأت صناعـــة التحف العاجية بالأندلس ببداية التوسع الخلافي في المغرب الأقصى ، عندمـــا احتك الأندلسيون بسكان المناطق الداخلية في المغرب ، وكانت تجارة العاج من التجارات الرائجة التي يشتغل بهـا الغانيون والمغاربة ما بـين غانة والسودان في الجنوب وبلاد المغرب في الشمال . وتحتفظ معظم العلب التي تنسب إلى دار الصناعة بقرطبة أو مدينة الزهراء بأسماء من صنعت لهم وأسماء الصناع الذين قاموا بصناعتها ، و سم مدينة الزهراء ، مما يرفع من قيمة هذه التحف ويجعلها تحق من أصدق المصادر التي تعيننا على دراسة هذا الفن الصناعي وتطوره . وتتخذ هذه العلب شكلين مختلفين علب أسطوانية الشكل ذات غطاء مقبب ، وصناديق مستطيلة الشكل لها أغطية على شكل هرم ناقص أو مسطحة . ويقسمها الأستاذ خوسي فرانديس من حيث الزخرفة إلى ثلاثة أنواع : الأول يشتمل على زخرفة من التوريقات التي تختلط أحياناً برسوم حيوانات ، والثاني تنحصر زخارفه داخل جامات مستديرة أو مفصصة

تطوق رسوماً آدمية أو حيوانية محفورة ، وأحيانـاً تحصر مناظر للصيد أو مجالس طرب وشراب. والثالث نوع تمثله زخارف دقيقة لأشخاص أو حيوانات بين توريقات [١] .

ومن أروع أمثلة هذه الصناعة التي اختصت بها قرطبة والزهراء صندوقان من العاج صنعا في مدينة الزهراء بأمر الخليفة الحكم المستنصر في سنة ٣٥٥ للسيدة صبح أم هشام ولي عهده ، أحدهما محفوظ اليوم في متحف بلنسية دي دون خوان بمدريد ، والثاني في كنيسة فيترو بنبرة Navarre ، ويتميز هـذا الصندوق الأخير باحتفاظه باسم الصانع « خلف » [٢] .

وإلى هذا المصنع أيضاً يمكن أن ننسب علبة صنعت بمدينة الزهراء ، بأمر الحكم المستنصر لزوجته السيدة أم ولده عبد الرحمن على يدي دري الصغير الفتى الصقلبي في سنة ٣٥٣ ، محفوظة اليوم بمتحف جنوب كنسنجتون بلندن .
وتغطى جميـع جوانب الصندوقـين سالفي الذكر زخارف بارزة على أرضية ملساء داكنة اللون لا يتخللها أي فراغ على الإطلاق ، وإذا قارنا بين هذه الزخارف وبين الزخارف المعمارية المعاصرة لها لوجدنا أنها تفوقهـا في درجة الثراء والحشد الزخرفي . أما العلبة المحفوظة بلندن فهي تحفة رائعـة الجمال لا نظير لزخارفها وتوريقاتها [٣] .

وفي متحف الآثار بمدريد علبة أخرى من العاج صنعت في سنة ٣٥٣ أي في نفس العام الذي صنعت فيه علبة لندن ، لا تقل في ثرائهـا الزخرفي عن التحف السابقة . ومن عصر الحاجب عبد الملك بن المنصور محمد بن أبي عامر

---

(١) José Ferrandis, Marfiles arabes de Occidente, t. I, Madrid 1935

(٢) مرزوق ، الفنون الزخرفية في المغرب والأندلس ، ص ١٨٧ .

(٣) Torres Balbas, arte hispano musulman, p. 734

صندوق من العاج محفوظ في كاتدرائية بنبلونة ، صنع في مدينة الزهراء في سنة ٣٩٥ هـ على يد الفتى نمير بن محمد العامري ، واشترك في صناعته عاملان هما عبيدة وخير. وزخارف هذا الصندوق تتألف من جامات مفصصة تتضمن مناظر لحياة البلاط في قرطبة ، وأخرى تمثل مناظر صيد ومبارزات [١] .

ولما اشتعلت نيران الفتنة بقرطبة على أثر مصرع شنجول ، هاجم البربر قصور الزهراء ودمروها وأحرقوا مبانيها ومن جملتها دار الصناعة ، فتوقفت منذ ذلك الحين عن الانتاج . ويغلب على الظن أن صناع قرطبة هاجروا إلى بلاط المأمون بن ذي النون ملك طليطلة حيث غمرهم بفيض من رعايته ، وشجعهم على الاستقرار في ظل كرمه بمدينة قونكة إحدى مدن مملكة طليطلة في عصر الطوائف . ونستنتج من إنتاج دار الصناعة بقونكة أن صناديقها غنية بالزخارف ولكنها فقيرة في مادتها لعدم توافر العاج ، فلم يكن من السهل الحصول على كميات من العاج من المغرب بعد سقوط الخلافة ، وهكذا أصبح استخدام العاج وقفاً على كسوة رقيقة تنفذ فيها الزخارف بحيث تمكننا من رؤية أرضيتها الخشبية [٢]

(٢)

فن صناعة التحف المعدنية

ذكرنا فيما سبق أن قرطبة اختصت بصناعة آلات الحرب والتحف المعدنية كالتماثيل والقدور والطسوت والأقداح والأباريق والطسوس والمباخر والجامر

---

(١) مرزوق ، المرجع السابق ، ص ١٨٧ .

(٢) عبد العزيز سالم ، الفنون والصناعات بالأندلس ، كتاب الشعب رقم ٦٤ ، ص ١٨٣ .

والثريات ، هذا بالاضافة إلى شهرتها في صياغة الحلى من أقراط وأساور وعقود، على غرار التحف المشرقية البغدادية . وفيما يلي تقسيم لأنواع الصناعات المعدنية التي اشتهرت قرطبة بعملها .

أ - صناعة الآلات الحديدية

ذكر الادريسي أن بجبال حصن قسطيبه الجديد « معادن الحديد الطيب المتفق على طيبه ، وكثرته ، ومنه يتجهز به إلى جميع أقطار الأندلس» [١] ، كذلك يكثر الحديد في الأندلس بعريش الواقعة بالقرب من قرطبة [٢] ، وفي غرناطة [٣] ، بينما يتوافر كل من معدني الحديد والنحـــاس في المرية [٤] وطليطلة [٥] . وقد استخدم الحديد في صناعة آلات السفن كالمراسي والمسامير، وفي صناعة العدد وآلات الحدادة كالمزاليـــج والمفصلات . وكانت قرطبة مركزاً هاماً لصناعة الآلات والعدد الحديدية خاصة ما يتعلق منهـا بأعمال البناء ، وقد عثر في حفائر الزهراء على قطع عديدة من الأدوات الحديدية من مزاليج ومفصلات ثبتت بها مسامير كـبيرة للأبواب قد تأكسدت وتآكلت بفعل الصدأ وكانت هذه المزاليج والمفصلات تزيد من وثاقة مصاريـــع الأبواب . وتتسم المسامير المذكورة بفلطحـة رؤوسها وتضليعهـا واتخاذها أشكالاً نجمية [٦] .

---

(١) الادريسي ، ص ٢٠٧ .

(٢) ابن غالب ، ص ٢١ الحميري ، ص ١٤٣ .

(٣) ابن الخطيب ، الاحاطة ، تحقيق عبدالله عنان ، ج ١ ص ١٠٤ ، القاهرة ١٩٦٦ .

(٤) الادريسي ، ص ١٩٧ - الحميري ، ص ١٨٤

(٥) الادريسي ، ص ١٨٨ الحميري ، ص ١٣٣

(٦) Torres Balbas. Arte H M p 745

ب - التحف المصنوعة من النحاس والصفر والبرنز

يذكر الشريف الإدريسي أن بالمخزن الواقع إلى شمال محراب جامع قرطبة « عدد وطسوت ذهب ، وحسك ، وكلها لوقيد الشمع »[1] ، ونقل المقري نصاً عن أحد المؤرخين جاء فيه أن « في الجامع حاصل كبير ملآن من آنية الذهب والفضة لأجل وقوده »[2] ، وأغلب الظن أن هذه الطسوت والآنية صنعت من النحاس في دار الصناعة بقرطبة . أما أبواب المسجد ، فيذكر الإدريسي أنها « مصفحة بصفائح النحاس وكواكب النحاس ، وفي كل باب منها حلقتان في نهاية الإتقان »[3] ، ويؤكد المقري أن هذه الأبواب كانت محرمة تخريماً عجيباً بديعاً يعجز البشر ويبهرهم[4] . ونعتقد أن هذه الأبواب كانت مكسوة بصفائح من البرنز على غرار مصراعي باب جامع إشبيلية الموحدي ، وأنها محرمة بخطوط متقاطعة تؤلف أشكالاً مسدسة تتناوب في وضع أفقي ورأسي ، وتتخللها أشكال نجمية بداخلها أشكال هندسية مثمنة . وقد عثر في حفائر الزهراء على قطعة من مصراع خشبي لأحد الأبواب مصفحة بالنحاس المذهب عليها آثار حرق

ونستدل على ازدهار صناعة التحف النحاسية في قرطبة من الأمثلة التي تم العثور عليها في هذه المدينة ، منها قدر من الصفر المذهب كروي الشكل ،محفوظ اليوم بمتحف الآثار الأهلي بمدريد ، وتزدان حافته من أعلى بشريط من الكتابة يتضمن كلمة «بركة» تتكرر حول فوهة القدر (أنظر الصورة). أما حافة القدر السفلى التي تعلو القاعدة فتزدان بإفريز زخرفي يشتمل على زخرفة من ساق نباتية متفرعة وممتدة حوله ، ويزدان بقية القدر بجامات متصلة بداخلها

---

(١) الادريسي ، ص ٢٠٩ .

(٢) المقري ، ج ٢ ص ٩٥ .

(٣) الادريسي ، ص ٢١٠ .

(٤) المقري ، ج ٢ ص ٩٥

رسوم حيوانات وطيور ، وجميع الزخارف والرسوم من النوع البارز [1] . وفي نفس المتحف قدح صغير للغاية لعله كان مخصصاً لحفظ الأدهان الطيبة والعنبر ، يزدان سطحه بدوائر متصلة تملؤها صور تمثل غزلانا بين توريقات[2].

كذلك عثر بأرضية أحد منازل قرطبة وعلى عمق ثلاثة أمتار على ١٣ تحفة من البرونز والنحاس الأصفر أهمها مبخرة يبلغ ارتفاعها ١٦ سم وقطرها ٩٫٥ سم ، نصفها الأدنى أسطواني الشكل يزدان بدوائر متصلة بداخلها رسوم حيوانية وطيور من النوع البارز المطروق ، وتقوم المبخرة على ثلاثة أرجل ، أما الغطاء فمنفوخ يتخذ شكل خوذة تتجاوز نصف الكرة ، ويزدان هذا الغطاء المقبب بزخارف مخرمة ومفرغة تمثل عقوداً ثلاثية الفصوص قائمة على عمد صغيرة ، وبداخل كل عقد طائران متدابران بينهما شجرة تتفرع منها أوراق لولبية . ومن هذه التحف أيضاً ثلاثة مجامر : اثنتان مسدستا الشكل من الصفر ، ومجمرة مكعبة الشكل من النحاس ، وزخارف هذه المجامر جميعاً من النوع البارز المطروق ، وأجملها مجمرة مسدسة الشكل تزدان بزخارف من التوريق والكتابات وصور تمثل غزالين متقابلين بينهما شجرة . والقسم العلوي من هذه المجمرة يزدان بشريطين من الزخارف المخرمة أعلاهما على شكل شرفات مسننة ، وأدناهما يتضمن كلمة « بركة » قد فرغ ما بين حروفها . وترتكز المجمرة على ستة أرجل مبرومة تنتهي بكرات . أما المجمرة مكعبة الشكل فإن حافتها العليا تنتهي على امتداد الارجل الأربعة بأربع حمامات ، وتكسو جوانب المجمرة زخارف هندسية ونباتية مفرغة . ومن بين التحف المذكورة إبريق من الصفر يبلغ ارتفاعه ٢٨ سم يشبه القلة ، يزدان بدنه بأشرطة تحتشد فيها زخارف نباتية وهندسية وجامات مستديرة ومفصصة بداخلها رسوم حيوانات ، ومنها أيضاً مهرس من البرنز (هاون) أسطواني

(١) Torres Balbas, op. cit. p. 760

(٢) Gomez Moreno, Ars Hispaniae, p. 336 ، والترجمة العربية ص ٣٩٢ .

الشكل تقريباً ، مزود بحلقة يعلق منها ، ويزدان هذا المهرس بزخارف بارزة مطروقة ، ومنها قنديل من الصفر له مقبض ومنقاران يتصلان بمستودع الزيت عن طريق فتحتين على شكل عقدين من خمسة فصوص ، وتغطيه من أعلى نجمة مثمنة الرؤوس ومخرمة . ويرجع الاستاذ توريس بلباس تاريخ هذه التحف جميعاً إلى نهاية عصر الخلافة بقرطبة [١] .

واشتهرت دار الصناعة بقرطبة في عصر الخلافة بإنتاج تماثيل برونزية لحيوانات وطيور كانت توضع حول البرك والأحواض ، تمج الماء من أفواهها ، فقد ذكر ابن بشكوال أن خلفاء بني أمية أجروا إلى قصر قرطبة المياه في قنوات الرصاص تؤديها من جبال قرطبة إلى أبنية القصر وساحاته « صور مختلفة الأشكال من الذهب الإبريز والفضة الخالصة والنحاس المموه إلى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة » [٢] . وفي موضع آخر يشير ابن بشكوال إلى القناة التي أجرى فيها عبد الرحمن الناصر المياه من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة على الحنايا إلى بركة نصب عليها « أسد عظيم الصورة ، بديع الصنعة ، شديد الروعة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صوّر الملوك في غابر الدهر ، مطلي بذهب إبريز ، وعيناه جوهرتان لهما وبيص شديد ، يجوز هذا الماء إلى عجز هذا الأسد فيمجه في تلك البركة من فيه ، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره ، وثجاجة صبّه ، فتسقي من مجاجه جنان هذا القصر » [٣] كذلك تشير مصادر التاريخ العربية إلى التماثيل البرونزية التي كانت تزين مجالس قصر الزهراء ، وأن عبد الرحمن الناصر نصب الحوض الصغير الأخضر الذي جلبه أحمد اليوناني وربيع الأسقف من القسطنطينية في مجلسه الشرقي المعروف

---

(١) Torres Balbas, Arte Hispano musulman, p. 762 - 764

(٢) المقري ، ج ٢ ص ١٢ .

(١) نفس المرجع ، ج ٢ ص ١٠٠ ، ١٠١ .

بالمؤنس ، وجعل عليه « اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي مما عمل بدار الصناعة بقرطبة : صورة أسد بجانبه غزال ، إلى جانبه تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفي الجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ، وكل هذا من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ، ويخرج الماء من أفواهها »[1] . وقد أثبتت الأيام صدق ما ذكره المؤرخون ، فقد أسفر الكشف الأثري عن أمثلة لهذه التماثيل ، أحدها عثر عليه في أطلال الزهراء ثم نقــــل إلى دير سان خيرونيمو القريب من موقع الزهراء ، ثم حمل بعد ذلك إلى متحف الآثار الأهلي بقرطبــة ، وهو عبارة عن وعل أو غزال مجرد من قرنيه ، ولعــل هذا الغزال أو الوعل هو الذي أشار إليه المقري عند وصفه للتماثيــــل المنصوبة في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ، ويبلغ ارتفاع هذا التمثال نحو ٤٠ سم ، ويقوم على قاعدة مستطيلة الشكل مجوفة من الداخل ، يتصل بها عند وسطهــا أنبوب من الرصاص يمد القاعدة بالمياه ، فتصعد في الأرجل ثم في الجسم المفرغ ، إلى أن تصــــل إلى الرأس وتنطلق بقوة من فيه . ويزدان الوعل بزخارف محزورة من دوائر أو حلقات متصلة ، بداخل كل منها ورقة من النبات[2] كذلك عثر في قرطبة على تمثال لوعل آخر من البرونز المذهب محفوظ اليوم في متحف الآثار بمدريد،

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٥ المقري ج ٢ ص ٤ .

ويصف ابن بسام أسماء أدوات معدنية كانت تستخدم إما لصب الماء عنـــد الوضوء كأباريق الفضة تسكب منها المياه في « طسوس الفضة » ، والأقداح والأشاندانات الفضيــــة أو لحرق البخور كالمجامر الفضية. والطسوس هي أحواض من اللاطون (Dozy, Suplément t. II, p 43) والاشانداناات آنيــة للطيب (Dozy, op. cit p. 25) . ويصف تماثيل الأسود المنتصبة على بحيرتي قصر الناعورة بطليطلة بقوله « بهذه الدار بحيرتان قـــد نصبت على أركانها صور أسود مصوغة من الذهب الإبريز أحكم صياغة، تتخيل لمتأملها كالحة الوجوه فاغرة الشدوق، ينساب من أفواههـــا نحو البحيرتين الماء هونا كرشيش القطر أو سحالة اللجين » (ابن بسام ، قسم ٤ ، مجلد ١ ص ٢٠٣ .

(٢) جومث مورينو الفن الإسلامي في إسبانيا ص ٤

يبلغ ارتفاعه ٣٢ سم، قد ضاع قرناه وأحد أذنيه، ويزدان هذا الوعل بزخرفة من دوائر بين سيقان متموجة على نحو أكثر تفننا وتنوعا من وعل الزهراء. إلا أن شكل وعل قرطبة يبدو غير متناسق لصغر أرجله وضياع أذنيه وقرنيه، وكان الماء يتخلله من أنبوب يتصل بوسط بطنه، إذ أن أرجله صماء [١].

وتنحو هذه التماثيل جميعاً نحو المذهب التجريدي الذي اتجه إليه الفنان المسلم عندما عمد إلى تجريدها من معاني الحياة، فحوّر في شكلها تحويراً أبعدها عن مظهرها الأصلي في الطبيعة [٢]. ومن التحف البرنزية التي عثر عليها في قرطبة قدر من البرنز سعته ١٣ سم، محفوظ اليوم بمتحف الآثار الأهلي بقرطبة، عثر عليه في آثار منية العامرية، يزدان في حافته العليا بنقش كتابي نصه: «الملك» تتكرر بين شريطين تحف بهما دوائر صغيرة بداخلها نقط.

ومن التحف المصنوعة من النحاس الصفر الثريات، وكان جامع قرطبة على حد قول ابن سعيد يشتمل على مائتين وثمانين ثريا من اللاطون (الصفر) عدد كؤوسها يبلغ سبعة آلاف وأربعمائة وخمساً وعشرين كأساً، وقيل عشرة آلاف وثمانمائة وخمس كؤوس، فيها أربع ثريات كبار معلقة في البلاط الأوسط، أكبرها الثريا الضخمة التي تتدلى في قبة المحراب، وكانت تحمل وحدها ألفاً وعشرين كأساً [٣]، وللأسف لم يتبق اليوم أي واحدة من هذه الثريات، ولعلها كانت تشبه الثريات البرنزية التي كانت ببيت الصلاة بجامع البيرة، وعددها ستة أكبرها ثريا على شكل طبق مستدير مخرّم في شكل هندسي جميل، ويتألف محيطها من فراغات مستديرة كانت توضع فيها

---

(١) جومث مورينو، ص ٤٠٠ – Torres Balbas, Arte Hispano musulman, p. 750

(٢) عبد العزيز سالم، القيم الجمالية في فن العمارة الإسلامية، بيروت ١٩٦٢، ص ١١.

(٣) المقري، ج ٢ ص ٨٩.

الكؤوس التي تضاء بالزيت، وكان هذا المحيط مزوداً بحلقات صغيرة تعلق منها السلاسل [1].

ج - التحف الفضية

يشير الإدريسي إلى توافر معدن الفضة في موضع يعرف بالمرج يقع على مقربة من فرنجولش [2] وحصن المدور الذي يعتبر من القرى المحيطة بقرطبة. ويذكر المقري أن بقرطبة يتوفر معدن الفضة [3]، ويؤكد في موضع آخر نقلاً عن ابن سعيد المغربي أن في جهة قرطبة الفضة والزئبق [4]. ويذكر البكري أن بإقليم كرتيش من عمل قرطبة معدن فضة جليل [5].

ولتوافر وجود الفضة في قرطبة استخدمت كصفائح رقيقة تكسو باب مقصورة جامع قرطبة، أو للترصيع بعض حشوات المنبر عوضاً عن المسامير، أو في صناعة بعض ثريات الجامع، أو لصناعة بعض التحف كالصناديق التي تحفظ فيها الحلى، أو القنينات المتخذة لحفظ العطور. ففيما يختص بباب المقصورة، يذكر المقري نقلاً عن صاحب كتاب مجموع المفترق أن مقصورة جامع قرطبة من الفضة المحضة [6] وأما فيما يتعلق بالمنبر، فإن ابن غالب يؤكد أن أوصال منبر جامع قرطبة من الفضة منبتة مسبلة [7]، ويذكر المقري

(١) جومث موريبو ، ص ٣٨٧

(٢) الادريسي ، ص ٢٠٧

(٣) المقري ، ج ٢ ص ٦١

(٤) المرجع السابق ، ج ١ ص ١٨٦

(٥) البكري جغرافية الأندلس وأوروبا تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجي ، بيروت ١٩٦٨ ص ١٢٩

(٦) المقري ، ج ٢ ص ٨٥ وذكر ابن غالب أن الباب الرئيسي للمقصورة كان من الذهب وعضادتاه من الأبنوس وحشواته من الفضة (ابن غالب ص ٢٩)

(٧) ابن غالب ص ٢٩

نقلاً عن ابن بشكوال أن وصلات المنبر سمرت بمسامير الذهب والفضة ، وفي بعضها نفيس الأحجار [1] . أما بالنسبة للثريات فقد روى المقري نقلاً عن ابن بشكوال أن ثريات الجامع موشاة بالذهب ما عدا ثلاثة ثريات من الفضة لعلها ثريات قباب المقصورة الثلاث [2]. أما استخدام الفضة في صناعة التحف فكان أمراً مألوفاً اختصت به قرطبة : فابن عذارى يذكر أن المنصور بن أبي عامر في أول أمره عمد الى استمالة السيدة صبح البشكنسية زوجة الحكم، « فصاغ لها قصراً من فضة وقت ولايته للوكالة والخزانة ، عمل فيـه مدة ، وأنفق فيه مالاً جسيماً فجاء بديعاً لم تر العيون أعجب منه » [3] .

ولقد وصلت إلينا لحسن الحظ أمثلة كثيرة من التحف الفضية من صناعة قرطبة في عصر الخلافة ، من بينها الصندوق المعروف بصندوق كاتدرائيـــة جرندة Gerona ، ولعله كان من جملة الأسلاب التي حملها معهم القطلانيون بعد دخولهم قرطبة في سنة ٤٠٠ هـ [4] . والصنـدوق المذكور من الخشب تكسوه صفائح من الفضة المزينة بالزخارف المطروقة ، وقاعدته مستطيـلة الشكل طولها ٣٩ سم وعرضهـا ٢٣ سم ، وغطاؤه على شكل هرم ناقص يتوسطه من أعلاه مقبض . وتزدان صفائح الفضة بزخارف من التوريقات النباتية رائعة التكوين من الطابع الخلافي تتخذ أغصانها الملتفة شكل زهرات. ويحتفظ الصندوق بمفصلتين منقوشتين بطريقة الطرق [5] ، ويحمل الصندوق

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ٨٩ .

(٢) نفس المرجع .

(٣) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٧٥ .

(٤) في سنة ٣٩٩ أخرج الخليفة هشام المؤيد ما في قصره من حلى ثمينة وذخائر وأواني فضية وذهبية واضطر الى بيعها (ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٠٢) . وفي سنة ٤٠٠ استعـــان المهدي محمد بن عبد الجبار بقومس برشلونه ريموند بورّيل الثالث وأخيه أرمنجول (في المصادر العربية أرمقند) فزوداه بتسعة آلاف من أجنادهما القطلانيين أعانوه على استرجاع قرطبة (راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ، ص ٨٦ وما يليها) .

(٥) Torres Balbas, op. cit. p. 764 – جومث مورينو، ص ٤٠٢ .

نقشاً كتابياً نستدل منه على أن الحكم هو الذي أمر بصنعه ، وأن ذلك تم على يد فتاة جؤذر ، وأن الصندوق خصص لابنه ووريثه هشام المؤيد ، والنص كما يلي : « بسم الله بركة من الله ويمن وسعادة وسرور دائم لعبد الله الحكم أمير المؤمنين ، المستنصر بالله مما أمر بعمله لأبي الوليد هشام ولي عهد المسلمين . تم على يد جؤذر فتاه » (١) .

وهناك ثلاثة صناديق فضية أخرى زخارفها النباتية ونقوشها الكتابية من نفس نوع زخارف ونقوش صندوق جرندة ، اثنان منها فقط يتخذان شكل قلبين يحفظان مخلفات القديس بلايو الذي استشهد في قرطبة في عصر عبدالرحمن الناصر ، تحتفظ بها اليوم كنيسة سان إيسيدرو بليون ، أما الصندوق الثالث فمستطيل الشكل يبلغ طوله ٨ سم وعرضه ٦ سم يحتفظ به متحف الآثار بمدريد . والظاهر أن هذه التحف الثلاث حملت من قرطبة في عهد فرناندو الأول (٢) .

وعثر في قرطبة كذلك على قنينة من الفضة لحفظ العطور مع قنينتين صغيرتي الحجم وبعض عملات أحدثها عهداً يرجع إلى سنة ٣٩٤ هـ . والقنينة الكبرى محفوظة اليوم بمتحف الآثار بقرطبة ، وهي مزودة بغطاء ذي سلسلة قصيرة ترتبط بدورها في حلقة مثبتة في بدن القنينة . ويزدان عنقها بزخرفة مطروقة بارزة قوامها عقود صغيرة متجاوزة تحتها إفريز من ورقة نباتية متكررة ، بينما يزدان بدن القنينة بجبل متماوج (٣) .

---

(١) Lévi - Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, Leiden, 1931 — Repertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe, t. V, le Caire 1934, p. 122

(٢) جومث مورينو ، ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٤٠٢ — Torres Balbas, op. cit. p. 764

د - الحــلى

في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط تدفقت على قرطبــة تحف وذخائر ونفيس الجواهر مما كانت تحتويه قصور بغداد ، وذلك على أثر مقتل الأمين ، مثل عقد الشبا أو الشفاء وأعلاق زبيدة بنت جعفر وأم الأمين [١] . وكان تجار الحلى والصاغة المشارقة يفدون إلى قرطبة لبيعها للأمراء والخلفــاء ، ويذكر ابن عذارى أن تاجراً من عدن قدم إلى قرطبــة زمن المنصور بن أبي عامر ومعه جوهر كثير وأحجار كريمة ، فاشتراها منه المنصور [٢] .

وإلى جانب هذه التحف والذخائر الشرقية التي كان لها سوق رائجـة في قرطبة ، كان الصاغة القرطبيون ، ومعظمهم يهود ، يشتغلون بصياغة الحلى في منطقة تعرف بالصاغة ، وكانت الحلى تشكل وتصاغ وفقاً للأساليب الفنية القوطية التي كان يحتفظ بها المعاهدة من النصارى أو الأساليب الشرقية وعلى الأخص الطراز العراقي [٣]. وكانت علب المصاغ العاجية عند نساء الخاصة من أهل قرطبة تمتلىء بالعقود المرصعة باليواقيت والفصوص، والخواتم ، والأقراط والاساور والدملج والخلاخيل والتيجان، والدلايات الذهبية المرصعة باليواقيت والزمرد ، وكان أمراء بني أمية لا يضنون على قيانهم ومحظياتهم وزوجاتهم بمثل هذه التحف من قبيل الإعـلان عن إعجابهم بهن . وكان عبد الرحمن الأوسط كلفا بجاريته طروب ، ويروي المؤرخون أنها غضبت منه يومــاً وأغلقت بابها دونه ، فأمر برصّ بِـبِدَر المال على بابها حتى سُدّ ، فلما فتحته تساقطت البدر عليها ، ثم أهداها حلياً قيمتها مائة الف دينار [٤] . وذكر

(١) ابن سعيد ، ج ١ ص ٤٦ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٦ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠ .

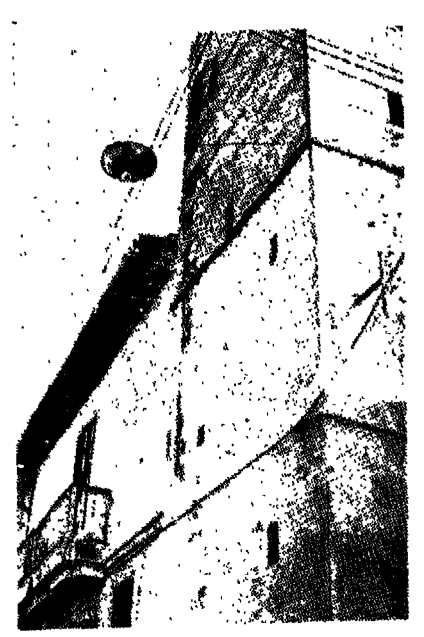
(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٤٣٥ .

(٣) Lévi - Provençal, Histoire de l'Espagne mus., t. III, p. 432

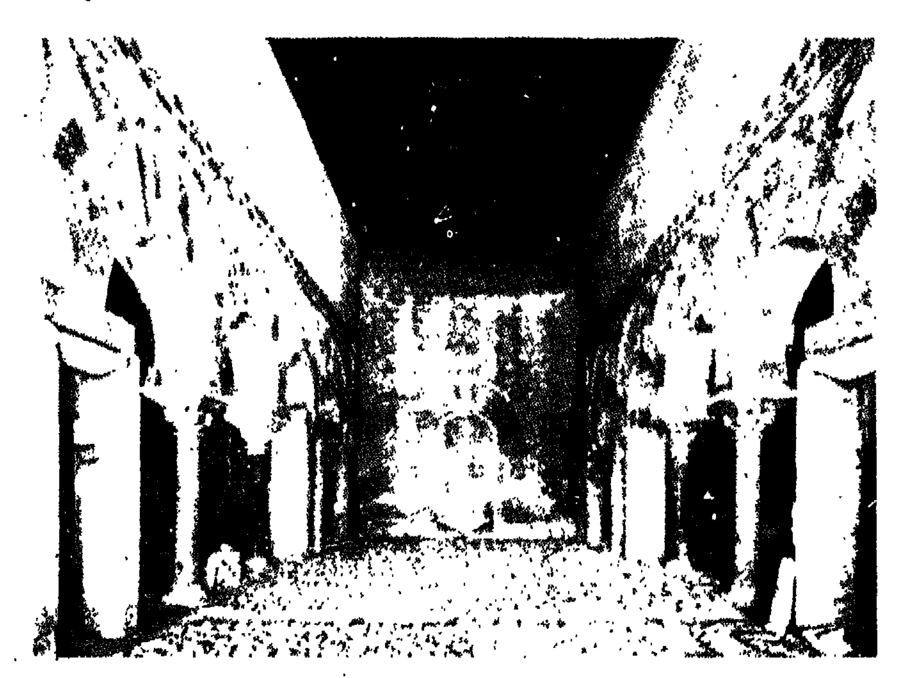
(٤) المقري ، ج ١ ص ٣٢٦ .



أ – مدخل كنيسة سانتا كلارا



ب – مئذنة المسجد الذي تحول الى
كنيسة سانتا كلارا بقرطبة



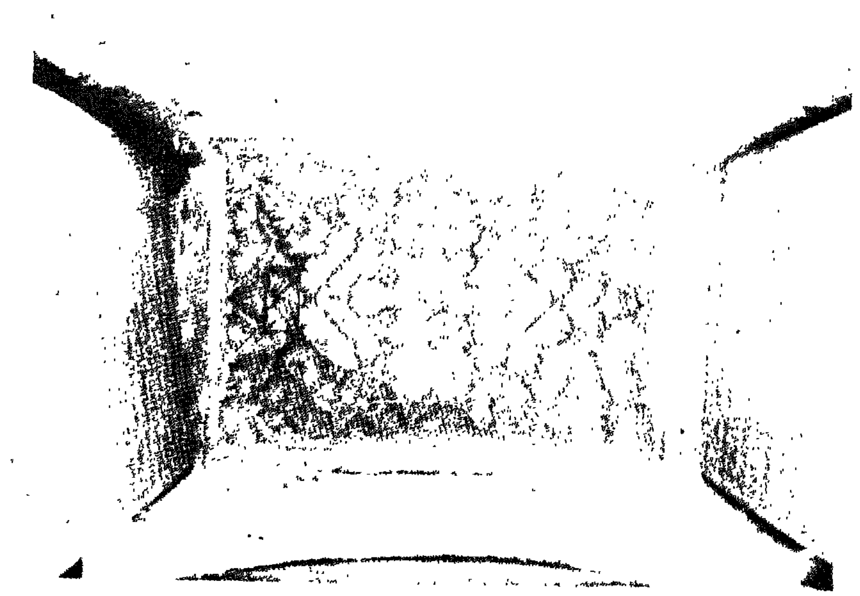
ج – مجلس الاستقبال بقصر الخليفة عبد الرحمن الناصر بمدينة الزهراء

لوحة (٢)

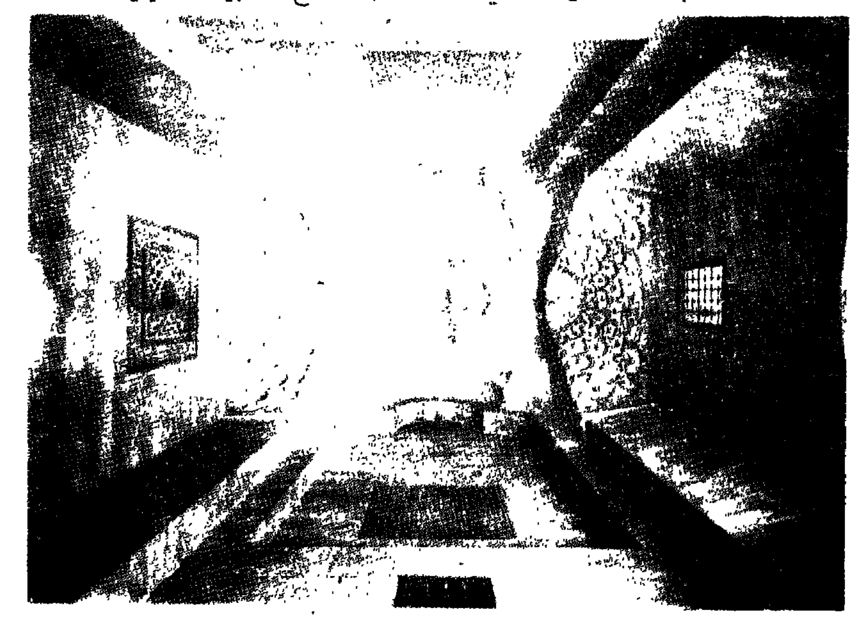


كنيسة سان ميجل دي اسكالادا بليون

لوحة (٣)

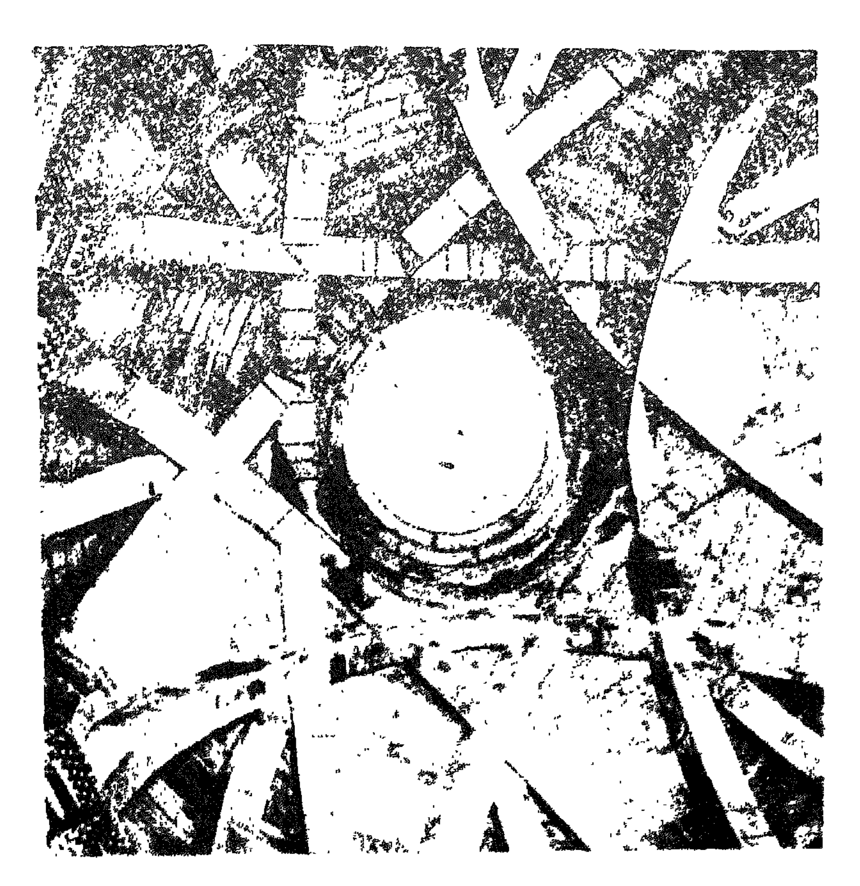


أ — قبوة المدخل الشرقي إلى صحن الجامع الكبير بإشبيلية

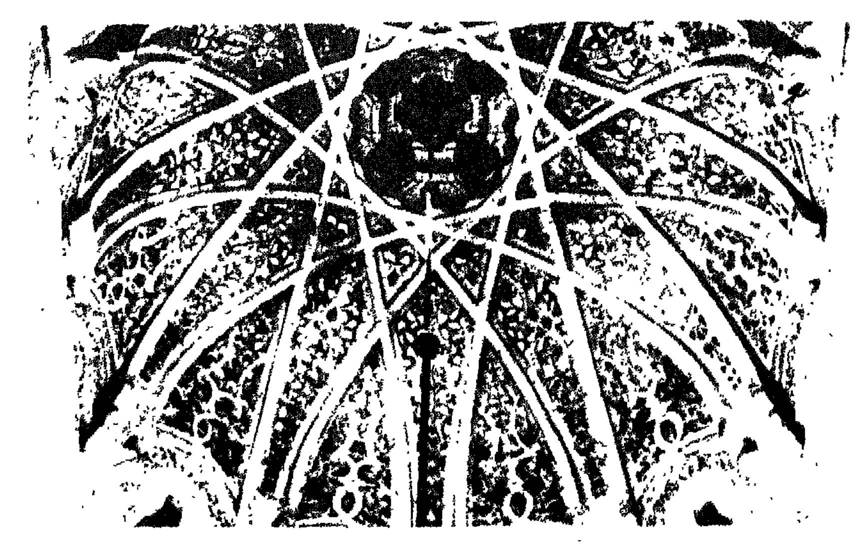


ب - قبوة مقربصة بجامع الجاي اليوسفي بالقاهرة

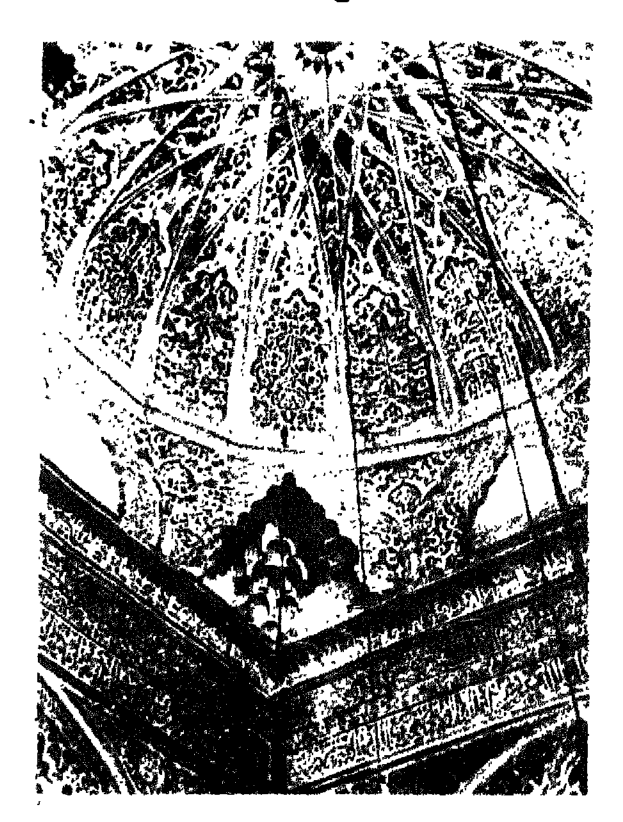
لوحة (٤)



قبوة كنيسة الضريح المقدس بتوريس دل ريو (نافار)



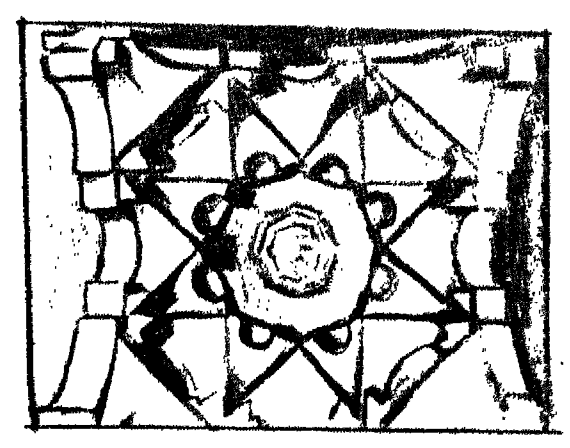
أ – قبة المحراب بالمسجد الجامع بتلمسان



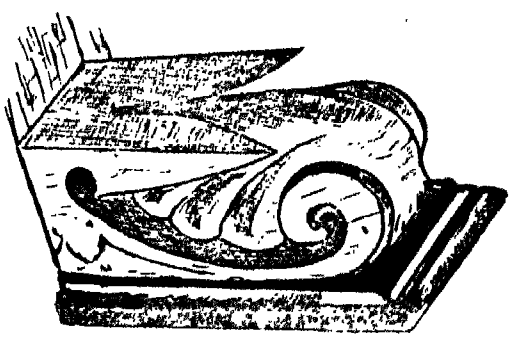
ب – قبة المحراب
بجامع تازي بالمغرب



أ – ركينة أندلسية من طليطلة مصنوعة من الخشب
يرتكز عليها السقف الخشبي بكنيس سانتا ماريا لابلانكا بطليطلة

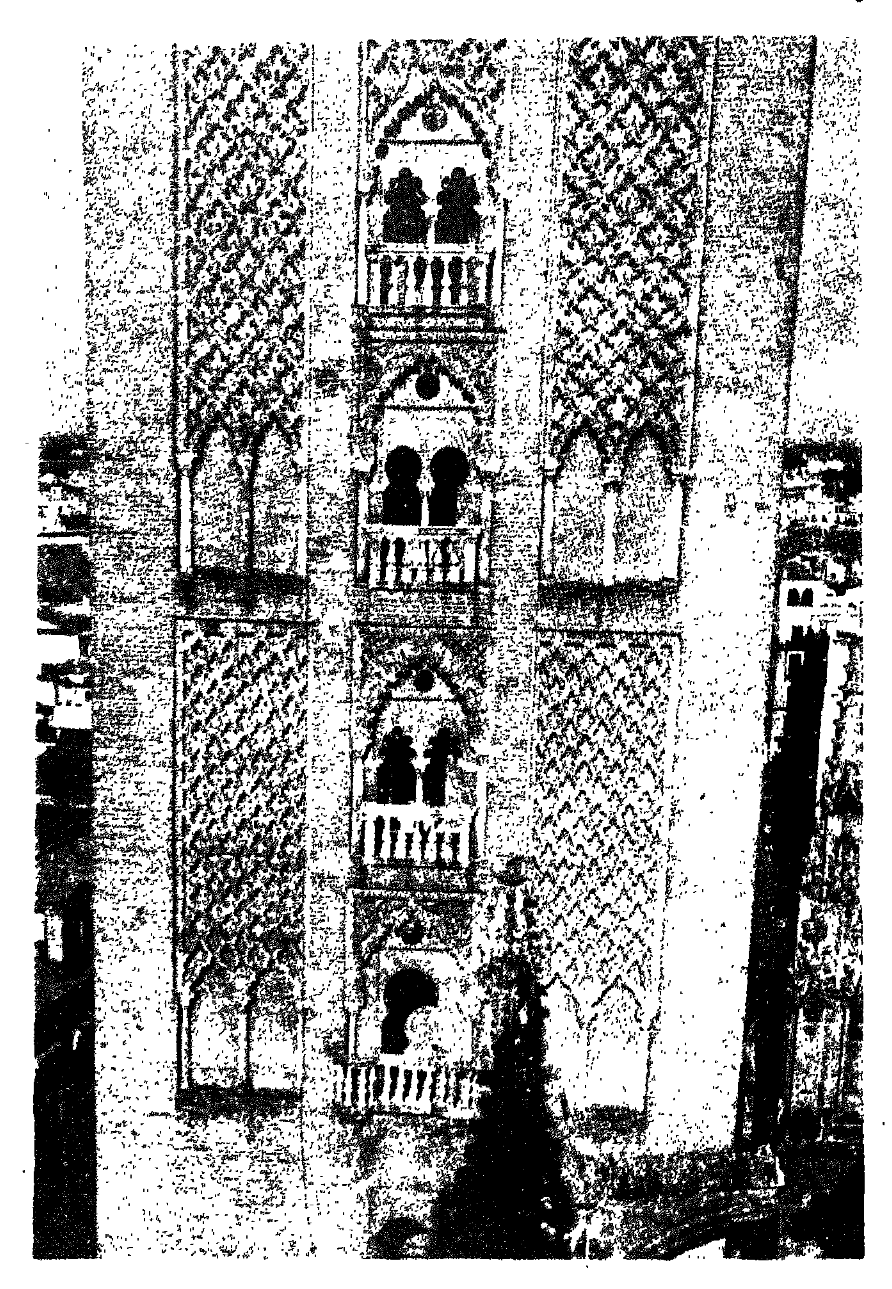


ب – قبوة مقربصة بدير
لاس إويلجاس
بمدينة برغش



ج – ركينة من الخشب بجامع
ابن طولون ويتضح
فيها الأثر الأندلسي

لوحة (٧)

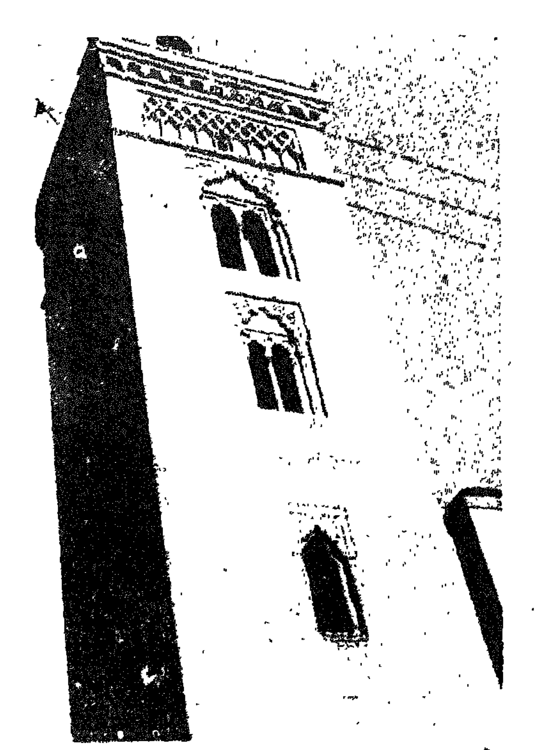


مئذنة جامع إشبيلية الكبير المعروفة بالخيرالدا

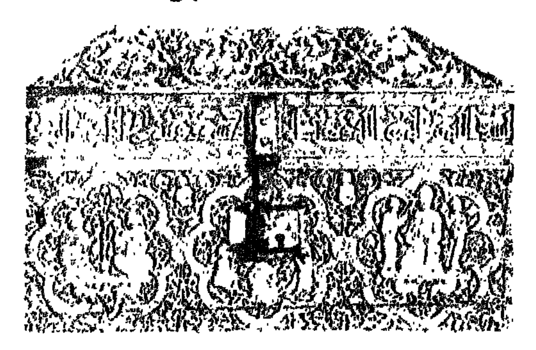
لوحة (٨)



مئذنة جامع الكتبية بمراكش

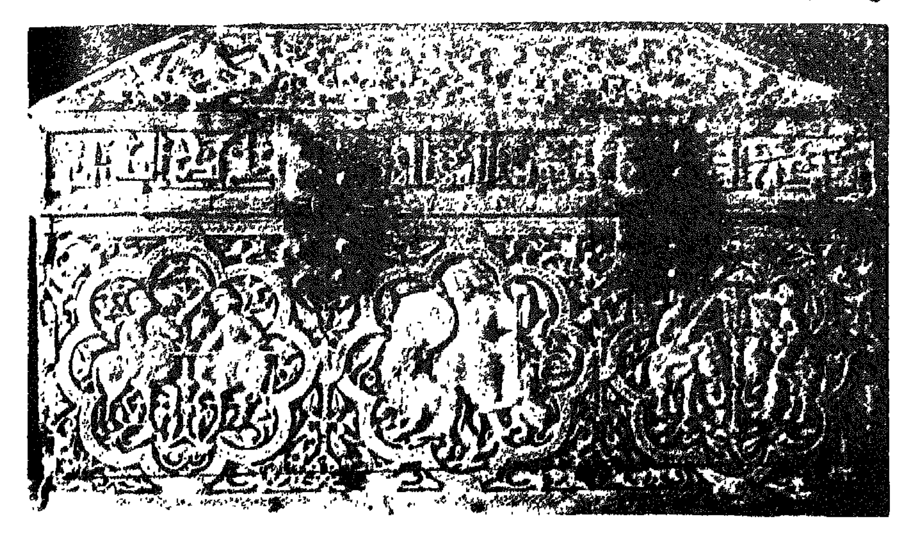


أ — برج كنيسة سان ماركوس بإشبيلية
من الطراز المدجن

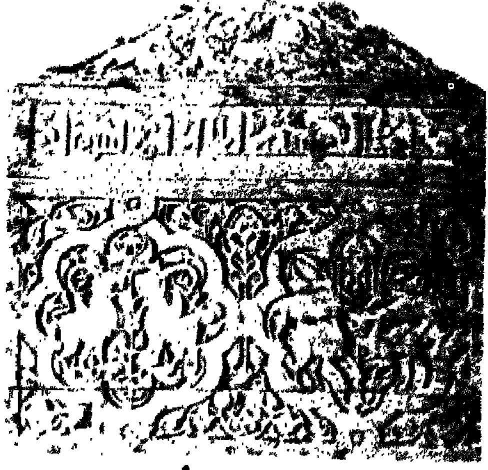


ب — صندوق كاتدرائية بنبلونة (الوجه)
نشاهد فيه مناظر تمثل مجلس من مجالس الطرب
وصورة الخليفة هشام في الجامة اليمنى

لوحة (١٠)



أ — صندوق من العاج محفوظ بكاتدرائية بنبلونه من صناعة قرطبة يحمل تاريخ سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٤ م)

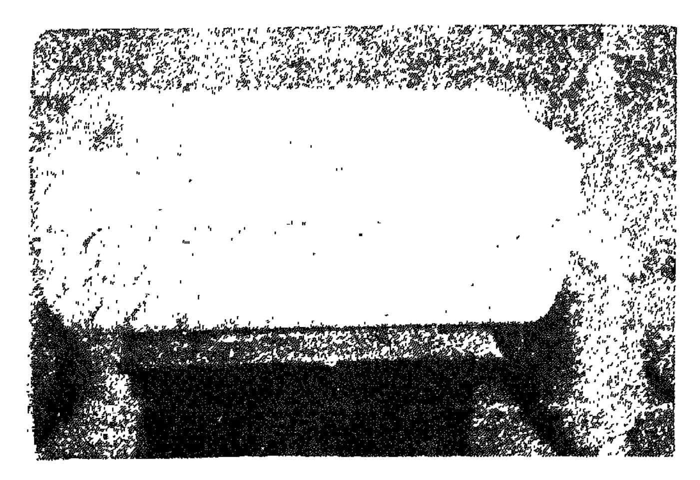


ب — النقوش المحفورة في أحد جوانب الصندوق العاجي المحفوظ بكاتدرائية بنبلونة

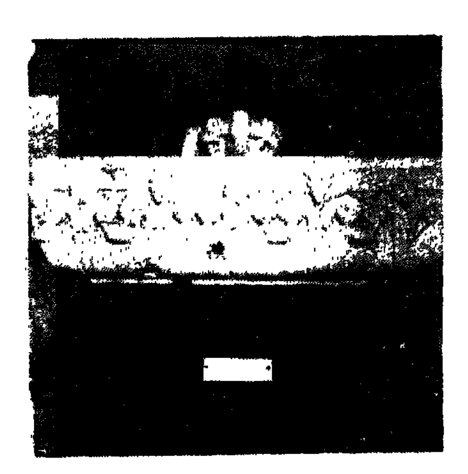


ج — علبة أسطوانية الشكل نقشت فيها صور تمثل أحـــد مجالس الطرب والغناء ، والعلبـة من صناعة قرطبة

لوحة (١١)



أ ــ حوض من الرخام من صناعة قرطبة

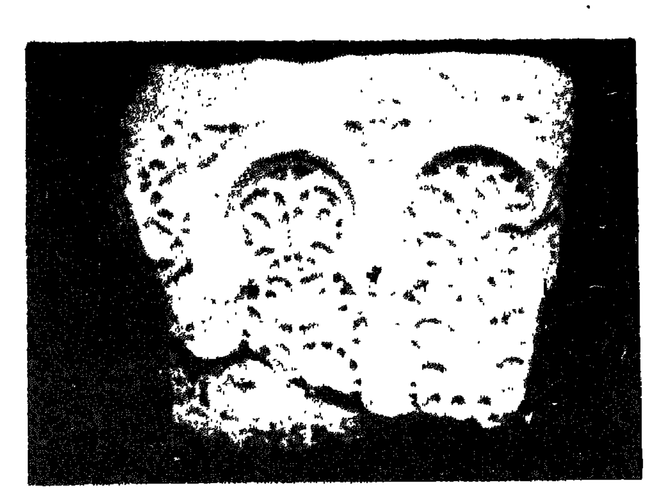


ب ــ حوض صغير من الرخام
من صناعة قرطبة

لوحه (١٢)

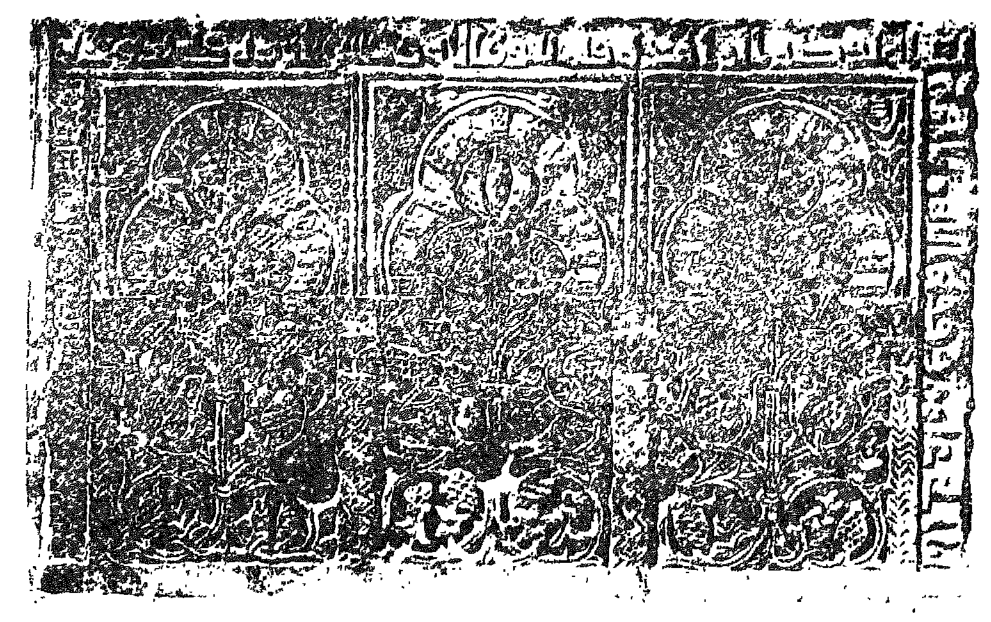


أ ـ تاج عمود من مدينة الزهراء أُعيد استخدامه
في قصر الموحدين بإشبيلية

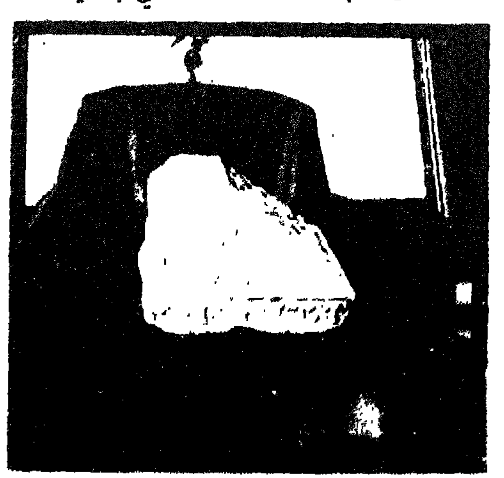


ب ـ زخارف من التوريقات تملأ عقدين توأمين
محفورين في لوحة من الرخام بقصر قرطبة

لوحة (١٣)

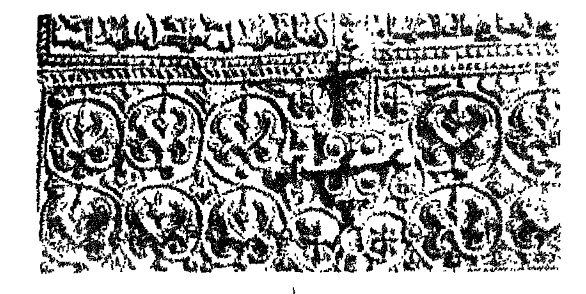


أ — حوض من الرخام من صناعة قرطبة كان يزين إحدى قاعات قصر الزاهرة
محفوظ بمتحف الآثار الأهلي بمدريد

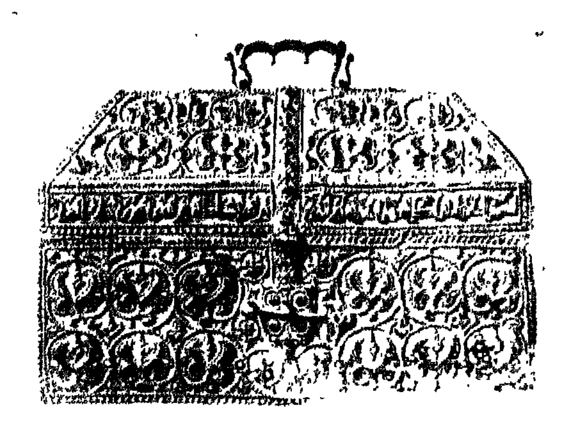


ب — قطعة من الرخام تزدان بزخارف نباتية
وهندسية وكتابية محفوظة بمتحف الآثار بقرطبة

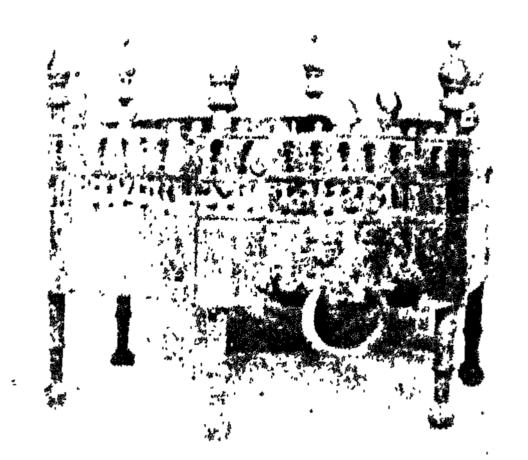
لوحة (١٤)



أ – تفصيلات زخرفية في الكسوة الفضية بصندوق كاتدرائية جرندة

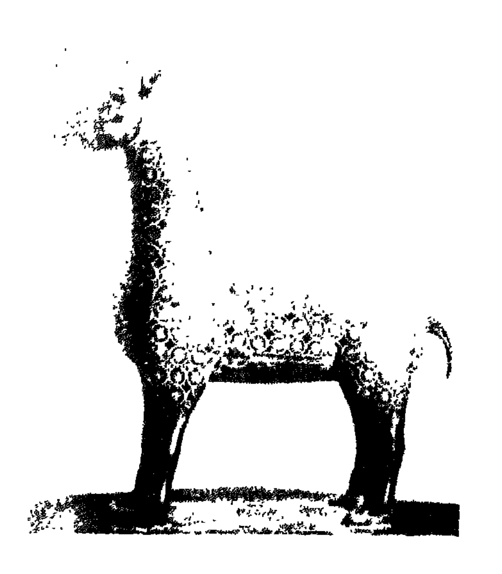


ب – صندوق من الخشب تكسوه صفائح من الفضة من صناعة قرطبة محفوظ اليوم في كاتدرائية جرندة



ج – مجمرة من الصفر من صناعة قرطبة

لوحة (١٥)

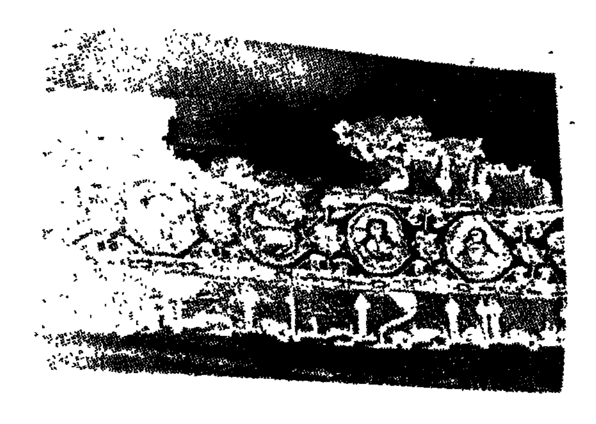


أ- وعل الزهراء البرونزي من صناعة قرطبة محفوظ بمتحف الآثار الأهلي بقرطبة



ب - قلة من الفخار المزجج من صناعة قرطبة عثر عليها بمدينة الزهراء

لوحة (١٦)



أ - قطعة من النسيج المصنوع من الكتان تعرف بمئزر هشام المؤيد من صناعة قرطبة



ب - قنينتان من الفضة من صناعة قرطبة



ج- قدر معدني من صناعة قرطبة محفوظ بمتحفها

صاحب أخبار مجموعة أنه « أمر لجارية من جواريه بعقد شراؤه عليه عشرة آلاف دينار ، فجعل بعض من حضر من وزرائه يعظم ذلك ، فقال له : ويحك !! إن لابسه أنفس منه خطراً ، وأرفع قدراً ، وأكرم جوهراً ، ولئن راق من هذه الحصباء منظرها ، ولطف في الأعين جوهرها ، لقد برأ الله من خلقه جوهراً يروق ويسبي الألباب »[1] .

وكان لكل أمير من أمراء بني أمية وخلفائهم خاتم يرمز للملك والسلطان، وكانوا ينقشون عليه عبارات يعتبرونها شعارات لهم ، وكان عبد الرحمن الداخل قد نقش على خاتمه عبارة « عبد الرحمن بقضاء الله راض »[2] . واتفق أن ضاع خاتم عبد الرحمن الأوسط ، فاضطر إلى اتخاذ خاتم جده عبد الرحمن بن معاوية ، ونقش عليه هذين البيتين :

خاتم للملك أضحى حكمه في الناس ماض
لما بدا الرحمن فيه بقضاء الله راضي[3]

وللأسف لم تصل إلينا أمثلة كافية لدراسة ما تتضمنه من نقوش زخرفية ومقارنتها بغيرها من التحف الشرقية أو المغربية ، وكل ما توصل الكشف الأثري إليه منها (في مدينة الزهراء) لا يعدو مجموعة من الحلي تضم عقوداً وأقراطاً مرصعة باليواقيت والأحجار النفيسة ، محفوظة اليوم في مجموعة والترز في بلتيمور ، تعتبر من أجمل ما عثر عليه من حلي ، منها أسورة تتألف من مجموعات من الأسماك بكل منها ثلاث سمكات ، عيونها من حبات اللؤلؤ ، وترتبط هذه المجموعات عن طريق أسلاك بأقراص مثقوبة . ومنها حلية تزين جبين المرأة تنتهي من كل من الجانبين بقفلة على شكل قلب ، هذا إلى أساور

---

(١) أخبار مجموعة ص ١٣٦ ، ١٣٧ .
(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٧٢
(٣) نفسه ، ص ١٢٢ .

وخلاخيل ذهبية عريضة ، تزدان جميعاً بزخارف بارزة مطروقة ، ونقرأ في إحدى الأساور كلمة « بركة » .

(٣)

فن الحفر في الخشب

حظيت قرطبة أيضاً بشهرة كبيرة في فن الحفر في الخشب ، وذاعت شهرتها بالذات في صناعة المنابر . وقد أمدنا مؤرخو العرب بوصف رائع لمنبر جامع قرطبة [١] ومقصورته الخشبية وكرسي المصحف العثماني ، هذا بالإضافة إلى وصف منبر جامع الزهراء . وفي وصف منبر جامع قرطبة يذكر ابن غالب أنه من الصندل الأحمر والأصفر والأبنوس والعود الرطب والمرجان ، وأوصاله وحشواته من الفضة المثبتة والمنبلة [٢] ، وذكر ابن بشكوال أنه كان مرصعاً بالفضة وفي بعض حشواته نفيس الأحجار [٣] ، وقد كرر الإدريسي والحميري هذا القول وأكدا بأن عدد حشواته ٣٦ ألف حشوة سمرت بمسامير الذهب والفضة ورصعت بنفيس الأحجار [٤] . أما مقصورة الجامع فقد نصبت حول المحراب في زيادة الحكم المستنصر ، وكانت تتوجها شرفات ، وفُتِحَ فيها ثلاثة أبواب بديعة الصنعة ، عجيبة النقش [٥] ، وقد أشرنا إلى أن بابها الرئيسي كان من الذهب وعضادتاه من عود الأبنوس [٦] . وقد نهب هذا الباب مع بيت مال المسجد في الفتنة الأولى ، بينما نهبت أوصال المنبر في الفتنة

---

(١) راجع الجزء الأول من هذا الكتاب ، صفحة ٣٤٤ .

(٢) ابن غالب ، ص ٢٨ .

(٣) المقري ، ص ٨٩ .

(٤) الإدريسي ، وصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة المشتاق ، نشره الفريد دبسيه لامار ، الجزائر ١٩٤٩ ص ٨ — الحميري ، ص ١٥٥ — المقري ، ج ٢ ص ٩٥ .

(٥) المقري ، ج ٢ ص ٨٨ .

(٦) المقري ، ج ٢ ص ٨٥ .

الثانية سنة ٥٤٠، كما نهبت تفافيح المنار المصنوعة من الذهب والفضة، وثريات الفضة عند دخول القشتاليين في الجامع في هذه السنة [١] .

وظلت قرطبة زمن الخلافة تحتفظ بشهرتها في صناعة المنابر ، ونعتقد أن ظهر المنبر الذي أمر المنصور محمد بن أبي عامر بصنعه في جامع الأندلسيين بفاس سنة ٣٧٥ هـ [٢] والمنبر الذي أمر المظفر بن عبد الملك بصنعه في جامع القرويين بفاس من خشب القنب والأبنوس عام ٣٩٥ هـ [٣] تم عملها على أيدي صناع من قرطبة . ويذكر صاحب الحلل الموشية أن عبد المؤمن بن علي نقل إلى جامع الكتبية منبراً عظيماً كان قد صنعه بالأندلس في غاية الإتقان قطعته عود وصندل أحمر وأصفر ، وصفائحه من الذهب والفضة ، وأقام للمسجد مقصورة من الخشب لها ست أضلاع ، تسع أكثر من ألف رجل وكان الذي تولى صنع المقصورة والمنبر الحاج يعيش المالقي [٤] ، ولا شك أن هذا المنبر صنع على غرار منبر جامع قرطبة من حيث طريقة الصناعة ومن حيث الشكل ، فقد جعل لمنبر الكتبية بيت يحفظ فيه ، وكان يخرج على عجل أيام الجمع [٥] . ونستدل على أن هذا المنبر قد صنع بقرطبة من نقش كتابي يتضمن هذا المعنى ، نقرأ فيه أنه صنع « بمدينة قرطبة حرسها الله » [٦] . ونعتقد أيضاً أن منبر جامع القصبة الكبير بإشبيلية (من عصر الموحدين) صنع في قرطبة ، وذلك من خلال الوصف الذي أمدنا به ابن صاحب الصلاة ،

---

(١) ابن غالب ، ص ٣٠ . وراجع تفاصيل ذلك في الجزء الأول ، ص ١٤٨ .

(٢) H. Terrasse, La mosquée des Andalous à Fès, texte. t. 38.
ومقالي عن جامع الأندلسيين ، بكتاب بيوت الله مساجد ومعاهد ، ج ٢ ص ١٩٤ .

(٣) الجزنائي (أبو الحسن علي) كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، ١٩٢٢ ، ص ٤١ ، ٤٢ .

(٤) الحلل الموشية ، طبعة تونس ١٣٢٩ هـ ، ص ١٠٨ .

(٥) نفس المصدر ، ص ١٠٩ .

(٦) مرزوق، الفنون الزخرفية الاسلامية في المغرب والأندلس، ص ١٥٩ .

إذ يقول : « صنع المنبر من أغرب ما قـــدر عليه الفعلة من غرابة الصنعة ، واتخذ من أكرم الخشب مفصلاً منقوشاً مرقشاً محكـــاً بأنواع الصنعة والحكة في ذلك من غريب العمل وعجيب الشكل والمثل ، مرصعاً بالصندل ، مجزعاً بالعـــاج والأبنوس ، يتلألأ كالجمر بالإشمال ، وبصفائح من الذهب والفضة وأشكال في عمله من الذهب الإبريز »[1] . وكان لهـــذا المنبر بيت يحفظ فيه كالشأن أيضاً في منبر جامع قرطبة ومنبر جامع الكتبية ، ونعتقد أيضاً أن هذا المنبر ومقصورة الجامع الخشبية شأنها في ذلك شأن منبر ومقصورة جامع الكتبية من صناعة قرطبية بإشراف الحاج يعيش المالقي الذي لا نستعبد أنه تلقى أصول فن الحفر في الخشب على أيـــدي صناع من قرطبة[2] . ولم يتبق للأسف من منبر قرطبة شيء نستدل منه على فن الحفر في الخشب في العصر الأموي ، ولكن يمكننا أن نتخيله بعد تطوره إذا شاهدنا منبر جامع الكتبية بمراكش .

ومع ذلك فقد تبقى من أمثلة هـــذا الفن بقرطبة بضع سماوات وجوائز مسقف بيت الصلاة بالجامع ، تزدان بزخارف هندسية ملونـــة ومنقوشة من دوائر وفصوص ومسدسات ومثمنات .

(٤)

فن صناعة التحف البلورية والزجاجية والخزفية

يتوفر البلور الصخري بكثرة في مناطق عديدة من الأندلس ، فقد ذكر البكري أنه على مقربة من حصن منتون من عمل قرطبة معدن البلور يجبـــل

(١) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ، ص ٤٧٨ .

والنص الذي نشره انطونية ملشور بعنوان **Sevilla y sus monumentos arabes** ص ١٣٦ .

(٢) **Torres Balbas, Arquitectos andaluces de las épocas almoravide y almohade, al-Andalus, 1946, pp. 214 - 224.**

شجيران وهو بشرقي قبرة [١] . وذكر الحميري أن في جوفي بطليوس ، على قدر أربعين ميلا معدن المهى (البلور) [٢] ، كما ذكر ابن غالب أن بناحية لورقة من كورة تدمير معدن البلور[٣] . ومن هذا البلور الصافي صنعت أعمدة تقوم عليها حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس بمدينة الزهراء [٤] . وكانت تصنع من البلور أواني أو « فياشات [٥] البلور المحفورة وقوارير المها المحكمة الصنعة الرائقة الهيئة» لتحفظ فيها العطور المتخذة من المسك والعنبر ورشح البان مخلوطاً مع ماء الورد ، يستخدمونه للتندية بعد تناول وجبات الطعام [٦] .

كذلك ، اشتهرت قرطبة بصناعة الأواني الزجاجية والأبارين والنارق ، وقد عثر في حفائر الزهراء على كميات كبيرة من قطع الزجاج أمكن بفضلها إعادة لصق إناء طويل الرقبة مضلع ، ووعاء عميق يزدان سطحه بزخارف نباتية من النوع الذي يوضع في قوالب [٧] .

أما فيما يتعلق بالأواني الفخارية والخزفية فقد اشتغل الفخارون بقرطبة بهذه الصناعة وإن لم يصلوا في الشهرة إلى ما وصلت إليه غرناطة ومالقة ، ومن المعروف أن هذه الطائفة الحرفية كانت تتخذ ربضاً بالشرقية مخصصاً للفخارة يقع قريباً من سور المدينة ، وهذا يفسر كثرة ما أسفر عنه البحث الأثري من القطع الفخارية الشعبية في الحفريات التي أجريت بمدينة الزهراء ،

---

(١) البكري ، جغرافية الأندلس وأوربا ، ص ١٢٧ .

(٢) الحميري ، ص ٣

(٣) ابن غالب ، ص ٤٠ – المقري ، ج ١ ص ١٣٨ .

(٤) المقري ، ج ٢ ص ٦٨ .

(٥) جمع فياشة وهي قنينة من البلور أو ابريق (راجع دوزي ، ص ٣٠١) .

(٦) ابن بسام ، قسم ٤ ، مجلد ١ ، ص ١٠٢ .

(٧) Torres Balbas, Arte Hispano musulman, p.769.

ومعظم ما عثر عليه يخص تحفاً فخارية عديدة كالقلل والمسارج والأطباق والقدور وجرار الزيت والصحاف والأقداح. وينقسم الخزف الذي تم الكشف عنه في الزهراء وقرطبة إلى ثلاثة أنواع : نوع شعبي ونوع مزجج ونوع مذهب.

أما النوع الشعبي فينقسم بدوره إلى نوعين : الأول من الفخار العاطل من الزخرفة ، والثاني يزدان بزخارف ساذجة مدهونة بألوان مختلفة على سطح الآنية مباشرة ، قوامها في معظم الأحيان الرسوم الهندسية من دوائر متصلة ومعينات ، وقلما نجد فيها زخارف نباتية أو كتابية . وأما النوع المزجج فقد أمدتنا حفريات الزهراء بكميات هائلة من هذا النوع تزدان بزخارف نباتية وهندسية ورسوم لطيور وحيوانات وصور آدمية ، وتشبه هذه الزخارف نظائرها في القطع التي كشف عنها في حفائر سامراء [١] . وقد عثر في قرطبة نفسها منذ عهد قريب على قلة كاملة من هذا النوع المزجج محفوظة اليوم في المتحف الأهلي للآثار بقرطبة ، يبلغ ارتفاعها ٢٣ سم ، وتمتاز بطول رقبتها وبصور تزين بدنها تمثل ٦ أشخاص أحدهم يحمل عصا وآخر يمسك بوقاً، ولعلهم يمثلون زمرة أو جوقة موسيقية . ويرى الاستاذ توريس بلباس أن هذه الرسوم الآدمية تذكرنا بالفن العراقي [٢] .

أما النوع الممتاز من الأواني فهو النوع المذهب أو الخزف ذي البريق المعدني ، ولكن القطع التي كشف عنها البحث الأثري منها في مدينة الزهراء قليلة ومفتتة، وأكبرها قطعة تظهر فيها صورة تمثل رأس جمل وجزء من لواء، وتشبه هذه الصورة صورة رأس جمل مرسومة على طبق ، وعلى ظهره محمل يخرج منه لواء . أما القطع الأخرى فبريقها المعدني ذهبي أصفر كالقطعة السابقة ، وعليها زخارف نباتية وكتابات ، ويشغل البريق المناطق الفارغة

---

(١) مرزوق ، الفنون الزخرفية الاسلامية في المغرب والأندلس ، ص ١٠٥ .

(٢) Torres Balbas, op. cit. p. 780

من الزخارف مما يقرب هذه الزخارف من النوع العباسي ، ويعتقد الأستاذ توريس بلباس أن هذه القطع تتعلق بأطباق وأواني وردت من العراق [1] ، وإن كان هذا القول لا يمكن أن يكون قاطعاً ، لأن أهل الأندلس قلدوا السلع الشرقية ، فصنعوا من الأقمشة الديباج التستري المطرز بالذهب [2] والجرجاني والعتابي والموصلي والأصفهاني ، وصنوف أنواع الحرير [3] ، وقلدوا الخزف الصيني والبغدادي الذي اشتهرت به بلاد العراق وذاعت شهرته في العالم الاسلامي .

(٥)

فن الحفر في الرخام والحجر

مدينة قرطبة من مدن الأندلس الغنية بمقاطع الرخام ، فقد ذكر الرازي أن بجبل قرطبة الرخام الأبيض الناصع اللون والخمري [4] ، ويحدد ابن غالب مواضع هذه المقاطع ، فيذكر أحدها بفريش الواقعة غربي فحص البلوط وقرطبة ، وتشتهر برخامها الناصع البياض الشديد الصفاء [5] . ويمتدح الإدريسي هذا النوع من الرخام فيقول : « بحصن فريش مقطع للرخام الرفيع الجليل الخطير المنسوب إليه . والرخام الفريشي أجل الرخام بياضاً ، وأحسنه ديباجاً ، وأشده صلابة » [6] .

---

(١) Ibid. p. 781

(٢) ابن بسام ، قسم ٤ ، مجلد ١ ص ١٠٥ .

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، ص ١٥٦ ، ١٥٩ .

(٤) المقري ، ج ١ ص ١٨٧ .

(٥) ابن غالب ، ص ٢١ — الحميري ، ص ١٤٣ .

(٦) الإدريسي ، ص ٢٠٧

وقد استغل خلفاء بني أمية في الأندلس ممن عرفوا بولعهم بالبنيان أمثال عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر ، هذه المقاطع الرخامية في استخراج ما يلزم لصناعة الأعمدة وتيجانها وقواعدها واللوحات التي تكسو الجدران والأرضيات ، هذا بالاضافة إلى عمل أحواض السقايات وبيلات الوضوء. وذكر ابن بشكوال أن الحكم المستنصر أقام أربع ميضآت في جامع قرطبة استقطع رخام أحواضها من مقطع المناستير بسفح جبل قرطبة ، وألقاه الرخامون هنالك ، واحتفروا أجوافها بمناقيرهم في مدة طويلة حتى استوت في صورها البديعة عين الناس ، فخفف ذلك من ثقلها ، وأمكن إهباطها إلى أماكن نصبها من صحن الجامع[1] . كذلك استخدم الرخام القرطبي في كسوة جدران الزهراء وكسوة جوفة المحراب وجانبيه وخصته وأرضية المقصورة[2].

وقد تبقى حوض من الرخام غير كامل ، محفوظ اليوم بمتحف الآثار الأهلي بمدريد عليه نقش يحمل تاريخ إنشائه في سنة ٣٧٧ بأمر المنصور بن أبي عامر ليوضع في قصر الزاهرة[3] . وفي متحف قرطبة أجزاء وجوانب من أحواض من الرخام نقشت عليها زخارف نباتية ورسوم حيوانات بارزة وبعض النقوش الكتابية نطالع في بعضها اسم المنصور[4] . وهناك حوضان رائعان يؤلفان زوجاً من الأحواض ، عثر عليها في قرطبة لا نعرف مصدر أصغرهما ، أما الآخر فقد عثر عليه في أطلال العامرية ، وهو رائع الزخرفة ، ويزدان بسلسلة من الأوراق الملساء المتعاقبة مع ساق تنشق إلى فرعين تعلوها رؤوس أسود وظباء ، وفي الأركان رؤوس غزلان . وزخرفة الحوض الصغير

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٢) راجع الجزء الأول من الكتاب ص ٣٩٨ – ٤٠٢ .

(٣) جومث مورينو ، ص ٢١٤ – Torres Balbas , Medina al-Zahira , al-Andalus, vol. XXI, 1956, p. 356 - Lévi - Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, Inscrption No 216.

(٤) جومث مورينو ، ص ٢١٤ .

أقل من سابقتها عناية ، إذ تكشف أوراقهـا عن العروق الوسطى وتنشق سيقانها إلى فرعين ، وتمتد فوق ذلـك بمجموعة أخرى من الأوراق الملتوية تتخللها نفس الرؤوس الصغيرة لأسود وظباء ، ويقطع استمرار الزخرفـة في الأركان صور حيوانات أشبه بالفهود . وعثر بقرطبة أيضاً على فوهـة بئر مثمنة الشكل حفرت فيها زخرفة من التوريقات تنبعث من ساق متعرجة في الحافة بين جديلتين ، ويعتقد الأستاذ جومث مورينو أن هذه الفوهـة كانت مخصصة للجب الذي أمر المنصور بعمله في صحن الجامع [١] .

وعثر في القصر القديم بقرطبة على لوحة من الرخام نقشت فيهـا عقود زخرفية صغيرة متجاوزة لنصف الدائرة ، تتكىء على عمد صغيرة أبدانهـا مضفرة ، وتملأ فتحات العقود المذكورة شجيرات عنب تتدلى منهـا عناقيد مثقلة وتوريق يلتف حول نفسه في رشاقـة ينبت من سيقان محفورة حفراً مزدوجـاً من خلال الحلقات التي تطوق السيقان . ويملأ المناكب التي تهبط عليها العقود نقش كتابي يحمل اسم شخص لعله عبد الكريم وزير الأمـير عبد الرحمن الأوسط [٢] . (انظر الصورة)

أما بالنسبة للأحجار فمن المعروف أنها كانت تستقطع من جبل قرطبة [٣] ، ثم تساق على العجل إلى مواقـع البناء ، ومعظم الأحجار التي استخدمت في كسوة جدران قاعات الزهراء من النوع الرملي الصلب ، وحفرت فيهـا زخارف نباتية وتوريقات حفراً غائراً ، ومعظم السيقان النباتية مشدوخة في وسطها وفقاً لأسلوب فن الحفر في الفن البيزنطي ، وأهم عنصر نباتي استخدم فيها هو شوكة اليهود التي تجلو في انحناءاتها تطوراً عظيماً [٤] . وتزودنا أطلال

(١) جومث مورينو ، ص ٢٢٥.
(٢) نفسه ، ص ٢١٢ .
(٣) راجع ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٤٩ .
(٤) جومث مورينو ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ .

قصور الزهراء بألوف عديدة من القطع الحجرية التي كانت تؤلف فيما مضى كسوة للجدران ، ومن هذه القطع أمكن التعرف على عقود زخرفية من نوع حدوة الفرس وبنيقات كبيرة وقطع حجرية من عقود وسنجات كانت تؤلف عقوداً تزدان بأقراص ولفائف من ورقة شوكة اليهود وسعف النخيل وبراعم نباتية تشبه نظائرها في بنيقات العقود والسنجات بجامع قرطبة . كذلك استخدم الحجر الجيري اللين المائل إلى الاصفرار في بناء المسجد الجامع بقرطبة .

(٦)

صناعة المنسوجات

كان الأمير عبد الرحمن الأوسط أول من أنشأ من أمراء بني أمية الطراز بالأندلس ، فأنشأ داراً للطراز بقرطبة [١] ، وفي هذه الدار كانت تنسج ثياب الأمراء والخلفاء من الحرير المختم المرقوم بالذهب المختلف الألوان [٢] . وذكر الرازى أن من بين منتجات قرطبة الصناعية « الأقمشة الناعمة ، والمنسوجات الحريرية السميكة وغير ذلك » [٣] . ويشير ياقوت الى ازدهار صناعة الوشي والديباج بقرطبة ، ولكنه يؤكد أن هذه الصناعة لم تلبث أن اضمحلت بعد

---

(١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٦ — ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٢٠ . وإن كان ابن حيان يؤكد أن هذه الدار من إنشاء الأمير عبد الرحمن الداخل (ابن حيـان ، المقتبس ، تحقيق الدكتور الحجي ، ص ٦٦) وقد رجحنا أن عبد الرحمن الداخل أنشأ داراً لصناعة البرود الأميرية عرفت بدار البرد أو الدار البردية ثم اتسعت مرافقها زمن الأوسط (راجع ما ذكرناه بالجزء الأول ، ص ٢١٥ ، ٢١٦) .

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ١٣٨ — المقري ، ج ١ ص ٢٣٤ .

(٣) Lévi - Provençal, la Description de l'Espagne de Razi, al-Andalus, vol. XVIII, 1953, p. 65.

سقوط الخلافة بقرطبة فغلبت عليها المرية [1] . وكانت منتجات دار الطراز بقرطبة مما يهادى به : فعبد الرحمن الناصر كان يخلع على قواد البربر ، أمثال القائد حميد بن يصل ، دراريع الديباج والخز ، وعمائم الشرب المذهبة [2] ، والحكم المستنصر كان يهادي أمراء البربر بالعدوة كثيراً من فاخر الكسوة [3]. وكان المنصور بن أبي عامر يهادي ملوك إسبانيا المسيحية ومن حَسُنَ بلاؤه من المسلمين في الحروب والغزوات بفاخر أنواع المنسوجات من صناعة دار الطراز بقرطبة ، ويذكر ابن عذاري أنه وزع في غزوته الثامنة إلى شنت ياقب « ألفين ومائتين وخمساً وثمانين شقة من صنوف الخز الطرازي ، وواحداً وعشرين من صوف البحر ، وكسائين عنبريين ، وأحد عشر سقلاطونة ، وخمس عشرة مريشات ، وسبعة أنماط ديباج ، وثوبي ديباج رومي وفرو فنك » [4] . وكان المنصور يستدعي أجناد البربر إلى الأندلس ، فيخلع على الرجل منهم بلباس الخز الطرازي وغيرة بدلا من لباسه الخلق» [5] .

ولكن لم يصل إلينا من إنتاج دار الطراز القرطبية للأسف سوى قطعة واحدة هي المعروفة بطراز هشام المؤيد ، عثر عليها في سان استبان دي جرماث ، وهي محفوظة اليوم في الأكاديمية التاريخية بمدريد ، ولعلها كانت من بين ما انتهبه البربر عند تخريب قرطبة في سنة ٤٠٣ وحملت إلى هناك . وهذه القطعة لا تعدو أن تكون غشاء أصفر اللون من الكتان الرقيق يزدان بشريط عريض أبيض اللون به بعض الاصفرار ، ينقسم إلى ثلاث مناطق ،

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٥ ، طبعة بيروت ، ص ١١٩ . وأهم أنواع الوشي النوع الذي يقال له الوشي الهشامي الذي كان يضرب به المثل في الرقة (ابن حيان ، المقتبس ، قطعة نشرها الدكتور محمود علي مكي ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٢٢٦) .

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٢٨ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٣٦٧ .

(٤) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٤٤٣ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٤١٧ .

المنطقة الوسطى منها تشغلها ١٣ جامة مثمنة الشكل تتصل فيما بينها بأشكال نجمية ، وبداخل الجامات صور أشخاص متربعين في جلستهم يمسك أحدهم داخل إحدى هذه الجامات بقنينة ، أو صور حيوانات تعوزها الرشاقة . أما المنطقتان العليا والسفلى فتشغلها كتابة كوفية تتجه حروف الكتابة فيها إلى الداخل ، نقرأ فيه النص التالي : « بسم الله الرحمن الرحيم ، البركة من الله واليمن والدوام للخليفة الإمام عبد الله هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين » [١] ، ونلاحظ أن أرضية الجامات من الذهب ، أما بقية أجزاء القطعة فحرير ألوانه بيضاء وزرقاء وخضراء وصفراء ووردية بين خطوط سوداء [٢] . وتتجلى في هذه القطعة التقاليد الفنية العراقية والقبطية بوضوح ، أما التقاليد العراقية فقد تدفقت على الأندلس منذ عهد عبد الرحمن الأوسط ، وكان هذا الأمير لا يتحرج من اتخاذ الثياب العراقية ، ويذكر ابن القوطية أن الشاعر عبد الرحمن ابن الشمر دخل عليه يوماً وعليه ثوب عراقي وغفارة عراقية [٣] ، وكانت المنسوجات البغدادية مستطرفة عند أهل الأندلس إذ تعبر عن الأناقة والأبهة في آن واحد ، ولهذا اتخذت أنموذجاً احتذاه الطرازون في قرطبة [٤] .

---

(١) Lévi - Provençal, Inscriptions arabes d'Espagne, Inscription No 24, p. 192

(٢) جومث مورينو ، ص ٤١١ — مرزوق ، الفنون الزخرفية الإسلاميه في المغرب والأندلس ، ص ١٢٧ .

(٣) ابن القوطية ، ص ٦٠ .

(٤) Torres Balbas, Arte H. M., p. 783

الفصل الثالث عشر

التراث العلمي

(١) تقدم الحركة العلمية بقرطبة في العصر الاسلامي
(٢) الحركة الأدبية
أ — الشعر والنثر
ب — الموشحات والأزجال
(٣) العلوم اللغوية والدينية
(٤) التاريخ والجغرافية
(٥) الرياضيات والطب والكيمياء والصيدلة
(٦) الفلسفة

التراث العلمي

(١)

تقدم الحركة العلمية بقرطبة في العصر الاسلامي

نشطت الحركة العلمية بقرطبـــة في العصر الأموي وما تلاه من العصور الإسلامية حتى سقوطها في أيدي القشتاليين ، نشاطاً لا مثيل له ، حتى غدت بحق قاعدة العلوم ومركز الآداب ، وأصبح اسمها يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعلم، بل أصبح العلم من معالمها البارزة التي يتفاخر بها أبناء قرطبة ، ويعبّر الفقيه أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية عن ذلك بهذين البيتين :

بأربع فاقت الأمـــصــار قرطبة
وهن قنطرة الوادي وجامعهـــا
هــاتان ثنتــان والزهراء ثالثـــة
والعلم أكبر شيء وهو رابعهـــا[١]

ومما يروي عن شهرة قرطبة في مجال العلوم أن أبا الفضــل التيفاشي ذكر ما قاله ابن رشد لابن زهر في تفضيـــل قرطبة على إشبيلية ، فقال : « ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيليـــة فأريد بيع كتبه حملت إلى

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ١٤٦ .

قرطبة حتى تباع فيها ، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية »[١] . وذكر ابن سعيد أن « لأهلها رياسة ووقار ، لا تزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم »[٢] ، وقال أيضاً : « إن قرطبة أعظم علماً وأكثر فضلاً بالنظر إلى غيرها من الممالك لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة فيها » . وقال الحجاري في المسهب : « وكانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الإسلام ومجتمع علماء الأنام الأعلام ، بها استقر سرير الخلافة المروانية ، وفيها تمحضت خلاصة القبائل المعدية واليمانية ، وإليهـا كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء ، إذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلمـاء ، ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب ، ويباري فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتائب ، ولم تبرح ساحاتها مجر عوالي ، ومجرى سوابق ، ومحط معالي ، وحمى حقائق » ، وقال أيضاً : « هي كانت منتهى الغـــاية ومركز الراية وأم القرى وقرارة أولى الفضـل والتقى ، ووطن أولى العلم والنهى ، وقلب الإقليم ، وينبوع متفجر العلوم ، وقبـة الإسلام ، وحضرة الأنام ، ودار صوب العقول ، وبستان ثمر الخواطر ، وبحر درر القرائح ، ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر ، وفرسان النظم والنثر ، وبها أنشئت التأليفات الرائقة ، وصنّفت التصنيفات الفائقة ، والسبب في تبريز القوم حديثاً وقديمـاً على من سواهم أن أفقهم القرطبي لم يشتمـــل قط إلا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب »[٣] .
ولذلك اجتذبت قرطبة إليها فحول العلماء والادباء ، فأمّوها من كل أوب ، وقصدوها من شرق وغرب ، وأصبحت الأندلس محالاً حصناً لنشاطهم العلمي ، بعد أن ضاق المشرق عن همهم ، ولم يتردد حكام قرطبة من جانبهم في مشاركة هذا النشاط العلمي ، فسعوا إلى توفير الأمن والاستقرار لهؤلاء الوافدين المشارقة ، فأحاطوهم برعايتهم ، وغمروهم بعطاياهم ، واصطنعوهم لخدمتهم ، وكان حكام

(١) المقري ، ج ١ ص ١٤٧ .
(٢) نفس المرجع ، ج ١ ص ١٤٧ .
(٣) نفسه ، ج ٢ ص ٩ .

قرطبة مستنيرين يقدرون العلم والمشتغلين به ، وكانوا على حظ كبير من الثقافة والعلم ، ينظمون الشعر ، ويشتركون مع الكتاب والشعراء وعلماء اللغة في مجالس يجري فيها نوع من المساجلات الأدبية ، بل إن أحدهم وهو الحكم المستنصر دقّ نظره واستوسع علمه ، إلى حد أنه كان ملماً بكثير من فروع المعرفة وعلى الأخص العلوم العقلية ، بحيث استحق أن يلقب عن جداره « الخليفة العالم » .

ولقد اهتم أمراء بني أمية وخلفاؤهم باقتناء المصنفات النادرة ، وأرسلوا للبحث عنها والتماسها وشرائها الخبراء المتخصصين . فالأمير عبد الرحمن الأوسط بعث عباس بن ناصح الجزيري إلى المشرق ليبحث له عن الكتب القديمة النادرة ، فأتى له بالسند هند وغيره . ويعتبر عبد الرحمن الأوسط أول من أدخل هذه الكتب الأندلس ، وعرّف أهلها بها ونظر هو فيها [١] . وكان عبد الرحمن الأوسط يداخل كل ذي علم في فنه [٢] ، كما كان مكرماً للعلماء، محسناً لهم،وكان يخلو بكبير الفقهاء يحيى بن يحيى الليثي ويشاوره[٣]. وكان شاعراً أديباً ذا همة عالية [٤] ، عالماً بعلوم الشريعة والفلسفة [٥] ، كما كان مولعاً بالسماع مؤثراً له على جميع لذاته [٦] .

غير أن الحركة العلمية في قرطبة لم تصل إلى ذروتها إلا في عصر الخلافة ، وعلى الأخص في زمن الحكم المستنصر ، وكان الحكم أكثر خلفاء بني أمية حباً للكتب ، وذكروا « أنه جمع من الكتب ما لا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة،

---

(١) ابن سعيد ، ج ١ ص ٤٥ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٤٥ .
(٣) نفسه ، ص ٤٦ .
(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣٥ .
(٥) المقري ، ج ٢ ص ٣٢٥ .
(٦) نفس المرجع ، ج ١ ص ٣٧١ .

حتى قيل إنها أربعمائة ألف مجلد، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها»[1].
وذكر أبو محمد بن حزم، عن تليد الخصي المتولي لخزانة العلوم والكتب بدار بني مروان أن عدد فهارس مكتبة الحكم التي تشتمل على أسماء الدواوين ٤٤ فهرسة، بكل فهرسة عشرون ورقة. واهتم الحكم المستنصر بهذه الكتب عناية كبرى، فجمع في قصره حذاق النساخين، والمهرة في الضبط، والمجيدين في التجليد صيانة لكتبه. ولكن هذه المكتبة العظمى التي جهد الحكم في تكوينها لم تلبث أن بددت عند حصار البربر لقرطبة في سنة ٤٠٠ هـ، فبيع أكثرها على يدي الحاجب واضح العامري، ونهب ما بقي منها على أثر دخول البربر مدينة قرطبة عنوة في سنة ٤٠٣ هـ[2] هـ. وكان المنصور محمد بن أبي عامر – رغم حبه للفلسفة – قد جرد مكتبة القصر من كتب الفلسفة والفلك وغيرها من الكتب، وأحرقها بيده أمام نفر من علماء قرطبة البارزين كالأصيلي وابن ذكوان والزبيدي، ليظهر للناس غيرته على الدين[3].

وكان أهل قرطبة من أشد الناس احتراماً للكتب، وأكثرهم شغفاً باقتنائها، واعتناء بخزائنها حتى أصبح ذلك على حد قول محمد بن عبد الملك بن سعيد «من آلات التعين والرياسة، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة، يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب، وينتخب فيها ليس إلا لأن يقال: فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به»[4]. وأورد المقري مثلاً يدل على حب أهل قرطبة للكتب، أورده على لسان أبي يحيى الحضرمي، جاء فيه «أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة، أترقب فيه وقوع

---

(١) المقري، ج ١ ص ٣٧١.
(٢) ابن عذارى، ج ٢ ص ١٠٢ – Garcia Gomez, Algunas precisiones sobre la ruina de Cordoda, p. 280 – جنثالث بالنثيا، ص ١٧٣.
(٣) جنثالث بالنثيا، ص ٦٥.
(٤) المقري، ج ٢ ص ١١.

كتاب كان لي بطلبه اعتناء ، إلى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ، ففرحت به أشد الفرح ، فجعلت أزيد في ثمنه ، فيرجع إليّ المنادي بالزيادة عليّ ، إلى أن بلغ فوق حده. فقلت له يا هذا ، أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي ، قال : فأراني شخصاً عليه لباس رياسة ، فدنوت منه وقلت له : أعز الله سيدنا الفقيه ، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك ، فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حده . فقال لي : لست بفقيه ولا أدري ما فيه ، ولكني أقمت خزانة كتب ، واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد ، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب ، فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد ، استحسنته ، ولم أبال بما أزيد فيه ، والحمد لله على ما أنعمُ به من الرزق ، فهو كثير . قال الحضرمي : فأحرجني ، وحملني على أن قلت له : نعم لا يكون الرزق كثيراً إلا عند مثلك ، يعطى الجوز من لا له أسنان ، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب ، وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلا ، وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه »[1] .

وكان الحكم المستنصر من كبار علماء الأندلس ، سمع من قاسم بن إصبغ ، وأحمد بن دحيم ، ومحمد بن عبد السلام الخشني ، وزكريا بن خطاب وأكثر عنه ، وأجاز له ثابت بن قاسم ، وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء ، وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي ويبذل في اقتنائها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه ، وكان ذا غرام بها قد آثر ذلك على لذات الملوك[2] . ويذكر ابن بشكوال أنه قلّما كان يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر أو تعليق مهما كان موضوع الكتاب ، وكان يعتني بكتابة نسب المؤلف ومولده وتاريخ وفاته ، ولذلك كان في معرفته برجال العلم والأدب والأخبار والانساب أحوذياً نسيج وحده ، وكان ثقة فيما

(١) المقري ، ج ٢ ص ١١ .
(٢) نفسه ، ج ١ ص ٣٧١ .

ينقله [١] . لذلك كان الحكم المستنصر محباً للعلماء ، مكرماً لهم ، وكان يبعث في استقدامهم من المشرق ، ويرحب بهم ، ويكرم مثواهم ، ويرفع منازلهم عنده ، ومن بين علماء المشرق الذين وفدوا إلى قرطبة على أيام أبيه أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي اللغوي صاحب كتاب الأمالي ، واتفق أن وصل إلى قرطبة في أيام الناصر سنة ٣٣٠ هـ ، فأمر الناصر ابنه الحكم باستقباله عند نزوله بالأندلس ، واصطحابه معه إلى قرطبة ، تكرمة له ، واحتفاء بمقدمه ، وعهد إليه الخليفة الناصر بتأديب الحكم ولده وولي عهده [٢] ، فاختص القالي بالحكم ، وأهدى القالي كتابه الأمالي إلى الخليفة الناصر [٣] بعد أن طرزه باسم الحكم ، وكان الحكم يعينه على التأليف بواسع العطاء ، ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام [٤] . وكان وفود القالي إلى قرطبة يمثل نهضة كبيرة في الدراسات اللغوية والأدبية ، فعليه تتلمذ أبو بكر الزبيدي والعاصمي وابن العريف . ومن العلماء المشارقة الذين وفدوا إلى الأندلس في عهد هشام المؤيد الأديب اللغوي أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادي ، أراد به المنصور أن يعفي آثار أبي علي القالي [٥] ، فتصدى صاعد لتأليف كتاب يفوق الأمالي، يمليه على مقيدي خدمة المنصور وكتاب دولته ، يكون أرفع من كتاب الأمالي قدراً وأجل خطراً ، فأذن له المنصور في ذلك ، فجلس صاعد بجامع مدينة الزهراء يملي كتابه المترجم بالفصوص ، فلما أكمله ناقشه أدباء العصر فلم يتركوا خبراً أو كلمة دون أن ينتقدوها ، فأمر المنصور بأن يقذف بكتاب الفصوص في النهر [٦] .

---

(١) المقري، ج ١ ص ٣٧١.
(٢) جنثالث بالنثيا ، ص ١٧٣ .
(٣) نفس المرجع ، ص ١٧٣ .
(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٤٦ — المقري ، ج ١ ص ٣٦٢ .
(٥) ابن بسام ، قسم ٤ ، مجلد ١ ، ص ٢ .
(٦) نفس المصدر ، ص ٨ .

وكان الحكم المستنصر يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار ويزودهم بالأموال الطائلة لشرائها حتى جلب منهـا إلى الأندلس ما لم يعهدوه من قبل ، ويعث في طلب كتاب الأغاني إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني ودفع إليه فيه ألف دينار ، فأرسل إليه أبو الفرج نسخة مكتوبة من هذا الكتاب قبل أن يظهر في بغداد ، كذلك ألف له كتاباً يتضمن أنساب قومه بني أمية. وقد فعل المستنصر ذلك أيضاً مع القاضي أبي بكر الأبهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم [1] ، ومـع محمد بن القاسم بن شعبان بمصر ، ومحمد بن يوسف الوراق الذي صنف له كتاباً ضخماً في مسالك إفريقيـة وممالكها ، وأبي عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى بن مفرج [2] . وكان يمين هؤلاء الكتاب بالمال على كتابة مصنفاتهم ، كما كان لا يتردد في مساعدتهم علميـاً عن طريق إعارتهم مـا كانوا يحتاجون إليه من مصادر ، فقد أرسل إلى الكاتب المصري أبي سعيد عبد الرحمن بن يونس صاحب كتاب « تاريخ مصر والمغرب » كتاباً استعان به هذا المؤرخ في تصنيف كتابه المذكور، في القسم الخاص بالأندلس [3].
كما شجع العلماء في الرياضة والفلك والطب والصيدلة على نشر نتائج أبحاثهم حتى يفيد منها الناس ، وعلى هـذا النحو ظهرت مدرسة مسلمة المجريطي في الكيمياء والرياضة والفلك ، وظهرت مدرسة أبو القاسم الزهراوي في الطب، وأبو الحسن الزهراوي في الهندسة ، وبفضل هـذا التشجيع تمكن قاضيا النصارى بقرطبة وليد بن حيزون ، وقاسم بن إصبغ [4] من ترجمـة كتاب ديسقوريدس [5] في النباتات والعقاقـير والطب ، وهو الكتاب الذي أهداه

---

(١) المقري ، ج ١ ص ٣٧١ .

(٢) المقري ، ج ٢ ص ٤١٨ .

(٣) P. Melchor Antuna, la corte literaria de Alhaquém II en Cordoba, El - Escorial, 1929, p. 42.

(٤) الحميدي ، جذوة المقتبس ، طبعة القاهرة ، ص ٣١٢ .

(٥) ترجم اصطفن بن بسيل الترجمان هذا الكتاب في بغداد زمن الخليفة المتوكل، وراجع حنين ابن اسحق الترجمة وصححها . وقد اطلع أهل الأندلس على هذه الترجمة وأفادوا منها في أيام =

الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وكتاب هيروسيس [8] .

وإذا كان المنصور محمد بن أبي عامر قد ضحى بكتب الفلسفة والفلك لاسترضاء فقهاء قرطبة وتدعيم مكانته في قلوب عامتها المتغلبين على ذوي السلطان ، وكف يد المشتغلين بالفلسفة والاعتزال ، أسوة بما فعله الناصر قبله عندما أحرق كتب ابن مسرة القرطبي خارج باب جامع قرطبة لتضمنها إشارات غامضة وعبارات مشبوهة عن منازل الملحدين ، فإنه نهض بالشعر

= عبدالرحمن الناصر . فلما قدمت هدية قسطنطين السابع على الناصر بقرطبة في سنة ٣٣٧ وهي كتاب ديسقوريدس (مصور الحشائش) المكتوب باليونانية وهروسيس (صاحب القصص) المكتوب باللاتينية ولم يكن بقرطبة يومئذ من نصارى الأندلس من يعرف اليونانية ، ظل كتاب ديسقوريدس في خزانة عبد الرحمن ولم يترجم الى العربية اكتفاء بالترجمة العراقية ، إلى أن أوسل رومانوس ليكابينوس إليه راهباً اسمه نيقولا قدم إلى قرطبة في سنة ٣٤٠ بناء على طلب الخليفة ، « وكان يومئذ بقرطبة من الأطباء قوم لهم بحث وتفتيش وحرص على استخراج ما جهل من أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس إلى العربية ، وكان أبحثهم وأحرصهم على ذلك من جهة التقرب الى الملك عبد الرحمن الناصر حسداي بن بشروط الاسرائيلي ، وكان نقولا الراهب أحظى الناس وأخصهم به ، وفسّر من أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس ما كان مجهولاً ، وهو أول من عمل بقرطبة ترياق الفاروق على تصحيح الشجارية التي فيه ، وكان في ذلك الوقت من الأطباء الباحثين عن تصحيح أسماء عقاقير الكتاب وتعيين أشخاصه محمد المعروف بالشجّار ، ورجل كان يعرف بالبسباسي ، وأبو عثمان الجزار الملقب باليابسة ، ومحمد بن سعيد الطبيب ، وعبد الرحمن بن اسحق ابن هيثم ، وأبو عبدالله الصقلي ، وكان يتكلم باليونانية ويعرف أشخاص الأدوية » (ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٤٩٤) . ولهذا السبب يستبعد جنثالث بالنثيا أن يكون كتاب ديسقوريدس قد ترجم في الأندلس ترجمة ثانية (تاريخ الفكر الأندلسي ، ص ٤٦٣ .

(١) يستبعد الدكتور إحسان عباس اشتراك قاسم بن اصبغ في ترجمة كتاب هيروسيس ، استناداً على أن قاسم توفي سنة ٣٤٠ هـ في حين لم يتول الحكم الخلافة إلا في سنة ٣٥٠ (احسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي «عصر الخلافة بقرطبة» ص ٤٧) . ولكننا نعتقد أنه ليس هناك ما يمنع من قيام قاسم بترجمة الكتاب أيام كان الحكم ولياً للعهد ، خاصة وأن قاسم هذا اختصر للحكم كتاب السنن لأبي داود وسماه المجتنى في محرم سنة ٣٢٤ وجعله باسم الحكم (المقري ، ج ٢ ص ٥٤) .

نهضة كبيرة ، واحتضن الشعراء والأدباء ، وجعل لهم ديواناً رتبهم فيه إلى طبقات ، وقدرت جوائزهم على قدر مراتبهم . وفي عهده ظهرت شخصيات أدبية شرقية وأندلسية مثل صاعـد البغدادي والشاعر الرمادي الاندلسي والأديب الفيلسوف أبو المغيرة بن حزم وابن زمنين [1] .

وفي عصر الطوائف ازدهرت الحركة الأدبية والعلمية في قرطبة في ظـل الوزير الأديب أبي حزم بن جهور ، فظهر ابن حزم القرطبي الأديب العالم الفيلسوف ، وابن زيدون الوزير الشاعر ، وابن حيان المؤرخ . ولم تخمد هذه الحركة العلمية في عصر دولتي المرابطين والموحدين ، فظهر ابن قزمان القرطبي مؤسس مدرسة الزجل ، والفيلسوف العظيم أبو الوليد بن رشد القرطبي ، كما ظهر في التراجم ابن بشكوال وفي الآداب الشُقندي ، وفي الفقه ابن عبد البر. ونعرض في الصفحات التالية صوراً من الحياة العلمية في قرطبة الاسلامية .

(٢)

الحركة الأدبية

أ — الشعر والنثر

لم تبدأ الحركة الأدبية نشاطها في قرطبة إلا منذ أن دخلها الأمير عبد الرحمن بن معاوية واتخذها مقراً لدولة بني أمية في الأندلس ، وذلك لانشغال المسلمين في عهد الولاة بالفتوح فيما وراء البرتات ، وبالفتن الداخلية بين العرب من ناحية ، وبين اليمنية والمضرية من ناحية ثانية ، وبين البلديين والشاميين من ناحية ثالثة . وكان الشعر الأندلسي في عصر الإمارة الأموية بقرطبـة متأثراً

---

(١) جنثالث بالنثيا ، ص ١٢ .

بالتقاليد المشرقية ، وقد ساعد على ذلك وفود عدد كبير من المغنين والمغنيات والجواري المشرقيات إلى الأندلس أمثـال قمر والعجفاء وزرياب [1] ، إلا أن طبيعة الأندلس الساحرة : من مياه جارية، وجبال خضراء ، وبساتين زاهية ، رققت من مشاعر أهـل الأندلس ، وهذبت من جفوتهم ، وأثارت ملكاتهم الفكرية الحية ، فاستخدموا ملكات الحس والخيال في وصف جمال الطبيعة ، وفي إجادة تصويرها ، متوسلين في ذلك كله بالتشبيهات الرائعة التي نقرأها في وصف ابن شخيص لقصور الزهراء وبساتينها :

لقد جـلا مصنع الزهراء عن أثر	موحّد القدْر عن مثْلٍ وعن مَثَل
فاتت محاسنها مجهود واصفهـا	فالقول كالسكت والإيجاز كالخطَل
بل فضْلُها في مباني الأرض أجمعِها	كفضـل دولةِ بانيها على الدُّول
كادت قسيُّ الحنـايا أن تضارعهـا	أهلة السعد لولا وصمـةُ الأفـل [2]

وكان لجمال طبيعة قرطبة ، بنهرها الكبير ، وسهولها الخضراء ، وغياضها الملتفة ، أثره في إسراف شعرائها في تعلقهم بها خلال تاريخها الإسلامي الطويل [3]،

---

(١) غرسيا غومس ، الشعر الأندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٣٣ .

(٢) مصطفى الشكعه ، الأدب الأندلسي ، ص ٣٠ .

(٣) من ذلك قول أبي بكر المخزومي :

أقرطبة الغراء هل ليَ أوبـة	إليك وهل يدنو لنا ذلك العهدُ
سقى الجانب الغربي منك غمامة	وقعقع في ساحات دَوْحاتك الرعد
لياليك أسمار وأوضك روضـة	وتربك في استنشاقها عنبر ورد

(المقري ، ج ١ ص ١٤٨)

وقول الشاعر القرطبي أبو محمد بن عبد الحق بن عطية :

أستودع الله أهـل قرطبة	حيث رجدت الحياة والكرما
والجامـع الأعظم العتيق ولا	زال مدى الدهر مأمناً حرما

(المقري ج ٢ ص ١٤٦)

وفي وصف الرياض والبساتين والمنازه والرياحين ، وأدى ارتباط فن الشعر بفنون الغناء والطرب إلى استكثار أهل قرطبة من مجالس الأنس والشراب ، وإلى ابتكار نوع جديد من الشعر الشعبي يسهل التغني به، وأعني به الموشحات والأزجال . ثم ظهر شعر الزهد كرد فعل طبيعي لهذا الاستغراق في التنعم والاستنامة إلى حياة اللهو الذي يعبر عنه الشعر الغنائي الوصفي والخمري ، فظهر بقرطبة شعراء زهاد نذكر منهم الشاعر عبد الرحمن بن مروان الأنصاري القنازعي [1] ، وأبو عبد الله محمد بن أبي زمنين، وأبو الوليد عبدالله بن محمد ابن نصر الأزدي القرطبي المعروف بابن الفرضي [2] .

وأقدم من اشتهر من أدباء قرطبة ، أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، الذي يعتبر ركناً من أركان الأدب الأندلسي ، ومرآة صادقة لثقافة الأندلسيين في الأدب وما يتعلق به من أخبار [3] ، ومنهم عثمان بن ربيعة (ت ٣١٠ هـ) ، وعبدالله بن محمد بن عبد الله الأنصاري (ت ٣٥٢ هـ). ومن أدباء قرطبة في عصر الطوائف المفكر الكبير ابن حزم القرطبي، والمؤرخ

= وقول الوزير الأديب أبو الحزم بن جهور يصف أطلال بني أمية بقرطبة :

قلت يوماً لدار قوم تفانوا ... أين سكانك العزاز علينا ؟
فأجابت : هنا أقاموا قليلاً ... ثم ساروا ولست أعلم أينا

(المقري ، ج ٢ ص ٦٦)

وقول أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد يرثي قرطبة :

ما في الطلول من الأحبة مخبرُ ... فمن الذي عن حالها نستخبر
لا تسألن سوى الفراق فإنه ... ينبيك عنهم أنجدوا أم أغوروا
جار الزمان عليهم فتفرقوا ... في كل ناحية وباد الأكثر
فلمثل قرطبة يقل بكاء من ... يبكي بعين دمعها متفجر

(ديوان ابن شهيد ، ص ١٠٩)

(١) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، ج ١ ص ١٦٦ .
(٢) جنثالث بالنثيا ، ص ٧١ .
(٣) لطفي عبد البديع ، الإسلام في إسبانيا ، ص ٧٥ .

ابن حيان القرطبي ، وفي عصر الموحدين ظهر الأديب الكبير أبو الوليد اسماعيل بن محمد الشقندي (ت ٦٢٩) .

ازدهر الشعر في قرطبة في عصر الدولة الأموية وأصبحت قرطبة مركز الحركة الأدبية والعلمية في الأندلس وقلبها النابض : ففي عصر الأمير عبد الرحمن الداخل نسمع عن الشاعر عاصم بن زيد التميمي المعروف بأبي المخشي، وكان يميل إلى سليمان بن عبد الرحمن ، فسمل أحد أنصار الأمير هشام بن عبد الرحمن عينيه.[١] .

وفي عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط برز في قرطبة عدد من كبار الشعراء منهم الشاعر عبيد الله بن قرلمان [٢] ، وعباس بن ناصح الجزيري[٣]، وعبد الله بن الشمر[٤] ، ويحيى بن حكم الغزال [٥] ، وغربيب بن عبدالله[٦]، وبكر الكتاني، وعبيديس بن محمود ، ومحمد بن يحيى القلفاط[٧]، وأحمد بن ابراهيم بن قلزم، ومؤمن بن سعيد[٨]، وأبو عبدالملك عثمان بن المثني القرطبي[٩] وعباس بن فرناس ، والشاعرة القرطبية المشهورة حسانة التميمية [١٠]. ولكن هذه النهضة الأدبية التي اتسم بها هذا العصر ، استقت أصولها من المشرق ، ثم طرأ عليها تطور تدريجي بحكم البيئة الأندلسية . وفي عهد الأمير عبد الله

---

(١) ابن القوطية ، ص ٣٥ .
(٢) أخبار مجموعة ، ص ١٤٠ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٣٣ .
(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٢١ ، ١٢٨ - ابن سعيد ، ج ١ ص ١٢٤ .
(٥) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٣٩ .
(٦) جنثالث بالنثيا ، ص ٥١ .
(٧) ابن سعيد ، ص ١١١ .
(٨) نفس المصدر ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .
(٩) نفس المصدر ، ص ١١٢ .
(١٠) غرسية غومس ، ص ٣١ - جنثالث بالنثيا ، ص ٥٧ .

ظهر من الشعراء الفارس العربي سعيد بن جودي الذي كان يتزعم ثوار العرب في غرناطة ، وكان يمثل العصبية العربية في صراعها ضد العصبية الإسبانية . ولكن الشعر الأندلسي لم يزدهر في قرطبة إلا منذ قيام الخلافة الأموية ، وفي ذلك يقول الأستاذ غرسية غومس : « لم يصل الشعر الأندلسي إلى أوجه الكامل وسمته الجمالي إلا في القرن العاشر الميلادي الذي يقترن بقيام الخلافة الأموية الأندلسية عام ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، فلقد انتصرت السياسة الأموية الحكيمة على الأزمات كلها ؛ فلم يوفق القديس يولوخيوس إلى استثارة أهل الدين من المستعربين ، ولم يلهب حماسهم النسر الأندلسي الذي اعتصم بوكنته في ببشتر (يشير إلى عمر بن حفصون) واختلطت بالتربة الأندلسية القديمة العناصر الجديدة التي حملها العرب معهم من فارس وبيزنطة ، وقد شجع عملية المزج هذه ، وعمل على تقويتها عامل على أكبر جانب من الأهمية : ذلك هو البيت الأموى الذي وقف محايداً ، وصمد للتيارات المتضاربة كلها . نعم إنه كان عربياً صرفاً – ومن ثم لم يكن إسبانياً – ولكن خصومته العنيفة مع العباسيين المشارقة خففت من عصبيته العربية ، وجعله لا يميل إلى العرب وينفض يده من عونهم . ولقد كانت قرطبة بلداً نصف عربي ، يتحدث أهله العربية وعجمية أهل الأندلس ، ويختلط فيه رنين الأجراس بآذان المؤذنين ، وكان بعض شعراء الأندلس يفيئون إلى ظلال البيع الصغيرة ليصيبوا شيئاً من النبيذ [1] ، فجددوا بذلك ما عرفه شعراء البدو من شرب النبيذ في ديور الصحراء المتأبدة في القفر . وتجلى اختلاط الأجناس بعضها ببعض ، وتجاور الديانات بعضها لبعض ، عن جو سمح جميل إنساني شفاف : نفس الجو

---

(١) يقصد بذلك أبا عامر بن شهيد الذي بات ليلة بإحدى كنائس قرطبة ، « وقد فرشت بأضغاث آس ، وعرشت بسرور واثتناس ، وقرع النواقيس يبهج سمعه ، وبرق الحميا يسرج لمعه ، والقس قد برز في عبدة المسيح متوشحاً بالزنانير أبدع توشيح ، قد هجروا الأفراح ، واطرحوا النعم كل اطراح ، لا يممدون إلى ماء بآنية إلا اغترافاً من الغدران بالراح ، وأقام بينهم يعملها حميا ، كأنما يرشف من كأسها شفة لميا ، وهي تنفح له بأطيب عرف... » المقري ، ج ٢ ص ٦٦ .

الحضاري الذي نعرفه في بغداد أيام ألف ليلة »[1] .

ومن شعراء قرطبة النابهين في عصر الخلافة أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه القرطبي صاحب العقد الفريد (٢٤٦ — ٣٢٨ هـ) ، وكان شاعراً للبلاط في عصر عبد الرحمن الناصر ، وقد برع في شعر الغزل والزهديات . وحفل عصر المنصور بن أبي عامر بكبار الشعراء ، ونهض الشعر الأندلسي نهضة لم تشهدها البلاد من قبل لميل المنصور إلى الأدب والشعر بوجه خاص[2] ، وإقبال الشعراء على وصف قصوره بالزاهرة ومنية العامرية ، ومظاهر التأنق الغالبة على مبانيه ، وعلى بساتينه ، ومنياته[3] . ومن أعظم شعراء المنصور الشاعر أحمد بن دراج القسطلي الذي يشبهه غرسية غومس بجنجرة الشاعر الإسباني[4] لغلوه في التعقيد . وأصل ابن دراج بربري ، إذ ينتسب إلى بني دراج الصنهاجيين الذي دخلوا الأندلس مع طارق بن زياد في سنة ٩٢ هـ . وقد تداولت أسرته على رئاسة بلدة قسطلة من عمل جيان ، ولذلك نسب إليها ، وعلى هذا الأساس فإن ابن دراج يعتبر أندلسياً خالصاً ، فهو لم يشعر قط بعصبية لنسبه الصنهاجي البربري[5] . وقد اتصل ابن دراج بالمنصور ومدحه بأروع قصائده ، وشعره في المنصور يعتبر من أجمل ما نظم في فنون المديح وأحقه بالتقدير[6] ، وهو يشبه في ذلك المتنبي بالنسبة لسيف الدولة الحمداني . كذلك مدح ابن دراج المظفر عبد الملك بن المنصور ولازمه كما لازم أباه من قبل . وفي أيام الفتنة يمدح أصحابها أمثال ابن عبد الجبار وسليمان المستعين والقاسم بن حمود . ثم يغادر قرطبة إلى سبتة ، ويتنقل فيما بين عامي

---

(١) غرسية غومس ، ص ٣٥ .
(٢) جنثالث بالنثيا ، ص ٦٠ .
(٣) الشكعه ، ص ٣٨ .
(٤) غرسية غومس ، ص ٣٨ .
(٥) محمود علي مكي ، ديوان ابن دراج القسطلي ، دمشق ١٩٦١ ، ص ٢٢ - ٢٥ من المقدمة .
(٦) نفس المرجع ، ص ٤٨ .

٤٠٤ ، ٤٠٨ هـ بين المرية وبلنسية وشاطبة وطرطوشة مادحاً لأصحابها ، وينتهي به المطاف أخيراً في سرقسطة حيث يلازم ملوكها التجيبيين ويعيش في كنفهم عشر سنين في جو من الهدوء والاستقرار ، وأصبح في بلاطهم كما كان بالنسبة للمنصور ، وينتقل في النهاية إلى دانية ليمدح صاحبها مجاهد العامري ، إلى أن يتوفى في سنة ٤٢١ هـ .

ومن شعر ابن دراج يودع زوجه ويذكر ابنه في المهد :

ولمّا تدانت للوداع وقد هفا — بصبري منها أنّة وزفيرُ
تناشدني عهد المودّة والهوى — وفي المهد مبغوم النداء صغير
عيي بمرجوع الخطاب ولفظُهُ — بموقع أهواء النفوس خبيرُ [١]

ومن شعره في وصف أسطول ابن أبي عامر :

تحمل منه البحر بحراً من القنا — يروع بها أمواجه ويهولُ
بكل مُمالاة الشراع كأنها — وقد حملت أسد الحقائق غيلُ
إذا سابقت شأو الرياح تخيّلَت — خيولا مدى فرسانهن خيول
سحائب تزجيها الرياح فإن وفت — أنافت بأجياد النعام فيول
أراقم تقْرى نافع السم مالها — بما حملت دون العداة مقيل [٢]

ومن فحول شعراء قرطبة في عصر الخلافة الشاعر أبو عمر يوسف بن هارون القرطبي المعروف بالرمادي [٣] (ت ٤٠٣) الذي عناه مؤرخو

---

(١) ديوان ابن دراج القسطلي ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، ص ٢٩٨ .

(٢) نفسه ، ص ٦ .

(٣) عرف بالرمادي لكنيته بالاسبانية الدارجة أبو جنيش ، وجنيش Cenisa بالاسبانية معناها الرماد . (ابن بشكوال ، كتاب الصلة ، القسم الثاني ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٦٧٤ — جنثالث بالنثيا ص ٦٨) .

الأدب بقولهم فتح الشعر بكندة . وكان الرمادي شاعراً كثير الشعر سريع القول رقيقاً في شعره ، اشتهر عند الخاصة والعامة بانطباعه وإبداعه في الفريقين . وكان قد أنشد شعراً أوغر عليه صدر المنصور فسجنه ، فاستعطفه الرمادي في سجنه، فعفا عنه المنصور ، ومن قول الرمادي يأسف على نفسه :

على كمدي تهمي السحاب وتذرف ... ومن جزعي تبكي الحمام وتهتف
كأن السحاب الواكفات غواسلي ... وتلك على فقدي نوائح هتّف

ويروي ابن حزم في طوق الحمامة أنه أحب جارية اسمها خلوة من أول نظرة ، وتغزل فيها بأشعاره [1] .

وفي « خلوة » يقول :

فهذا حمام الأيك يبكي هديله ... بكائي فليفرغ للوْم الحمائم
وما هي إلا فرقة تبعث الأسي ... إذا نزلت بالناس أو بالبهائم
خلا ناظري من نومه بعد«خلوة» ... متى كان مني النوم ضربة لازم [2]

ومن شعراء قرطبة العظام في هذا العصر الشاعر أبو عبد الله محمد بن أبي زمنين (٣٢٤ – ٣٩٨ هـ) الذي يغلب على شعره طابع الزهد والتشاؤم ، ومن شعره في ذلك :

الموت في كل حين ينشر الكفنا ... ونحن في غفلة عما يراد بنا
لا تطمئن إلى الدنيا وبهجتها ... وإن توشحت من أثوابها الحسنا
أين الأحبة والجيران؟ ما فعلوا؟ ... أين الذين هم كانوا لنا سـ ـا ؟
سقاهم الدهر كأساً غير صافية ... فصيّرتهم لاطباق الثرى رهنا [٧]

(١) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ٣٦ ، ٣٧ – الحميدي ، جذوة المقتبس ، طبعة مصر ١٩٦٦ ، ص ٣٧١ .
(٢) الحميدي ، ص ٣٧١ .
(٣) جنثالث بالنثيا ، ص ٧١ .

وكانت الحياة الادبية في قرطبة في فترة الانتقال ما بين قيام الفتنة وبداية عصر دويلات الطوائف قد تأثرت بعمق بالكوارث والنكبات التي أخذت تتلاحق عليها سريعاً مما دفع بكبار شعرائها إلى الهجرة عنها والتماس مجالات أخرى لنشاطاتهم الادبية في ظل ملوك الطوائف ، وانصرف خلفاء قرطبة في هذا العصر الانتقالي عن الادب والشعر وشغلتهم السياسة ، والحروب ، فضعفت دولة الادب ، وأصبح الشعر في هذه الفترة على حد قول الدكتور طه الحاجري : « إما شعر عابث هازل ، ضعيف طياش كشعر أبي العباس أحمد بن أبي حاتم وزير القاسم بن حمود ، وإما شعر يعتمد على المبالغة في التملق ، والإسفاف إلى التزلف كشعر ابن المنفتل أبي أحمد عبد العزيز بن خيرة ، وإما شعر متكلف يستمد كيانه من الفنون اللغوية والعلوم اللسانية ، كشعر أبي القاسم بن الإفليلي »[1]. ولا نقصد بهذا القول أن الشعر الاندلسي الجيد قد انقرض ناظموه ، وإنما نذكر السمات البارزة لهذه الفترة المضطربة المشحونة بالفوضى ، ومع ذلك فقد ظلت في قرطبة بقية من شعرائها المجيدين الذين آثروا البقاء فيها رغم العواصف السياسية ، نخص بالذكر منهم الشاعر القرطبي أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك بن شهيد (ت ٤٢٧) صاحب رسالة التوابع والزوابع ، التي صور فيها رحلة شاعر إلى الجنة ، وقد سبق في ذلك أبا العلاء المعري في رسالة الغفران ودانتي في جحيمه [2] ، وكان ابن شهيد يمثل الرقة الحضرية والترف الذهني الذي بلغته الاندلس في في عهده [3] ، وقد مدحه ابن حيان وابن بسام وأشادا ببلاغته [4] . ومن محاسن شعره قوله في وصف العاصفة :

---

(١) طه الحاجري ، ابن حزم صورة أندلسية ، القاهرة ، ص ١١٠ .

(٢) جنثالث بالنثيا ، ص ٧٣ .

(٣) لطفي عبد البديع ، الإسلام في إسبانيا ، ص ٨٢ .

(٤) ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، قسم ١ ، مجلد ١ ، ص ١٦١ — ١٦٣.

وقد فغرت فاها دُجىً كل زهرة ... إلى كل ضرع للنمامة حافل
ومرّت جيوش المزن رهوا كأنها ... عساكر زنج مذهبات المناصل
وخلّفت الخضراء في غرّ زهرها ... كلجّة بحر كلّلت باليعالل
تخال بها زهر الكواكب نرجسا ... على شط نهر للمجرة سائل [1]

ومن أعظم شعراء قرطبة الذين عاصروا فترة سقوط الخلافة ، الفيلسوف الاديب أبو محمد علي بن حزم القرطبي ، وتقع معظم أشعاره في كتابه الموسوم بطوق الحمامة ، ويعتبر هذا الكتاب على حد قول الاستاذ غرسية غوس « طاقة زهر أريجة من الاقاصيص ومقطعات الشعر والتحليل النفسي الخلقي للحب ، وشعره ينم تارة عن عاطفة حارة مشبوبة ، كقوله :

وددت بأن القلب شق بمدية ... وأدخلت فيه ،ثم يطبق في صدري
فأصبحت فيه لا تحلّينَ غيره ... إلى مقتضى يوم القيامة والحشر
تعيشين فيه ما حييتُ فإن أمُتْ ... سكنتِ شُغاف القلب في ظُلم القبر [2]

وتارة أخرى يحلق عند قمم التجريد الذهني ، وهو أمر غير مألوف في الشعر الأندلسي كقوله [3] :

أمن عالم الأملاك أنت أم إنسيٌّ ... أبِنْ لي فقد أزْرَى بتمييزيَ العِيُّ
أرى هيئةً إنسيّةً غيرَ أنّه ... إذا أعملُ التفكير فالجرْمُ عُلْوِيُّ
تبارك من سوّى مذاهبَ خلقِهِ ... على أنك النورُ الأنيق الطبيعيُّ
ولا شك عندي أنك الروحُ ساقه ... إلينا مثالُ في النفوس اتصاليُّ

(١) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ص ٨٣ .
(٢) ابن حزم ، طوق الحمامة ، ص ٩٢ .
(٣) غرسية غومس ، ص ٤١ ، ٤٢ - جنثالث بالنثيا ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

عَدِمْنا دليلاً في حدوثك شاهداً نقيسُ عليه غير أنك مرئي
ولولا وقوعُ العيْنِ في الكوْن لم نقُلْ سوى أنك العقلُ الرفيع الحقيقي»(١)

وفي عصر الطوائف ازدهت دولة الشعر بأعظم شعراء الأندلس الذين كانوا لا يعتبرون أنفسهم في مراتب أدنى من شعراء المشرق(٢)، وتنافس ملوك الطوائف في اجتذاب فحول شعراء الأندلس، فتألقت سماء الشعر، وتبارى الشعراء في نظم القصائد(٣)، وتحولت عواصم الأندلس إلى بغدادات كثيرة(٤). وحظيت قرطبة في ظل بني جهور بنوع من الاستقرار النسبي وعاد إليها بعض من كان قد هجرها من أهلها منذ أيام الفتنة، وازدهرت الحياة الأدبية في هذه المدينة بفضل تشجيع أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور (ت ٤٣٥) وابنه أبو الوليد محمد(٥)، ويمثل الوزير الشاعر أبو الوليد أحمد ابن عبد الله بن زيدون القرطبي (٣٩٤ - ٤٦٣) هذا الازدهار الأدبي بقرطبة أصدق تمثيل، فقد سجل بأشعاره العاطفية الرقيقة كثيراً من أحداث حياته، في سراحه واعتقاله، ومقامه وانتقاله، وصوّر فيها منازه قرطبة وبساتينها وقصورها وأرحائها، ومنياتها وجناتها، وأحب الشاعر ولاّدة بنت المستكفي بالله حباً ملك فؤاده، فأنشد فيها قصائد من أرق وأعذب ما وصل إلينا في فن الغزل والحب، ضمّنها كثيراً من مشاعره وأحاسيسه. وكانت ولاّدة قد بادلته حباً بحب، وهياماً بهيام(٦)، وتآلفت روحها مع روحه، وكانت تلتقي معه لقاءات طويلة تدوم الليل بطوله، يتعاطيان

---

(١) ابن حزم، طوق الحمامة، ص ١٧.
(٢) لطفي عبد البديع، ص ٨٢.
(٣) عبد العزيز سالم، الشعر الأندلسي، دائرة معارف الشعب، عدد ٦٤ ص ٢٠٠.
(٤) غرسية غومس، ص ٤٤.
(٥) راجع الجزء الأول، ص ١٣٢ - ١٣٥.
(٦) شوقي ضيف، ابن زيدون، القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٠.

كؤوس الخمر والحب بين الخمائل ووسط الأزهار العطرة ، وحدث أن غاب عنها فترة فكتبت إليه :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق سبيلٌ فيشكو كل صب بما لقي
وقد كنتُ أوقات التزاور في الشتا أبيت على جمر من الشوق محرق

فرد عليها :

لحا الله يوماً لست فيه بملتق محيّاك من أجل النوى والتفرق
وكيف يطيب العيش دون مسرة وأي سرور للكئيب المؤرّق [1]

وكانت تغار عليه من جارية لها يقال لها عتبة ، وتظن أنه على علاقة بها ، فأنشدت تقول :

لو كنت تُنصف في الهوى ما بيننا لم تهو جاريتي ولم تتخيّر
وتركت غصناً مثمراً بجماله وجنحت للغصن الذي لم يثمر
ولقد علمتَ بأنني بدرُ السما لكن دُهيتُ لشقوتي بالمشتري

ولم يلبث حبّها له أن فتر ، وخبت جذوته ، إذ آثرت عليه وزيراً هو أبو عامر بن عبدوس ، ولا ندري السبب في تبدلها له ونفورها منه ، إلا إذا كان ذلك نتيجة زهدها في حبه وهي الفتاة الفنانة [2] العابثة التي خرجت على التقاليد ، وجاهرت بلذاتها ، واختيار من تشاء من عشاقها ، فقد زعموا أنها نسجت على طرف ثوبها طرازين من الكتابة يتضمنان بيتين من الشعر :

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيها
وأمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها [3]

---

(١) شوقي ضيف ، ابن زيدون ، ص ٢١ .
(٢) كانت تحسن الضرب بالعود .
(٣) المقري ، ج ٥ ص ٣٣٦ .

وتشتد به آلام الهجر وتباريح الهوى ، فيتضرع اليها ، ويبثها حبه ، ويذكرها بالماضي ، ولكنها لم تستجب لتضرعاته ، وينتهي ابن زيدون إلى السجن ليقضي فيه خمسمائة يوم ينظم خلالها من القصائد ما يتضمن عتابا لولادة واستعطافا لابن جهور ، ثم يفر من سجنه ، ولكنه لا يبتعد عن قرطبة ، ويواصل جهوده في استعطاف ابن جهور كي يعفو عنه ، وتتكلل هذه الجهود بالنجاح بفضل تدخل أبي الوليد بن جهور ، ويقربه أبو الوليد منه ويدنيه إليه ويرفع منزلته . ولكن ابن زيدون – بعد أن شاهد نكبة بني ذكوان في سنة ٤٤٠ – يخشي أن ينتهي إلى نفس المصير ، فيقصد بلنسية ويمدح أميرها، ثم يتنقل بين طرطوشة وبطليوس ، ويستقر به المقام في بلاط بني عباد .

ومن أروع قصائد ابن زيدون قصيدة كتبها إلى ولادة يتشوق اليها ويستديم عهدها ، ويؤكد حبه لها ، ويعتذر من فراقها بالخطب الذي ألم به ، ويعلمها أنه ما سلا عنها بخمر ولا خبا ما بين ضلوعه لها من ملتهب جمر ، ويعلق الأستاذ غرسية غومس عليها بقوله : « وذوقها قريب جداً من الذوق الغربي وإن كانت تنقصها الألوان الباهرة التي نعرفها في الشعر العربي »[1] .

وقد استهل ابن زيدون نونيته هذه بقوله :

أضحى التنائي بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بِنْتُمْ وبِنّا فما ابتلّت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسّينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت ... سوداً ، وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانبُ العيش طلقٌ من تألّفنا ... وموردُ اللهو صافٍ من تصافينا
وإذ هَصَرْنا غصون الوصْل دانية ... قطوفُها فجنينْنا منه ماشينا
لِيُسْقَ عهدكم عهدُ السرور فما ... كنتم لأرواحنا إلا رياحينا

(١) غرسية غومس ، ص ٤٩ .

ثم يبلغها أنه ما يزال على الوفاء مهما طال به الفراق ، وأنه لن يتغير ولن يتخذ بديلا عنها مهما امتد به الفراق والبعاد فيقول :

لم نعتقدْ بعدكم إلا الوفاء لكم رأيا ، ولم نتقلد غيره دينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيّرنا إن طال ما غيّر النأي المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلا منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ولا اتخذنا خليلا عنك يشغلنا ولا اتخذنا بديلا منك يسلينا

إلى أن يقول :

أما هواك فلم نعدل بمنهله شربا وإن كان يروينا فيُظمينا
لم نجْفُ أفق جمال أنت كوكبه سالين عنه ولم نهجره قالينا
نأسى عليك إذا حثت مشعشعة فينا الشمول وغنّانا مغنينا

ويسألها في النهاية أن تبقى مثله على العهد والوفاء فيقول :

دومي على العهد – ما دمنا – محافظة فالحر من دان إنصافاً كما دينا

ويعلق الدكتور شوقي ضيف عليها بقوله : « وهي قصيدة تفيض بالحنين والحب والولاء مع الجفاء ، وكأنما يصب فيها زفراته ، وينفث لوعاته ، وهي لوعات محب بلغت به حمى العشق درجة عالية من الدرجات العاطفية الحادة »[1]، في حين يعلق الدكتور الشكعة بقوله : « تعتبر من عيون الشعر العربي مشرقيّه ومغربيّه على مدى التاريخ ، إنها الينبوع الصافي ، الزلال المتفجر بالمعاني والعواطف والأساليب والألفاظ والموسيقى والإيقاع ، والنفس الطويل العذب والغوص العميق الصعب ، لقد استجمع ابن زيدون كل شاعريته ، وفجّر كوامن عواطفه ، ونثر الدر من معانيه ، واستعرض سحر قوافيه ،

---

(١) شوقي ضيف ، ابن زيدون ، ص ٤١ .

لتكون قصيدته عبرة لكل محب ، وسلوى لكل صب ، وكنزا لكل أديب، ومثلا لكل شاعر ، لقد جعل منها معرضاً للعواطف والأحاسيس في كل حالاتها من عشق وغزل ، ويأس وأمل ، وشكوى وحنين، وتوسل وحسرة ، وتأس وأسي ، وصدق ووفاء ، وعتاب وتقريع » [1] . ويستمر تعلق ابن زيدون بولادة فيذكرها وهو بالزهراء ، فيتشوق إليها ويناجيها بقوله :

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا	والأفق طلق ومرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلال في أصائله	كأنه رقّ لي فاعتل إشفاقا
والروض عن مائه الفضي مبتسمٌ	كما شققتَ عن اللبات أطواقا
يومٌ كأيام لذات لنا انصرمت	تبنا لها حين نام الدهر سُرّاقا
نلهو بما يستميل العينَ من زهر	جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعيُنَه إذ عاينت أرَقي	بكت لما بي فجال الدمع رقراقا [2]

وفي عصر الطوائف أيضاً ظهرت شاعرات قرطبيات أهمهن ولاّدة التي أشرنا إليها ومهجة بنت التيّاني القرطبية . أما ولاّدة فقد نالت حظاً كبيراً من الحرّية وكان مجلسها بقرطبة على حد قول ابن بسام «منتدى لأحرار المصر، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرّتهـا ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، إلى سهولة حجابها وكثرة منتابها، تخلط ذلك بعلوّ نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أثواب» [3]. وعندما أعجبها ابن زيدون ، وأحبته دعته إلى لقياها في الليل ليكون ستاراً لحبها ، فكتبت إليه :

---

(١) مصطفى الشكعه ، الأدب الأندلسي ، ص ٢٠٠ .

(٢) ديوان ابن زيدون ، نشره كامل كيلاني ، القاهرة ١٩٣٢ ، ص ٢٥٧ - الشكعه ، ص ١٩٣ .

(٣) ابن بسام ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٣٧٩ .

ترقب إذا جنّ الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكتم للسر
وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يسر [1]

وأما مهجة بنت التيّاني القرطبية فكانت من أجمل نساء عصرها ولكنها ذهبت في فحش القول واستخدام الألفاظ البذيئة [2] ما جعلها تنتمي إلى مصاف الشاعرات السوقيات .

وفقدت قرطبة في عصر المرابطين والموحدين مكانتها في دنيا الأدب والشعر ، ومع ذلك فقد نبغ من شعرائها أبو الإصبغ عبد العزيز بن فاتح القرطبي ، وأبو الحسن علي بن يوسف بن خروف القرطبي ، وأبو جعفر أحمد ابن شطرية القرطبي، وأبو جعفر أحمد بن رفاعة القرطبي .

أما فيما يتعلق بالنثر ، فكان مرتبطاً بالشعر ارتباطاً وثيقاً ، إذ أن شعراء الأندلس كانوا يجيدون الكتابة نثراً كما يجيدون النظم شعراً ، ويتمثل النثر في الرسائل الديوانية وفي الإخوانيات ، ويتميز هذا النوع من الكتابة بالإسراف في استعمال المحسنات اللفظية كالسجع والجناس [3] . ومن أشهر كتاب قرطبة ابن شهيد وابن حزم وابن زيدون وابن حيان وابن خاقان . ومن أمثلة النثر المسجوع قول الفتح بن خاقان في كتابه مطمح الأنفس ومسرح التأنس ، يمدح جعفر المصحفي الحاجب : « تجرد العليا ، وتمرد في طلب الدنيا ، حتى بلغ المنى ، وتسوغ ذلك الجنى ، فسما دون سابقة ، وارتقى إلى رتبة لم تكن للبينته بطابقة ، فالتاح في أفياء الخلافة ، وارتاح إليها بعطفه كنشوان السلافة ، واستوزره المستنصر ، وعنه قد كان يسمع وبه يبصر ، فأدرك

(١) ابن بسام ، القسم الأول ، المجلد الأول ، ص ٣٧٧ .
(٢) راجع أمثلة من شعرها في نفح الطيب ، ج ٦ ص ٢٩ .
(٣) الشكعه ، الأدب الأندلسي ، ص ٤٧١ .

بذلك ما أدرك، ونصب لأمانيه الحبائل والشرك»[1]. ومنه أيضاً قول المؤرخ القرطبي أبي مروان حيان بن خلف يهجو ابن باشة: «وانكدر بإثر وفاته ابن باشة هدّام القصور، ومبوّر المعمور، وكان من التبجبج في اللؤم، والالتحاف للشؤم، مع دناءة الأصل والفرع وتنكب السداد، وتقبّل الفساد، على ثبج عظيم، بيده بادت قصور بني أمية الرفيعة، ودرست آثارهم البديعة، وحطت أعلامهم المنيعة»[2].

ومن أمثلة الرسائل الديوانية رسالة من إنشاء الوزير الكاتب أبي محمد بن عبد البر رداً على ابن شرف القيرواني: «ربّ أمنية شطط، قد أتاحها قدر، ونجيّة فرط، قد أراحها ظفر، وقد تقرب الأماني، ما يظنه المرء نازعاً بعيداً، كما تفيئت ما يعتدّه حاضراً عتيداً. وكانت أخبارك - أبقاك الله - ترد علينا أرجة النسيم، عطرة الشميم، شهية المسموع، رفيعة المحمول والموضوع، وأشعارك تزَفّ الينا عرائس الألباب، ونفائس الآداب، فنفدّيك على البعد بالأنفس والأقارب، ونستدنيك بالأماني ونحسبُها من الكواذب ...»[3].

وفي الاخوانيات كتب الأديب أبو العباس أحمد بن قاسم إلى ابن بسام رسالة منها: «يا سيدي وعمادي، طال بقاؤك ودام علاؤك، تكلفت من العناية بتنويهي ما دل على محتدك الكريم، ونصابك السليم، وعلى انتمائك من المجد إلى دوحة ساقها قويم وطلعها هضيم، ولولا ثقتي بتمييزك، وظهورك في هذه الصناعة وتبريزك، ما اجترأت على أن أجري بما كتبت إليك به كفا، ولا أن أخط متباهياً بها حرفا»[4]. وبرع الأديب أبو أحمد عبد العزيز بن

---

(١) الفتح بن خاقان، كتاب مطمح الأنفس، ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، قسطنطينة، ١٣٠٢ هـ، (١٨٨٤ م) ص ٤.

(٢) ابن بسام، قسم ١، مجلد ٢، ص ١١١ - ١١٢.

(٣) ابن بسام، قسم ٤، مجلد ١، ص ١٣٦.

(٤) ابن بسام، قسم ١، مجلد ٢، ص ٣٩٢.

خيرة القرطبي في الوصف ، فمن رقعة له وقد بعث أترجة إلى أحد الأصدقاء:
« وقد بعثت إليك من بنات الثمار أجملها ، ومن نتائج البستان أفضلها ، لم تطرقها عين أحد ، ولا باشرها بشرٌ بيَد ، قد صيّرتْ من الأغصان خدْرا وأرسلت من الأوراق سترا، فلما تكامل حسنها ، وماد بها غصنُها ، وارتوت من ماء الجمال، وصارت في نصب الكمال، هتكتُ سترها ، وطرقتُ خدرها، فإذا هي في حلة الخائف ، قد اصفرّتْ وجلاً من يد القاطف ، فشربت على ودّها رطلين ، وتناولتُها بالراحتين ، ثم وضعتها في هودج خيزران، وآثرتك بها على جميع الإخوان ... » [1] .

ب – الموشحات والأزجال

يذهب جمهور من الدارسين للأدب الأندلسي إلى القول بأن اختلاط عرب الأندلس بالعجم أو المستعربة كان سبباً في شيوع لهجة أعجمية مشتقة من اللاتينية الدارجة المعروفة بالرومانسية كانت تستخدم في الحياة اليومية والأحاديث ، وكان هذا الازدواج في اللغة هو الأصل في ابتكار طراز شعري مختلط تمتزج فيه مؤثرات غربية وشرقية [2] ، ويخدم فن الغناء لسهولته وسلاسته وتحرره من قيود الشعر التقليدي وعبودية القافية الواحدة [3] ، وقد ولد هذا

---

(١) ابن بسام ، قسم ١ ، مجلد ٢ ، ص ٢٦٠ .

(٢) جنثالث بالنثيا ، ص ١٤٣ – لطفي عبد البديع ، ص ٧٩ . ومما يؤكد انتشار الرومانسية عند الأندلسيين ما ذكره ابن حزم عندما تعرض لذكر بني بلى فذكر أنهم لا يحسنون الكلام باللطيلية لكن بالعربية فقط (جمهرة أنساب العرب ، القاهرة ١٩٦٢ ، ص ٤٤٣) .

(٣) جودة الركابي ، في الأدب الأندلسي ، دمشق ١٩٥٥ ، ص ٣٠٢ . ويعتقد الدكتور الركابي أنه قامت في المشرق الإسلامي منذ صدر الدولة العباسية محاولات للخروج على نظام القصيدة والتحرر من قيودها مجاراة للبيئة الحضارية الجديدة ، وقامت محاولات لابتكار بعض الأوزان ، كما ابتكرت مولاة للبرامكة « المواليا » وهو شعر عامي ملحون تتدرج تحته فنون كثيرة تسمى القوما (ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١١٦٦) ، ثم ظهرت المخمسات والمسمّط =

الشعر الشعبي في شبه جزيرة أيبيريا منذ نهاية القرن الثالث الهجري ، وكان ظهوره نتيجة طبيعية لخضوع الشعر العربي الفصيح لقوالب عروضية صارمة : فالقصيدة تخضع لقواعد معينة ثابتة فيما يختص ببحرها الذي لا يتغير من مطلع القصيدة إلى آخرها مهما طالت ، وكذلك فيما يختص بالقافيــة التي لا تتغير كذلك من البداية إلى النهاية ، على حين أن الشعر الشعبي الذي ابتكره مقدم ابن معافي وفقاً لابن خلدون أو محمد بن محمود القبري الضرير وفقاً لابن بسام، كان يجيز استخدام بحور أخرى غير بحور العروضيين ، ويخالف بين القوافي في القصيــدة الواحدة ، وقد تكون لغة هذا الشعر فصيحة وهذا شأن الموشحات ، وقد تكون دارجة ملحونة وهذا شأن الأزجال[1] . وهناك فريق ثان يذهب إلى أن أصل الموشح جليقي، وثالث إلى أنه روماني[2]. وهناك فريق رابع من الباحثين يذهب إلى أن الموشحة الأندلسية هي تطور طبيعي ومتدرج للشعر المشرقي سواء في الاطار العام أم في الموضوعات ، شأنهـا في ذلك شأن ألوان من الشعر ظهرت في المشرق ثم نمت وترعرعت في الأندلس بتأثير البيئة جغرافياً واجتماعياً[3] ، ويرى هذا الفريق أن استخدام خرجة أعجمية أي لاتينية لا يعتبر دليلاً على أن الموشحة إسبانية الأصــل ، وإنما استخدمت من قبيل الطرافة ، كما حدث عندما اتخذ ابن سنـاء الملك خرجة فارسية في إحدى موشحاته .

وفي نشأة الموشحـات يقول ابن بسام : « وأول من صنع أوزان هــذه الموشحات بأفقنـا واخترع طريقتها – فيما بلغـني – محمد بن محمود القبري الضرير ، وكان يصنعها على أشطار الأشعار ، غير أن أكثرهـا على الأعاريض

= والمزدوجات، ولكن هذه المحاولات ووجهت في المشرق بمعارضة شديدة واعتبرت دليل ضعف وعجز (راجع جودة الركابي ، ص ٣١٢) .

(١) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٨١ .

(٢) جنثالث بالنثيا ، ص ١٥٤ وما يليها .

(٣) الشكعه ، ص ٣٨٣ .

المهملة غير المستعملة ، يأخذ اللفظ العامي والعجمي ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان . وقيل إن ابن عبد ربه صاحب كتاب « العقد » أول من سبق إلى هذا النوع من الموشحات عندنا ، ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادي، فكان أول من أكثر فيها من التضمين في المراكز، يضمّن كل موقف يقف عليه في المركز خاصة . فاستمر على ذلك شعراء عصرنا كمكرم بن سعيد وابني أبي الحسن، ثم نشأ عبادة هذا فأحدث التغيير، وذلك أنه اعتمد مواضع الوقف في الأغصان ، فيضمّنها ، كما اعتمد الرمادي مواضع الوقف في المركز »[1] .

ويختلف ابن خلدون مع ابن بسام في اسم الوشاح الأول مبتكر هذا الفن ، فيجعله مقدم بن معافي القبري من شعراء الأمير عبدالله المرواني [2] بدلاً من محمد بن محمود القبري الضرير . وكان الظن أنهما شخص واحد ، وأن أحد الاسمين محرف عن الآخر ، لولا أن أكد الدكتور عبد العزيز الأهواني أنهما شخصان مختلفان ، وإن كانا متعاصرين ، ولهما تراجم مدونة في الحلة السيراء وفي بغية الملتمس [3] . وأياً ما كان الأمر وسواء كان مبتكر الموشحة محمد القبري أو مقدم القبري فكلاهما لم يبرع في فن التوشيح ، إذ كسدت موشحاتهما ، كما كسدت موشحات ابن عبد ربه الذي أخذ عن أحدهما . وأول من برع في هذا الشأن على حد قول ابن خلدون عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح ، ولم يلبث فن التوشيح أن تطور في عصر الطوائف على يدي أبي بكر عبادة بن ماء السماء شيخ الصناعة وإمام الجماعة ، الذي «سلك إلى الشعر مسلكاً سهلاً ، فقالت له غرائبه مرحباً وأهلاً ، وكانت صنعة

---

(١) ابن بسام ، قسم ١ ، مجلد ٢ ، ص ١ ٠ ٢ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ص ١١٣٨ .

(٣) al - Ahwani (Abd al - Aziz) : El Kitab al - Muqtataf min Azahir al - Turaf, al - Andalus, vol. XIII, 1948, p. 29 .

التوشيح التي نهج أهل الأندلس طريقتها ، ووضعوا حقيقتهـــا غير مرقومة البرود ولا منظومة العقود ، فأقام عبادة هذا منآدها ، وقوّم ميلها وسنادها، فكأنما لم تسمع بالأندلس إلا منه ، ولا أخذت إلا عنه ، واشتهر بها اشتهاراً غلب على ذاته ، وذهب بكثير من حسناته »[1] . واستحسن أهل الأندلس شعر الموشحات واستساغوه وأقبلوا عليـــه ، لسهولة إنشاده والتغني به على أنغام الأوتار أو تقطيع أصوات المزمار . وإذا كانت أغراض الموشحة قد تعددت إلا أن الغزل والحب ومجـــالس الطرب والسمر والشراب ووصف الطبيعة كانت الموضوعات الرئيسية للتوشيح لتناسبها مع فن الغناء[2] ، ولهذا السبب اقترن فن الموشحات بالألحـان والغناء ، ثم تجاوزت الموشحـة هذه الأغراض إلى الدين والتصوف .

ولقد ازدهرت صناعة الموشحات في قرطبة زمن دويلات الطوائف شأنها في ذلك شأن غيرها من حواضر الاندلس في هذا العهد ، ولكنها بلغت ذروة ازدهارها في عصر دولتي المرابطين والموحدين ، فظهر من كبـــار الوشاحين القرطبيين : يحيى بن بقي القرطبي (ت ٥٤٠) ، ومن موشحاتـــه في الحب قوله :

عبث الشوق بقلبي فاشتكى   ألم الوجـد فلبّت أدمعي

***

أيهـــا الناس فؤادي شَغِفُ

وهو من بغي الهوى لا يُنصَفُ

كم أداريـه ودمي يَكِـفُ

أيهـا الشادن من علمـكا   بسهام اللحظ قَتْلَ السَّبُعِ

***

(١) ابن بسام ، قسم ١ ، مجلد ٢ ، ص ١

(٢) الحجي ، تاريخ الموسيقى الأندلسية ، ص ٥٩ .

بدر تم تحت ليل أغطشِ
طالــع في غصن بان منتشي
أهيف القــد بخدٍّ أرقشِ
ساحر الطرف وكم ذا فتكا بقلوب الأسْد بين الأضلعِ

* * *

أي ريم رمتُه فاجتنبــا
وانثنى يهتز من سكر الصِّبا
كقضيب هزّه ريح الصَّبا
قلتُ: هبْ لي يا حبيبي وصْلكا واطّرح أسباب هجري ودَعِ (١)

ومن موشحات ابن بقي القرطبي في الخمر قوله :

أدر لنا أكواب يُنسى بها الوجدُ
واستصحب الجلاسْ كما اقتضى العهــد

* * *

دِنْ بالهوى شرعاً ما عشْتَ يا صاح
ونزّه السمعــا عن منطق اللاحي
والحكمُ أن يُدعى إليكَ بالراح
أناملْ العنابْ ونقلُكَ الوردُ
حُفّا بصدْغيْ آس يلويهما الخدُّ

* * *

(١) المقري ، ج ٥ ص ٣٦٧ — جودة الركابي ، في الأدب الأندلسي ، ص ٣٤٠ .

لله أيام دارت بها الخمرُ
والروض بسام باكره القطرُ
وَصْلٌ وأنغام وأوجهٌ زهرُ
فنحن بالأصحابْ قد ضمّنا عقدُ
وأفرط الإيناس مما له حدُّ

* * *

بينا أنا شارب للقهوةِ الصِّرْف
وبيننا تائب لكن على حرفِ
إذ قال لي صاحبٌ من جملة الظُرف
أميرنا قد تاب غنّ له واشْدُ
واعرض عليه الكاسْ عساه يرتدُّ (1)

ومن وشاحي قرطبة في عصر الموحدين أبو الحسين بن مسلمة القرطبي (ت ٥٨٥) الذي عرف بموشحاته في وصف جمال الطبيعة ، ويورد ابن سعيد له موشحة في وصف وادي ريه :

بوادي رَيّة اخلَع عذارَ التصابي
أما تراه مُفَـرّعْ
مثل الصباح المرصّع
بالروض عادَ مجزّع
سقاه رِيّه من صفو ماء السحاب

* * *

(١) ابن سناء الملك ، دار الطراز في عمل الموشحات ، تحقيق الدكتور جودة الركابي ، دمشق ، ١٩٤٩ ، ص ٤٧ — جودة الركابي ، في الأدب الأندلسي ، ص ٣٤٢ .

عليه حث المدامة
وأنظره في شكل لامة
خاف الرياض حمامة
فكم خطيئة مدت له كالحراب[1]

أما الزجل فشعر غنائي يصاغ في فقرات تسمى أبياتاً (كالموشحات) ، ويمتاز بتكرار القافية في نهاية كل بيت حتى يتيسر إنشاده مع المجموعة على نغمات العود أو المزمار . وأول من ابتكر الأزجال أبو بكر بن قزمان القرطبي (ت ٥٥٥ هـ) الذي يعد إمام الزجالين [2] ، واشتهرت أزجاله في الآفاق ، وعنى في أول أمره بالنظم المعرب ، فألفى نفسه متخلفاً عن شعراء عصره ، فابتكر هذه الطريقة الجديدة التي لاقت هوى في نفوس الناس ، وأصبح إمام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس [3] ، ولذلك يتسم زجل ابن قزمان باستعمال ألفاظ رومانسية كثيرة يمكن أن نقرأها في هذا البيت :

وإلى هذا الجلال
منظر لس ل مثال
أج بحال دارة هلال
أو بحال وج دشول

وكلمة دشول هنا من الإسبانية de Sol أي الشمس .

وقوله أيضاً :

(١) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ص ٤٢٤ .
(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١١٥٣ .
(٣) ابن سعيد ، ج ١ ص ١٠٠ .

كِيفْ نرى خُبزَ بَنيجْ
أسودَ اسودْ مثل بِجْ
في إدينْ تقطيجْ
ودقيق حمص وفولْ

وكلمة بنيج اسبانية Paniza بمعنى الرغيف الصغير من الخبز ، كما أن كلمة بج اسبانية أيضاً Pez بمعنى القار [1] .

وكثيراً ما نقرأ في أزجاله ألفاظاً أعجمية مثل : بربينة Verbena ، وكريو Creo أي أعتقد ومخشل دشول Mejilla de Sol أي خد كأنه الشمس ، بل هناك أشطار نصفها عربي ونصفها عجمي مثل :

يا مُطَرْ بَنْ تن شِلباطُ تُن حزين يناطُ تَرا اليوم وشطاط
لم تذق فيه غير لُقيْمة

ومطر Madre أي أم ، وبن Vani أي تعالى ، وشلباط Salvado أي إنجديني ، وتن Tanto أي حيناً ... وحيناً ، ويناط وقد قرأها ريبيرا بناط Penato بمعنى متألم [2] .

ومن أزجال ابن قزمان في مدح القاضي أحمد بن الحاج [3] :

---

(١) جنثالث بالنثيا ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .
(٢) نفس المرجع ، ص ١٦٠ ، ١٦١ .
(٣) أسرة بني الحاج أسرة بربرية ، ينتمي إليها يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين ، وكان أحد أفرادها وهو محمد بن الحاج قائداً من قواد المرابطين الكبار، أسند إليه علي بن يوسف ولاية قرطبة واستشهد في سنة ٥٠٩ في كمين نصبه له القشتاليون (راجع : الفتح بن خاقان ، قلائد العقبان ، ص ٢٢٨ – ابن عذارى ، ج ٤ (العصر المرابطي) طبعة بيروت ، ص ٦١– ابن القطان ، قطعة من نظم الجمان ، تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، ص ١١٠) .

وصل المظلوم لحق وانتصف غني ومسكين
بحضر الانكار والإقرار ويقع الفصل فالحين
اجتمع فيه الثلاثة الورع والعلم والدين
فيزول الحق إذا زال ويدوم الحق إذا دام

* * *

وترى طالب ومطلوب لسْ ترى زُوّارْ وجلاسْ
إلا إن كانت ضرورة كلمتين فلا باسْ
مُرْآتْ يا قاضي الجماعة جزاك الله خير عن الناسْ
إن مذ كنت ات حاكم عرفت شروط الأحكامْ (١)

وخلف ابن قزمان في صناعة الزجل أبو عبدالله بن الحاج المعروف بمدغليس ، الذي كان يعني باللفظ دون المعنى، ومن أجمل أزجاله زجل يصف فيه البساتين وثمارها ، والنسيم والخضرة :

ثلاث أشْيَا فِالبْسَاتينْ لسْ تُجدْ في كل موضعْ
النسيمْ والخضرْ والطيرْ شمّ واتنَزّهْ واسْمَعْ
قم ترى النسيمْ يُولْوِلْ والطيورْ عليهْ تِغَرّدْ
والثمارْ تُنْشُرْ جواهرْ في بساط مِنِ الزُمُرّدْ
وبوسْطِ المرْجِ الأخضر سَقْي كالسيف المجرّدْ
شبّهت بالسيف لما شُفِتْ الغدير مُدَرّعْ
ورذاذاً دقّ ينزل وشُعاع الشمس يضربْ
فترى الواحد يفَضّضْ وترى الآخر يذَهّبْ

(١) عبد العزيز الأهواني ، الزجل في الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ٢٠١ .

والنّبات يشرَب ويسكر   والغُصون تَرقص وتِطرب
وتريد تجي إلينا   ثم تستحي وترجع (1)

وقد لاقت أزجال ابن قزمان ومدغليس رواجاً في الأندلس من العامة ، مما يدل على أنها إنما نظمت ليتغنى بها المنشدون في الأسواق، أو المتسولون في الطرقات ، أو أصحاب المجون «السكرى والسكران» (2) ، ويردد الحاضرون إنشاد الخرجة على أنغام العود أو المزهر أو الدف ورنين الصنج (3) .

وفي عصر الموحدين نبغ من زجالي قرطبة يحيى بن عبدالله البحبضة ، ومن أجمل أزجاله :

من باب الجوز يُسمَع صياحي
والله إنك صرف ملحلا
وسمينا بحال بخلا
وخفيفاً بحال بوللا
حن تطر لي مع الرياح
والله ذنا إني مشاكل
وحزامي مليح وكامل
حن تراني نرخي السراول
على وجه القرق الصياح (4)

(1) ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج 2 ص 220 وما يليها – ابن خلدون ، المقدمة ص 1155 .

(2) Stern, les vers finaux en espagnol dans les muwassahs hispano - hebriques, al - Andalus, 1948, Appendice, p. 345

(3) جنثالث بالنثيا ، ص 160 .

(4) ابن سعيد ، ج 1 ص 173 .

ومنهم الزجال قاسم بن عبود الرياحي[1] يصف أرحاء قرطبة على الوادي الكبير وبعض المواضع الهامة من قرطبة فيقول :

بالله يا حبيبي اترك ذا النفار
واعمد أن نطيب في هذا النهار
واخرج معي للوادي لشرب العقار
فتمم نهارنا في لذة وطيب
في الأرحا ولا في المرج الخصيب[2]

وقبل أن نترك موضوع الزجل والموشحات لا بد أن نشير إشارة سريعة إلى أثر هذا الشعر الغنائي الأندلسي في الشعر الغنائي الاسباني والفرنسي في العصور الوسطى . ففي الأزجال القشتالية الواردة بديوان بايينا نفس العناصر الرئيسية للزجل الأندلسي وما يرادفها بالقشتالية : فالمطلع يسمى Estribillo ، والأسماط الثلاثة تسمى Mudanza ، والقفل يسمى La vuelta . ولا نريد الإفاضة في الحديث عن أثر الشعر الغنائي الأندلسي في أغاني الطروبادور الأقطانية والبروفنسية سواء من حيث تركيب الأبيات أو تعاقب القوافي ، فقد بحث هذا الموضوع طويلا وانتهى البحث فيه إلى تأكيد القول بتأثير الأزجال والموشحات الأندلسية في الشعر الغنائي الفرنسي استناداً إلى أن أول شاعر غنائي فرنسي كتب شعراً بلغة رومانسية متبعاً التركيب العروضي للزجل الأندلسي هو جيوم التاسع دوق أقطانية ، وإلى أن الطروبادور الأقطانيين والبروفنسيين والزجالين المسلمين في الأندلس يتفقون

(١) لعله ينتمي الى بني رياح العرب الهلالية الذين عاثوا فساداً في المغرب الأدنى في عصر الدولة الصنهاجية ، ثم ناصروا بني غانية الميورقيين ضد الموحدين ، إلى أن اصطنعهم المنصور الموحدي واستقدمهم إلى المغرب الأقصى ، وسيّر بعضهم إلى الأندلس للجهاد .

(٢) المقري ، ج ٢ ص ٢٤ و٢٥ .

في الموضوعات التي تتناولها أغانيهم ، وكلها تدور حول الحب العذري الشريف والحب الحسي والمدح ، وأزجال ابن قزمان تتماثل على هذا النحو مع أشعار الطروبادور ماركابرو ، كما تتكرر فيها ألفاظ متماثلة مثل الرقيب Gardador ، والنمام Lauzangie ، والحاسد والعاذل Enojos ، والغيور Gilos ، كذلك تشترك الأزجال الأندلسية مع أشعار الطروبادور في استخدام عبارة إن المحب لمن يحب مطيع qui amat obedit التي وردت في كتاب Disciplina Clericalis ، هذا بالاضافة إلى أن بعض الدارسين ذهب إلى القول بوجود صلة بين طروبادور وطرب على اعتبار أن الأولى مشتقة من الثانية . ومما يؤكد وجود صلة بين الطروبادور والزجالين أن جيوم التاسع أقدم شعراء الطروبادور الفرنسيين كان على اتصال وثيق بإسبانيا ، فقد ساعد الملك الفونسو المحارب ملك أرغون ضد المرابطين في معركة كتندة التي حدثت سنة ١١٢٠م ، وتزوج من بنت راميرو الراهب ملك أرغون ، وقتل في شنت ياقب سنة ١١٣٧ م ، كما أن الطروبادور ماركابرو سبق أن رحل إلى قشتالة ، واشترك مع الفونسو السابع في إحدى حملاته ضد المسلمين [1] .

(٣)

العلوم اللغوية والدينية

اقتصرت الدراسات النحوية واللغوية في قرطبة باديء ذي بدء على قراءة

---

(١) راجع في هذا الموضوع : ليفي بروفنسال ، محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة ، الاسكندرية ١٩٥١ – ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، مقال : الشعر العربي في إسبانيا وشعر أوربا في العصر الوسيط ، ص ٢٨٠–٣٠٣– عبد الرحمن الحجي ، تاريخ الموسيقى الأندلسية ، (الفصل الخاص بأثر الموسيقى الأندلسية على الموسيقى الأوروبية ، ص ١١٤ – ١٤٠) – عبد العزيز سالم ، تأثير الأزجال الأندلسية في الشعر الغنائي الأوروبي ، كتاب الشعب ، عدد ٦٤ ، ص ٢٠٦ – ٢٠٧ .

النصوص الأدبية شعراً ونثراً لتربية الملكات الأدبية ، فكانت الدراسات النحوية على هذا النحو ضمنية إلى أن دخلت الأندلس كتب الكسائي . ومنذ ذلك الحين أخذت تظهر بعض التواليف في النحو ؛ فكتب جودي بن عثمان النحوي العبسي (ت ١٩٨ هـ) كتاباً في النحو بعنوان « منبه الحجارة » ، وبرز من علماء اللغة زمن أمراء بني أمية أيضاً أبو عبد الملك عثمان بن المثنى القرطبي (ت ٢٧٣) الذي عاصر أربعاً من الأمراء من هشام الى الأمير محمد ابن عبد الله ، ومنهم أبو محمد عبد الله بن بكر المعروف بالندل [١] ، وكان هشام بن الوليد بن محمد بن عبد الجبار الغافقي القرطبي (ت ٣١٧ هـ) عروضياً نحوياً، وهو الذي أدب الأمير عبدالرحمن بن محمد، ثم أدب بعده ولي عهده الحكم [٢] . وفي عهد عبد الرحمن الناصر والحكم ظهر عدد كبير من المتخصصين في الدراسات النحوية ، نذكر منهم محمد بن اسماعيل النحوي المعروف بالحكيم القرطبي (ت ٣٣١) ، وكان عالماً بالنحو والحساب [٣] ، ويوسف بن محمد بن يوسف البلوطي النحوي (ت ٣٣٤) ، وكان عالماً بالنحو واللغة ، جيد الضبط، إماماً في هذا الفن [٤] ، ومحمد بن عمر بن عبد العزيز ابن ابراهيم بن عيسى بن مزاحم المعروف بابن القوطية القرطبي، (ت ٣٦٧هـ) وكان عالماً بالنحو حافظاً للغة ، متقدماً فيها على معاصريه ، « لا يشق غباره ولا يلحق شأوه ، وله في هذا الفن مؤلفات حسان : تصاريف الأفعال ، وكتاب المقصور والمحدود .. وكانت كتب اللغة أكثر ما تقرأ عليه وتؤخذ عنه » [٥] . ومنهم أيضاً مفرج بن مالك النحوي المعروف بالبغل (توفي زمن

---

(١) ابن سعيد ، ج ١ ص ١١٣ .

(٢) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، القاهرة ١٩٦٦، القسم الثاني ، ص ١٧٤ ترجمة رقم ١٥٤٥ .

(٣) نفس المصدر ، قسم ٢ ، ص ٥٢ ترجمة رقم ١٢٣٢ .

(٤) نفسه ، قسم ٢ ، ص ٢٠٥ ، ترجمة رقم ١٦٢٩ .

(٥) نفسه ، قسم ٢ ، ص ٧٦ ، ترجمة ١٣١٨ .

المستنصر) وكان نحوياً لغوياً عالماً بمعاني الشعر [١] ، ومحمد بن يحيى المعروف بابن الخراز (ت ٣٦٩) [٢] ، ومحمد بن حسن بن عبد الله الزبيدي (ت ٣٧٩) وكان واحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة ، واستأدبه الحكم لابنه هشام [٣] ، وأبو بكر محمد بن يحيى بن زكريا القلفاط القرطبي ، وكان من كبار نحاة قرطبة المعروفين بالإقراء [٤]. وفي عصر الموحدين نبغ من علماء قرطبة في النحو أبو بكر محمد بن عبد الله بن ميمون العبدري القرطبي (ت ٥٦٧) ، وقد صنّف عدة كتب في النحو منها شرح الجمل ، وشرح المقامات [٥] .

كذلك عني أهل قرطبة بالعلوم الدينية كالحديث والقراءات وعلوم القرآن والتفسير ، وصنّفوا فيها الكتب . وأول من ظهر منهم محمد بن وضاح (ت ٢٨٧) مولى عبد الرحمن بن معاوية ، وكان قد رحل إلى المشرق رحلتين في طلب الحديث ، « وكان عالماً بالحديث بصيراً بطرقه ، متكلماً على علله » وبفضل جهوده وجهود بقي بن مخلد ، أصبحت الأندلس دار حديث [٦]. أما بقي بن مخلد القرطبي (ت ٢٧٦) فمن أساطين علماء الحديث بقرطبة زمن الإمارة ، رحل إلى المشرق ولقي جماعة من أئمة المحدثين وكبار المسندين بلغ عددهم ٢٨٤ رجلاً ، وهو الذي ملأ الأندلس حديثاً ورواية ، وصنّف عدداً من الكتب [٧] . ومن كبار علماء الحديث في عهد الناصر قاسم بن إصبغ البياني تلميذ بقي بن مخلد ومحمد بن وضاح ، وكان بصيراً بالحديث والرجال ،

---

(١) ابن الفرضي ، قسم ٢ ، ص ١٤٢ ، ترجمة رقم ١٤٤٨ .
(٢) نفس المصدر ، قسم ٢ ، ص ٧٩ ، ترجمة ١٣٢٥ .
(٣) نفسه ، قسم ٢ ، ص ٩٠ ، ترجمة رقم ١٣٥٧ .
(٤) ابن سعيد ، ج ١ ص ١١١ .
(٥) نفس المصدر ، ج ١ ص ١١٢ .
(٦) ابن الفرضي ، قسم ٢ ، ص ١٦ ترجمة رقم ١١٣٦ .
(٧) نفس المصدر ، قسم ١ ، ص ٩٢ ، ترجمة رقم ٢٨٣ .

وصنّف على كتاب السنن لأبي داود كتاباً في الحديث سماه المجتني [1] ، وأبو عبدالله محمد بن أحمد القنتوري القرطبي (ت ٣٤٨) وكان عالماً بالحديث ، صحيح النقل ، حافظاً ، وألّف عدة مصنفات في فقه الحديث ، منها « فقه الحسن البصري » في سبعة مجلدات ، وكتاب « فقه الزهري » [2] . ومنهم في زمن الطوائف عثمان بن سعيد بن عمر الأموي القرطبي (ت ٤٤٤) صاحب « المقنع والتيسير » وكان أحد الأئمة في علم القرآن ورواياته وتفسيره وفي الحديث وطرقه وأسماء رجاله [3] ، وأبو الوليد عبد الله بن محمد بن الفرضي (ت ٤٠٣) ، صاحب كتاب « تاريخ علماء الأندلس » [4] ، ومحمد بن عمر ابن يوسف بن الفخار (ت ٤١٧) ، وأبو عمر بن عبد البر (ت ٤٦٣) صاحب المؤلفات الجليلة [5] . ومنهم في زمن الموحدين أبو بكر يحيى بن سعدون (ت ٥٦٧) [6] ، وأبو الحسن علي بن القطان القرطبي (ت ٦٢٧) صاحب المصنفات في تفسير الحديث [7] .

وفي علم القراءات ظهر عثمان بن سعيد القرطبي الذي بلغ الغاية في القراءات [8] ، ويحيى بن مجاهد بن عوانة الفزاري القرطبي (ت ٣٦٦) وكان مهتماً بالقراءات والتفسير [9] ، وأبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (ت ٣٩٣) المعروف بالورشي نسبة لشهرته في قراءة ورش ، وكان أحد القراء المعروفين المذكورين

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ٢٥٤ — جنثالث بالنثيا ، ص ٣٩٤ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٤١٨ .
(٣) نفس المرجع ، ص ٣٣٥ .
(٤) نفسه ، ج ٢ ص ٣٣٠ .
(٥) جنثالث بالنثيا ، ص ٣٩٦ .
(٦) المقري ، ج ٢ ص ٣١٨ .
(٧) جنثالث بالنثيا ، ص ٤٠٠ — لطفي عبد البديع ، ص ٤٤ .
(٨) نفس المرجع ، ص ٤٠٦ .
(٩) ابن الفرضي ، قسم ٢ ، ص ١٩١ ترجمة ١٥٩٥ .

بالتقدم في علم القراءات [1] . وفي عصر الطوائف ظهر أبو محمد مكي بن أبي طالب القرطبي (ت ٤٣٧) وكان متبحراً في علوم القرآن ، مجوداً للقراءات السبع عالماً بمعانيها [2] .

وفي تفسير القرآن تألقت شخصيات عديدة في قرطبة نخص بالذكر منهم بقي بن مخلد أكبر المفسّرين للقرآن في الأندلس وصاحب التواليف التي لم يؤلف مثلها في الإسلام [3] ومن بينها « تفسير القرآن » [4] ، وأبو العباس أحمد بن مسعود بن محمد القرطبي (ت ٦٠١) وله شرح على تفسير ابن عطية [5] ، وأبو عبد الله بن أحمد القرطبي المفسر (ت ٦٧١) الذي جمع في تفسير القرآن كتاباً من ١٥ مجلداً ، وشرح أسماء الله الحسنى في مجلدين ، وصنّف كتاباً بعنوان « التذكرة في أمور الآخرة » [6] في مجلدين .

وأنجبت قرطبة في علم أصول الفقه علماء مشهورين بالفضل ، فظهر بها طائفة من كبار الفقهاء على المذاهب الأربعة : فمن أئمة فقهاء المذهب المالكي يحيى بن يحيى الليثي (ت ٢٣٤) وأستاذه زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون أول من أدخل المذهب المالكي إلى الأندلس[7]، وتولى يحيى بن يحيى الليثي فتيا الأندلس برأي مالك بعد عيسي بن دينار ، وذكروا أنه لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس منذ دخلها الإسلام من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر ما أعطاه يحيى بن يحيى [8] . ومن دعائم الفقه على المالكية بقرطبة في

---

(١) المقري ، ج ٢ ص ٤١٤ .
(٢) ابن بشكوال ، الصلة ، ج ٢ رقم ١٢٧٦ .
(٣) المقري ، ج ٢ ص ٢٥٣ .
(٤) ابن الفرضي ، قسم ١ ص ٩٢ .
(٥) جنثالث بالنثيا ، ص ٤٠٩ .
(٦) المقري ، ج ٢ ص ٤٠٩ .
(٧) نفس المصدر ، ج ٢ ص ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٥١ .
(٨) ابن الفرضي ، قسم ٢ ص ١٨٠ ترجمة رقم ١٥٥٦ .

عصر أمراء بني أميـة يحيى بن ابراهيم بن مزين القرطبي (ت ٢٥٩) الذي صنف كتباً منها كتاب تفسير الموطأ ، وكتاب تسمية الرجال المذكورين فيه، وكتاب المستقصية ، وكتاب في فضـائل العلم [١] ، وقاسم بن إصبغ البياني الذي سبق أن تحدثنا عنه ، ويحيى بن مضر القيسي الذي قتل يوم الهيج في سنة ١٨٩ . ومنهم في عصر الخلافة محمد بن يحيى بن عمر لبابة المعروف بالبوجون (ت ٣٣٠) [٢] ، ومحمد بن يبقي بن محمد زرب (ت ٣٨١) وكان أحفظ أهل عصرة للمسائل علي مذهب مالك وأصحابه [٣] ، ويحيى ابن عبد الله بن يحيى بن يحيى بن يحيى الليثي (ت ٣٦٧) [٤] . وبرز من فقهاء المالكية بقرطبـة زمن المرابطين أبو الوليـد محمد بن أحمد بن رشد (ت ٥٢٠) جد الفيلسوف ابن رشد ، وكان عارفاً بالفتوى علي مذهب مالك وأصحابه ، بصيراً بآرائهم [٥] . ومن أساطين فقهاء الشافعية من أهل قرطبة قاسم بن محمد بن سيار القرطبي (ت ٢٧٧) الذي لم يكن في الأندلس مثله في حسن النظر والبصر بالحجة [٦] ، وفيه يقول ابن الفرضي « وكان يذهب مذهب الحجة والنظر وترك التقليد ويميـل إلى المذهب الشافعي » ، وألف قاسم في الرد على يحيى بن ابراهيم بن مزين وعبد الله بن خالد والعتبي كتاباً ضمّنه الكثير من آرائه . ومنهم بقي بن مخلد (ت ٢٧٦) الذي ملأ الأندلس حديثاً ورواية ، وقد أنكر عليه أصحابه الأندلسيون عبد الله بن خالد ومحمد ابن الحارث ما أدخله من كتب الاختـلاف وغرائب الحديث ، وأغروا به السلطان وأخافوه به [٦] . ومنهم أيضـاً يحيى بن عبد العزيز المعروف بابن

---

(١) ابن الفرضي ، قسم ٢ ص ١٨١ ترجمة رقم ١٥٥٨ .
(٢) نفس المصدر ، قسم ٢ ص ٥١ ترجمة ١٢٣١ .
(٣) نفس المصدر ، قسم ٢ ص ٩٤ ترجمة ١٣٦٣.
(٤) نفس المصدر ، قسم ٢ ص ١٩٢ ترجمة ١٥٩٧ .
(٥) ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ١١٥٤ .
(٦) ابن الفرضي ، قسم ١ ص ٣٥٥ ترجمة ١٠٤٩ — المقري ، ج ٢ ص ٢٥٦ .
(٧) ابن الفرضي، قسم ١ ص ٩٢ ترجمة ٢٨٣ — المقري ، نفح الطيب، ج ٣ ص ٣٧٣.

الخراز (ت ٢٩٥) [١] ، وهارون بن نصر (ت ٣٠٢) الذي صحب بقي ابن مخلد نحواً من ١٤ سنة وأكثر الرواية عنه ، وكان يميل إلى كتب الشافعي فعني بها وحفظها وتفقه فيها ، وكان من أهل النظر والحجـة [٢] ، ومنهم عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن بن يحيى التجيبي القرطـبي المعروف بابن الزيات (ت ٣٩٠) [٣] . وكان ابن حزم في بداية أمره شافعياً ، ثم أصبح ظاهرياً بعد ذلك، وجاهر بالأخذ بأهل الظاهر أتباع داود بن علي بن خلف العباسي [٤] . وقد أعلن ابن حزم ظاهريته في أبيات له نصّها :

وذي عذل فيمن سباني حسنه ... يطيل ملامي في الهوى ويقول
أمن أجل وجه لاح لم تر غيره ... ولم تدر كيف الجسم أنت عليل
فقلت له: أسرفت في اللوم، فاتئد ... فعندي ردي لو أشاء طويل
ألم تر أني ظاهري ، وإنني ... على ما أرى حتى يقوم دليل [٥]

ومن أكبر فقهاء قرطبة من أهل الظاهر أيضاً منذر بن سعيد بن الله البلوطي (ت ٣٥٥) [٦] وأبو الخطاب عمر بن الحسن بن دحية (ت ٦٣٣) [٧] .

---

(١) ابن الفرضي ، قسم ٢ ص ١٨٥ ترجمة ١٥٧٠ .
(٢) نفس المصدر ، قسم ٢ ص ١٦٨ ترجمة ١٥٣١ .
(٣) نفسه ، قسم ١ ص ٢٤٧ ترجمة ٧٥٧ .
(٤) ابن سعيد ، ج ١ ص ٣٥٥ – المقري ، ج ٢ ص ٢٨٣ .
(٥) الحاجري ، ابن حزم صورة اندلسية ، ص ١١٩ – عبد الكريم خليفة ، ابن حزم الأندلسي ، حياته وأدبه ، بيروت ، ص ٦٨ .
(٦) ابن الفرضي، قسم ٢ ص ١٤٤ ترجمة ١٤٥٤ – المقري، ج ٢ ص ٣٠١ وما يليها.
(٧) المقري ، ج ٢ ص ٣٠١ – ٣٠٧ .

(٤)

التاريخ والجغرافية

أنجبت قرطبة عدداً من كبار المؤرخين في الأندلس من أقدمهم [1] ثلاث يحملون اسم الرازي اشتغلوا جميعاً بالكتابة التاريخية ، أولهم محمد بن موسي الرازي (ت ٢٧٣) الذي صنّف « كتاب الرايات » ، وهو كتاب تاريخي وجغرافي [2] ، وثانيهم أحمد بن محمد بن موسي الرازي الملقب بالتاريخي (ت ٣٢٤) الذي ألف كتابين أحدهما في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها على نحو ما كتبه ابن أبي طاهر في أخبار بغداد [3] ، والثاني في أخبار ملوك الأندلس ، بقيت منه ترجمة إسبانية لمقدمة هـــذا الكتاب عنوانها : « Cronica del Moro Rasis » نقلت عن ترجمة برتغاليـــة وضعها القس خيـــل بيريس Jil Perez بأمر ملك البرتغال دون ديونيس (١٢٧٩–١٣٢٥) فأتمها بمساعدة نفر من المغاربة يسمى أحدهم « المعلم محمد » Maese Mohamad ، وقد عثر في سنة ١٩٥٢ على أصل الترجمة الاسبانية لمقدمة الرازي ، فنشر الأستاذ ليفي بروفنسال ترجمتها إلى الفرنسية مع محاولة جدية لاعادة جمع النص العربي [4] من واقع المقتطفات الواردة في نص فرحة

---

(١) سبق آل الرازي مؤرخ أندلسي هو عبد الملك بن حبيب (ت ٢٣٨) الذي لقب بعالم الأندلس ، ألف كتاباً عن فتح الأندلس ما زال مخطوطاً في مكتبة بودليان بأكسفورد اعتمد فيه على رواة مصريين ، وقد نشر الدكتور محمود مكي القسم الخاص بفتح الأندلس ذيلاً لمقالة بعنوان Mahmud Makki, Egipto y los origines de la historiografia arabe espanola ، في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد، مجلد ٥ ، عدد ١ – ٢ ، ١٩٥٧ ص ١٥٧ – ٢٤٩ من القسم الأوروبي ، والنص العربي يشمل الصفحات من ٢٢١ الى ٢٤٣.

(٢) المقري ، ج ٤ ص ١٠٨ .

(٣) المقري ، ج ٤ ص ١٦٦ – جنثالث بالنثيا ، ١٩٦ .

(٤) Lévi - Provençal, La Description de l'Espagne d'Ahmad al - Razi; Essai de reconstitution de l'original arabe et traduction française, al - Andalus, vol. XVIII, fasc. I, Madrid, 1953, pp. 51 - 108

الأنفس لابن غالب ، والروض المعطار للحميري ، والمقتبس لابن حيـان ، ونظام المرجان في المسالك والممالك للمذري ابن الدلائي . وثالث آل الرازي المؤرخين عيسى بن أحمد بن محمد بن موسى الرازي الذي ألف كتبـاً في تاريخ الأندلس ، منها « تاريخ الأندلس » ، و «حجاب خلفاء الأندلس» [١] ، ويبدو أنهذا الكتاب الأخير كان تكملة لكتاب أحمد الرازي السالف الذكر. وقد كانت كتب أحمد الرازي ذات أثر كبير في التاريخ الاسباني الذي كتبه بدرو دل كورّال (القرن ١٦) في كتابـــه المعروف بالتاريخ العربي La Cronica Saracina [٢] .

وإلى جانب آل الرازي ، ظهر في عصر الخلافة عدد من كبار المؤرخين نذكر منهم أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز المعروف بابن القوطيـــة القرطبي (ت ٣٦٧) الذي كان حافظاً لأخبار الأندلس ، ملمـــاً برواية سير أمرائها ، وله في ذلك كتاب عن فتح الاندلس عنوانه : «تاريخ افتتاح الأندلس» ويعتبر هذا الكتاب من أهم مصادر تاريـــخ الأندلس زمن الولاة وفي عصر الإمارة الأموية . كذلك نبغ في هذه الفترة من مؤرخي قرطبة عريب بن سعد (ت ٣٦٩) وكان قرطبياً من أصل مسيحي ، وكتب مختصراً لكتاب تاريخ الطبري ، فيما يتعلق بأخبار المشرق من سنة ٢٨٩ الى ٣١٩ ضمّنه أخبار المغرب والأندلس [٣] .

وأعظم من أنجبتهم قرطبة (في عصري الخلافة والطوائف) من المؤرخين بلا منازع الكاتب الكبير أبو مروان حيان بن خلف بن حيـــان المعروف

---

(١) جنثالث بالنثيا ، ص ١٩٨ .

(٢) جمال الدين الشيال ، التاريخ الاسلامي وأثره في الفكر التـــاريخي الأوروبي في عصر النهضة ، بيروت ، ١٩٦٩ ص ٣٨ .

(٣) جنثالث بالنثيا ، ص ٢٠٦ .

بابن حيان (ت ٤٦٩) ويعتبر أعظم مؤرخي الأندلس ، وشيخهم وإمامهم ، ويعتقد دكتور محمود مكي أن اتجاه ابن حيان إلى كتابة التاريخ إنما تولّد من دقة إحساسه ، ونفاذ نظرته ، وقدرتـه الطبيعية على الاستيعاب ، وملكته النقدية المتأملة[1] ، وأهم ما صنّفه من كتب التاريخ أربعة هي : المقتبس ، والمتين ، وأخبار الدولة العامرية ، والبطشة الكبرى ، وكلها تؤلف ما يعرف باسم التاريخ الكبير لابن حيان الذي كان موضع اعتزاز ابن حزم في رسالته في فضل الأندلس[2] . ولم يتبق اليوم من كتبه إلا قطع من المقتبس ، نشر بعضها والبعض الآخر ما زال مخطوطاً[3] . ومن كبار مؤرخي قرطبة في نفس الفترة الأديب الفيلسوف المؤرخ أبو محمد علي بن حزم القرطبي (ت٤٥٤) الذي صنّف في التاريخ عدة مصنفات أهمها: كتاب جمهرة أنساب العرب[4] ، وكتاب نقط العروس[5] .

واتجه عدد من مؤرخي قرطبة إلى التراجم في علماء الأندلس ، وأشهرهم أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري (ت ٤٦٣) الذي وضع كتاباً عن فقهاء قرطبة[6] ، وأبو عبد الله محمد بن الحارث بن أسد الخشني (ت ٣٦١) مؤلف كتاب « تاريخ قضاة قرطبة » الذي يعتبر من أهم مصادر دراسة الحياة الاجتماعية في الأندلس من الفتح حتى عصر الحكم ، وأخباره على حد قول ريبيرا مصوغة في قالب من الواقعية لا يبلغ إلى تصويرها

---

(١) محمود علي مكي ، تمهيد : للمقتبس من أنباء أهل الأندلس ، القاهرة ١٩٧١ ص ٢١ .

(٢) المقري ، ج ٤ ص ١٦٧ .

(٣) راجع الدراسة العميقة التي أعدها الدكتور محمود علي مكي عن ابن حيان في مقدمة القطعة التي نشرها من عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط من ص ٧ إلى ١٢٨ ، وما ورد عنه في : Pons Boigues, Historiadores y Geograficos arabigo - espanoles, Madrid, 1926, p. 152

(٤) نشره الأستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ ، وطبعة ١٩٦٢ .

(٥) نشره الدكتور شوقي ضيف ، القاهرة ١٩٥١ .

(٦) جنثالث بالنثيا ، ص ٢٦٧ .

كتاب غيره من كتب التاريخ أو الأدب [1] ، ومنهم محمد بن عبد الله بن عبد البر المعروف بالكشكيتاني القرطبي (ت ٣٤١) الذي صنف كتاباً في الفقهاء والقضاة بقرطبة والأندلس ، ومنهم أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي المعروف بابن الفرضي (ت ٤٠٣) مؤلف كتاب تاريخ علماء الأندلس أقدم معجم لعلماء الأندلس وصل إلينا ، وعلى نسقه ألف أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود القرطبي المعروف بابن بشكوال (ت ٥٧٨) كتاب الصلة الذي أكمل به تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي .

أما في الجغرافية فإن قرطبة تزهى بأنها أنجبت عدداً من كبار الجغرافيين الأندلسيين ، منهم أحمد بن محمد الرازي الذي سبق أن تحدثنا عنه مؤرخاً ، تتلمذ الرازي على قاسم بن إصبغ البياني (ت ٣٤٠) الذي قيل أنه اشترك مع الوليد بن خيزران في ترجمة كتاب تاريخ هروسيوس عن اللاتينية . وقد أفاد أحمد الرازي من هذه الترجمة وحذا حذوها في كتابه أخبار ملوك الأندلس ، إذ بدأه بمقدمة جغرافية هامة أتبعها بدراسة لتاريخ الأندلس ، وفي هذه المقدمة الجغرافية تأثر بهروسيوس في وصفه لجزيرة الأندلس كما تأثر ببطليموس في تصوره العام لشكل البلاد المثلث ، وأضاف إلى ذلك ما استطاع جمعه من مادة عن طريق السماع والمشاهدة [2] ، وقد اعتمد كثير من جغرافيي الأندلس على هذه الدراسة ، نذكر منهم البكري والادريسي وابن غالب .

ومن جغرافيي قرطبة المشهورين زمن الخلافة ، أبو بكر عبد الله بن عبد الحكم المعروف بابن النظام ، وأبو عبيد الله البكري . والبكري هذا

---

(١) جنثالث بالنثيا ، ص ٢٧٠ .

(٢) حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مدريد ١٩٦٧ ص ٣٩ — عبد العزيز سالم ، التأريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ (راجع الفصل الخاص بالجغرافية في الأندلس) .

(ت ٤٨٧) هو أكبر جغرافي أنجبته الأندلس ، فقد ألف كتابين جليلين في الجغرافية أولهما « معجم ما استعجم » الذي يعد أول معجم جغرافي عربي وصل إلينا أورد فيه « جملة ممـــا ورد في الحديث والأخبار ، والتواريخ والأشعار ، من المنازل والديار ، والقرى والأمصار ، والجبـــال والآثار ، والمياه والآبار ، والدارات والحرار ، منسوبة محددة ، ومبوبة على حروف المعجم مقيدة »[١] . أما كتابه الثاني الموسوم بالمسالك والممالك ، فقد وصلت إلينا منه قطعة كبيرة نشرهـا البارون دي سلان بعنوان « المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب» [٢] ، كما قـام الدكتور عبد الرحمن الحجي بنشر النص المتعلق بالأندلس وأوروبا [٣] . وعلى الرغم من أن البكري لم يبرح قط أرض الأندلس ، إلا أنه اعتمد على مصادر جغرافية عربية وإسبانية منهـا كتاب مسالك افريقية وممالكها لأبي عبد الله محمد بن يوسف الوراق (٢٩١ — ٣٦٢) بينما يظن سيمونيت أنه اعتمد في وصف بعض النواحي على إيزودور الإشبيلي في كتابه أصول الكلمات، إذ أن وصفه لجزائر فرطناطش islas Fortunatas المعروفة بالسعادات أو جزر كنارياس يبدو وكأنه مأخوذ عن إيزودور[٤] .

(٥)

الرياضيات والطب والصيدلة

يرتبط علم الطب والصيدلة ارتباطاً وثيقاً في العصور الوسطى بالرياضيات

---

(١) البكري ، معجم ما استعجم ، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا ، ج ١ القاهرة ١٩٤٥ ، ص ١٠٣ .

(٢) نشر في الجزائر سنة ١٩١١ .

(٣) البكري ، جغرافية الأندلس وأوروبا من كتـــاب المسالك والممالك ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجي ، بيروت ١٩٦٨ .

(٤) جنثالث بالنثيا ، ص ٣١١ .

والفلسفة والفلك والهندسة ، ولذلك ما يجمع كثيراً العلماء بين هذه العلوم ويصعب علينا أن نفرق الرياضي منهم من الطبيب أو الصيدلاني. ولقد أنجبت قرطبة عدداً كبيراً من العلماء في كافة العلوم العقلية، وكانت مركزاً للدراسات الطب والهندسة في سائر الأندلس ؛ ففيها ظهرت أعظم مجموعة من الأطباء والصيادلة الذين كانوا يؤلفون مدرسة في علم الطب والعقاقير . وكان أهل الأندلس منذ الفتح حتى عهد الأمير عبد الرحمن بن معاوية مؤسس دولة بني أمية في الأندلس يعولون في الطب « على كتاب مترجم من كتب النصارى يقال له الإبريشم ومعناه المجموع أو الجامع، وكان قوم من النصارى يتطببون، ولم تكن لهم بصارة بصناعة الطب والفلسفة والهندسة في أيام عبد الرحمن ابن الحكم» [1]. ثم تقدم الطب في أيام الأمير محمد، ومع ذلك فلم تكن هناك حركة تأليف في الطب والرياضيات إلى أن كانت دولة عبد الرحمن الناصر ، « فتتابعت الخيرات في أيامه ، ودخلت الكتب الطبية من المشرق وجميع العلوم . وقامت الهمم ، وظهر الناس ممن كان في صدر دولته من الأطباء المشهورين » [2] . ويعتبر عصر الناصر أزهى عصور قرطبة في العلوم الرياضية وخاصة الطب. ويعبر ابن أبي أصيبعة عن هذا الازدهار، عندما يشير نقلاً عن ابن جلجل الى وصول الراهب نقولا إلى قرطبة من قبل الامبراطور البيزنطي رومانوس في سنة ٣٤٠ « وكان يومئذ بقرطبة من الأطباء قوم لهم بحث وتفتيش وحرص على استخراج ما جهل من أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس إلى العربية ، وكان أبحثهم وأحرصهم على ذلك من جهة التقرب الى الملك عبد الرحمن الناصر ، حسداي ابن بشروط الاسرائيلي ، ... وكان في ذلك الوقت من الأطباء الباحثين عن تصحيح أسماء عقاقير الكتاب وتعيين أشخاصه محمد المعروف بالشجّار (عالم النبات) ، ورجل كان يعرف بالبسباسي

---

(١) سليمان بن حسان الأندلسي المعروف بابن جلجل ، طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق الأستاذ فؤاد السيد ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٩٢ .

(٢) ابن جلجل ، المصدر السابق ، ص ٩٨ .

وأبو عثمان الجزار الملقب باليابسة ، ومحمد بن سعيد الطبيب ، وعبد الرحمن ابن إسحق بن هيثم ، وأبو عبد الله الصقلي ، وكان يتكلم باليونانية ويعرف أشخاص الأدوية .

قال ابن جلجل : وكان هؤلاء النفر كلهم في زمان واحد مع نقولا الراهب أدركته ، وأدركت نقولا الراهب في أيام المستنصر ، وصحبتهم في أيام المستنصر الحكم . وفي صدر دولته مات نقولا الراهب ، فصح ببحث هؤلاء النفر الباحثين عن أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس تصحيح الوقوف على أشخاصها بمدينة قرطبة خاصة بناحية الأندلس ، ما أزال الشك فيها عن القلوب ، وأوجب المعرفة بها بالوقوف على أشخاصها ، وتصحيح النطق بأسمائها بلا تصحيف إلا القليل منها الذي لا بال به ، ولا خطر له ، وذلك يكون في مثل عشرة أدوية » [1] .

وهكذا ازدهر الطب والصيدلة بقرطبة ازدهاراً دعا الحكم المستنصر إلى إنشاء ديوان الأطباء ، يقيد فيه اسم كل طبيب يحترف مهنة الطب والصيدلة ويزاولها ، فإذا ما ارتكب خطئاً يتوجب العقاب أسقط اسمه من الديوان ، كما حدث بالنسبة للطبيب أحمد بن حكيم بن حفصون الذي لازم الحاجب جعفر الصقلبي ، فلما سجن جعفر وسقطت منزلته ثم مات ، أسقط صاحبه الطبيب « من ديوان الأطباء ، وبقي مخمولاً إلى أن توفي » [2] .

وفتحت قرطبة أبوابها للدارسين والباحثين والعلماء في الطب والرياضيات، من جميع أنحاء الأندلس أمثال ابن البغونش الطليطلي الذي قدم الى قرطبة لطلب العلم بها ، « فأخذ عن مسلمة بن أحمد علم العدد والهندسة ، وعن محمد ابن عبدون الجبلي ، وسليمان ابن جلجل، وابن الشناعة ونظرائهم علم الطب ،

---

(١) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٤٩٤ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٤٩٢ .

ثم عاد إلى طليطلة »[1] . وفي عصر الحكم تولى أحمـــد بن أحمد الحراني الطبيب إقامة خزانة بالقصر للطب لم يكن قط مثلها، رتب لها ١٢ صبياً من الصقالبة لتجهيز الأدوية المركبة والمعجونات [2] .

ومن أقدم العلماء في الحساب والنجوم بقرطبـة مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة الليثي القرطبي المعروف بصاحب القبلة (ت ٢٩٥) [3] ، ويحيى بن يحيى المعروف بابن السمينة القرطـــبي (ت ٣١٥) ، وكان بصيراً بالحساب والنجوم والطب متصرفاً في العلوم[4] ، ومسلمة بن القاسم القرطبي (ت ٣٥٣) ومحمد بن عبدون الجبلي العدوي العذري الذي اشتغـل بالحساب والهندسة في أيام الحكم المستنصر [5] ، وقـــد رحل إلى البصرة في سنة ٣٤٧ وأقام حيناً بالفسطاط ودبر بيمارستانها[6] ، ثم عـاد إلى الأندلس في سنة ٣٦٠ ، وخدم الحكم المستنصر والمؤيـد بعلمه في الطب . وبرع أبو القاسم إصبغ بن محمد بن السمح المهندس (ت ٤٢٦) في علم النجوم والهندسة والعدد ، وألف في ذلك عدداً من الكتب منها كتاب المدخل إلى الهندسة في تفسير كتاب إقليدس ، ومنها كتاب ثمار العدد المعروف بالمعاملات ، ومنهـا كتاب طبيعة العدد ، وكتابه الكبير في الهندسة ، وكتابان في الأسطرلاب أحدهمـا في التعريف بصورة صنعتها والآخر في العمل بها والتعريف بجوامع ثمرتها [7] .

ومن أعظم علماء الرياضة بقرطبة في عصر الخلافة الأموية أبو القاسم مسلمة

---

(١) ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٤٩٥ .
(٢) ابن جلجل ، ص ١١٣ .
(٣) ابن الفرضي ، قسم ٢ ، ترجمة رقم ١٤٢٠ ص ١٢٦ .
(٤) نفسه ، ترجمة ١٥٨٠ قسم ٢ ص ١٨٨ — ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٢ .
(٥) ابن جلجل ، ص ١١٥ — ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٩٢ — المقري ، ج ٢ ص ٣٥١ .
(٦) ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٩٢ — المقري ، ج ٢ ص ٣٥١ .
(٧) ابن أبي أصيبعة ص ٤٨٣ .

ابن أحمد المرجيطي القرطبي (ت ٣٩٨) وكان « إمـام الرياضيين » بالأندلس في زمن الحكم، وأعلم من سبقه في علم الأفلاك وحركات النجوم ، واهتم بإرصاد الكواكب ، وشغف بدراسة كتاب بطليموس المعروف بالمجسطي . وقد صنف عدداً من الكتب منها كتاب في عـلم العدد المعروف في الأندلس بالمعاملات ، وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيـج البتاني ، وعنى بزيج محمد بن موسى الخوارزمي ، وحوّل تاريخـه من الفارسي إلى العربي ، ووضع أوساط الكواكب فيه لأول تاريخ الهجرة ، وزاد فيه جداول [1] . وقد تتلمذ عليه عدد كبير من التلاميـــذ في الأندلس من أشهرهم ابن السمح المهنـدس (ت ٤٢٦) ، وابن الصفار المهندس المنجم ، والزهراوي القرطـبي المهندس الطبيب ، والكرمـاني المهندس ، وابن خلدون الاشبيلي المهندس الطبيب ، وابن الخياط ، وابن البغونش ، وجميعهم درسوا عليه الهندسة والعدد . أمـا ابن السمح فقد تحدثنا عنه ، وأما ابن الصفار فهو أبو القاسم أحمد بن عبد الله ابن عمر ، وكان عالمـاً بالعدد والهندسة والنجوم ، وأقام بقرطبة حيناً ليتعلم ذلـــك على يد أستاذه ، ثم خرج من قرطبة عندما اجتاحتها الفتنة واستقر بدانية بشرق الأندلس . وقد ألف كتابـاً في العمل بالاسطرلاب [2] . ومن تلامذتـــه أخوه محمد بن الصفار الذي عمل اسطرلاباً رائعاً . وأما أبو الحسن علي بن سليمان الزهراوي فقد كان عالمـاً بالعدد والهندسة والطب ، وألف كتابـــاً في المعاملات على طريق البرهان ، وهو الكتاب المسمى بكتاب الأركان [3] . أما الكرماني ، فهو أبو الحكم عمرو بن أحمد بن علي الكرماني القرطبي (ت ٤٥٨) وكان أحد الراسخين في علم العدد والهندسة ، وقد ذكر تلميذه محمد بن الحسن بن يحيى المهندس المنجم أنه « ما لقي أحداً يجاريـه في

---

(١) ابن أبي أصيبعة، ص ٤٨٣ – القفطي، تاريخ الحكماء ، تحقيق جوليوس ليبيرت، ليبزج ١٩٠٣ ، ص ٣٢٦ .

(٢) ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٤ .

(٣) نفسه ، ص ٤٨٤ .

علم الهندسة ، ولا يشق غبـــاره في فك غامضها وتبيين مشكلها واستيفاء أجزائها . وقد رحل إلى المشرق وطاف في أقطـاره ثم عاد إلى الأندلس ، واستقر بسرقسطة [1] . وأما ابن الخياط ، فهو أبو بكر يحيى بن أحمـــد (ت ٤٤٧) ، برع في النجوم واشتهر بعلمهـا ، وخدم بها سليمان بن حكم بن الناصر زمن الفتنــة [2] . وابن البغونش هو أبو عثمان سعيد بن محمـــد بن البغونش الطليطلي ، رحل إلى قرطبة وأخذ عن مسلمة علم العدد والهندسة ، ثم عاد إلى بلده ، واتصل بأميرها الظافر اسماعيل بن ذي النون [3] .

وأول من اشتغل بالطب في الأندلس جماعة من المعاهدة المتطببين منهم : خالد بن يزيد بن رومان النصراني ، وكان بارعاً في الطب في زمن الأمير محمد ، كما كان يصنع بيده الأدوية الشجـارية [4] ، وجواد النصراني ، وكان في أيام الأمير محمد ، وينسب اليه اللعوق ودواء الراهب والبسونات المنسوبة إليـه والى حمدين بن أبا [5] ، وحمدين بن أبا هذا كان طبيباً حاذقاً مجرباً ، نبغ في أيام الأمير محمد ، وإليه تنسب بعض السفوفات [6] ، ومنهم ابن ملوكة النصراني الذي اشتهر في أيام الأمير عبد الله وأول دولة الناصر ، وكان يصنع الأدوية بنفسه ، ويفصد العروق [7] . ومنهم اسحق الطبيب ، وكان مسيحي النحلة ، أقام بقرطبة في عهد الأمير عبد الله ، وكان يصنع الأدوية بنفسه [8] .

وأول من اشتهر بالطب في الأندلس من المسلمين في عهد الأمير محمد أحمد

---

(١) ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٤ .
(٢) نفسه ، ص ٤٩٧ — جنثالث بالنثيا ، ص ٤٥٠ .
(٣) نفسه ، ص ٤٩٥ .
(٤) ابن جلجل ، ص ٩٦ — ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٥ .
(٥) ابن جلجل ، ص ٩٣ — ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٥ .
(٦) نفسه ، ص ٩٣ .
(٧) نفسه ، ص ٩٧ — ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٦ .
(٨) ابن جلجل ، ص ٩٨ — ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٨ .

ابن إياس القرطبي ونبـغ بعده كثيرون من أهل قرطبة ، منهم محمد بن فتح طملون الذي برع في الطب براعة علا بها عن أسلافه ، واختص بعمل المراهم لعلاج القروح [1] . وفي عصر عبد الرحمن الناصر تألقت شخصيات عديدة في علم الطب والصيدلة اشتغل معظمهم في خدمة الخليفة ومعالجة كرائمه وحرمه، نذكر منهم: يحيى بن اسحق النصراني [2] طبيب عبد الرحمن الناصر الخاص، وكان ذكياً بصيراً بالعلاج ، يصنع الأدوية بنفسه ، وقـــد حظى بثقة الناصر بحيث استوزره وجعله طبيبه وطبيب حرمه وكرائمه . وقد ألف كتاباً في الطب يشتمل على ٥ أسفار يسمى الابريشم [3] ، ومنهم عمران بن أبي عمر ، وكان من أطبـاء عبد الرحمن الناصر ، وألف له حب الأنيسون [4] ، ومنهم أبو بكر سليمان بن تاج ، وكان من أطباء الناصر ، عالجه من رمد عرض له من يومه بشياف (مرهم) كما عالج صاحب البرد من ضيق التنفس بلعوق لعقــه فبرأ من يومه بعد أن أعيا علاجه الأطباء ، وكان يعالج آلام الحضر بحب من حبه فيبرأ المريض على الأثر [5] ، ومنهم ابن أم البنين القرطبي الذي خــدم الناصر بصناعة الطب ، وكان ينادمه [6] ، ومنهم الوزير أبو المطرف عبــد الرحمن بن شهيد مصنف الأدوية المفردة ، وكان على حـد قول المقري « آية الله تعالى في الطب وغيره ، حتى أنه عانى جميع ما في كتابـه من الأدوية المفردة ، وعرف ترتيب قواها ودرجاتها . وكان لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن ، بل بالأغذية أو ما يقرب منهـا ، وإذا اضطر إلى الأدوية فلا يرى التداوي بالمركبة ما وجد سبيـلا إلى المفردة ، وإذا اضطر الى المركب لم

---

(١) ابن جلجل ، ص ٩٩ – ابن أبي أصيبعة ص ٤٨٦ .

(٢) أسلم فيما بعد .

(٣) ابن جلجل ، ص ١٠١ – ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٨ .

(٤) نفسه ص ٩٨ – ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٦ .

(٥) نفسه ، ص ١٠٢ ، ١٠٣ – ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٩ .

(٦) ابن جلجل ص ١٠٣ – ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٩ .

يكثر التركيب ، بل يقتصر على أقـــل ما يمكنه ، وله غرائب مشهورة في الإبراء من الأمراض الصعبة والعلل المخوفة بأيسر علاج وأقربه » ، ومنهم أبو عثمان سعيد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد ربه ، وكان طبيباً مجيداً ، وله في الطب أرجوزة كما كان له بصر بحركات الكواكب وطبائعها ومهاب الرياح، وكتب في الصيدلية كتاباً بعنوان « الاقراباذين » [1] . ومن أطبـاء الناصر أيضاً أبو حفص عمر بن حفص بن برتق [2] ، وإصبغ بن يحيى [3] وحسداي ابن شبروط اليهودي الذى أرسله الخليفة الناصر إلى شانجة السمين ليعالجه من سمنته المفرطة [4]. ومن أطباء قرطبة الذين دخلوا في خدمـــة كل من الناصر والمستنصر ، أبو الوليد محمد بن الحسين بن الكتاني ، ونبغ من بعده ابن أخيه أبو عبد الله محمد الكتاني الذي خدم المنصور وابنه المظفر [5] ، ومنهم أبو موسى هارون الأشوني ، وكان من شيوخ الأطباء [6] ، ومحمد بن تمليخ الذي خدم الناصر وأدرك فترة من عصر الحكم، وكان حظياً عند الحكم فولاه النظر في زيادته بجامع قرطبة،وله من الكتب كتاب فيالطب وكتاب الأشكال [7] .

وفي عصر الحكم برز أحمد بن أحمد بن يونس الحراني ، وكان أبوه قد وفد من الشرق أيام الأمير محمد . ورحل أحمد وأخوه عمر إلى المشرق زمن الناصر ثم عادا إلى الأندلس في سنة ٣٥١ ، فألحقهما الحكم بخدمتـــه بالطب وأسكنهما مدينة الزهراء، واستخلصهما دون غيرهما من الأطباء. ولما توفي عمر قرّب المستنصر أحمد منه وأدناه إليه،ورفع منزلته، وأسكنه في قصره بالزهراء

(١) ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٩ .
(٢) ابن جلجل ، ص ١٠٧ — ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٩٠ .
(٣) ابن جلجل ، ص ١٠٨ — ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٩١ .
(٤) المقري ، ج ١ ص ٣٤٢ .
(٥) ابن جلجل ص ١٠٩ – ابن أبي أصيبعة ص ٤٩١ .
(٦) ابن جلجل ، ص ١١٢ .
(٧) نفسه ، ص ١٠٨ — ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٩١ .

واتخذه طبيبه الخاص وطبيب أسرته لثقته فيه. وكان المستنصر نهما في الأكل، كثيراً ما يصاب بالتخمة ، فكان أحمد يصنع له الجوارشنات الحارة العجيبة. وكان أحمد هذا بصيراً بالأدوية المفردة وصانعاً للأشربة والمعجونات [1] .
ومن أطباء الحكم حسداي بن اسحق اليهودي [2] ، واحمد بن حكيم بن حفصون [3] . وفي عصر الحكم ذاعت شهرة الطبيب العالم الجراح أبو القاسم الزهراوي [4] الذي اتخذه الحكم أيضاً طبيباً خاصاً له ، وكان يعرف عند اللاتين باسم ابولكاسيس Abulcasis تحريفاً من أبي القاسم، و Alsaharavius تحريفاً من الزهراوي (ت ٤٠٣) ، وكان خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة، وله تصانيف في صناعة الطب أفضلها كتابه المعروف بالزهراوي ، وله كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف، وقد ترجمه جيراردو دي كريمونا الى اللاتينية بعنوان Liber Servitoris ، كما ترجم جيدو دي كاولياك كتاب الزهراوي في الجراحة إلى اللاتينية سنة ١٤٧٩ بعنوان Chirurgia Parva [5] .

وفي عصر هشام المؤيد ظهر عالمان في الطب ، أحدهما أبو بكر أحمد بن جابر الذي خدم المستنصر بالطب وأدرك صدراً من دولة المؤيد[6]، والثاني أبو داود سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل (ت بعد ٣٨٤) وقد عاصر كل من الناصر والمستنصر وصدراً من المؤيد ، واشتهر في عهد المؤيد ، فاتخذه طبيبه الخاص، وألف في عهده أكثر كتبه ، وكان خبيراً بالأدوية المفردة ، وكان قد فسرها من كتاب ديسقوريدس وأفصح عن مكنونها، وأوضح مستغلق مضمونها،

---

(١) ابن جلجل ، ص ١١٢ ، ١١٣ - ابن أبي أصيبعة ص ٤٨١ .
(٢) ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٩٨ .
(٣) نفسه ، ص ٤٩٢ .
(٤) ذكره ابن أبي أصيبعة باسم خلف بن عباس الزهراوي (ص ٥٠١) .
(٥) A. Gonzalez Palencia, Moros y Cristianos en Espana Medieval, Madrid. 1945
(٦) ابن جلجل ، ص ١١٠ - ابن أبي أصيبعة ، ٤٩٢ .

ويعبر عن ذلك بقوله : « وكانت لي معرفة في تصحيح هيولي الطب الذي هو أصل الأدوية المركبة حرص شديد وبحث ، حتى وهبني الله من ذلك بفضله بقدر ما اطلع من نيتي في إحياء ما خفت يدرس وتذهب منفعته »[1] .

وله من الكتب :

١ – كتاب تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس (ألفه سنة ٣٧٢ بمدينة قرطبة في دولة هشام المؤيد)[2] .

٢ – مقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس في كتابه مما يستعمل في صناعة الطب وينتفع به وما لا يستعمل لكيلا يغفل ذكره .

٣ – رسالة التبيين فيما غلط فيه بعض المتطببين .

٤ – كتاب يتضمن ذكر شيء من أخبار الأطباء والفلاسفة .

ومن مشاهير الأطباء القرطبيين والصيادلة في عصر الطوائف أبو عبيد الله البكري الجغرافي الذي كانت له معرفة بالأدوية المفردة وقواها ومنافعها وأسمائها ونعوتها ، وقد ألف في الحشائش كتاب « أعيان النبات والشجريات الأندلسية »[3] ، وعبد الرحمن بن إسحق بن الهيثم القرطبي الصيدلاني ، وينسب له من الكتب : كتاب الكمال والتمام في الأدوية المسهلة والمقيئة – كتاب الاقتصار والإيجاد في خطأ ابن الجزار في الاعتماد ، وكتاب الاكتفاء بالدواء من خواص الأشياء ، وكتاب السمائم . ومنهم الكرماني الطبيب المهندس

---

(١) ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٩٤ .

(٢) وصلت إلينا ترجمة لكتاب ديسقوريدس بعنوان كتاب الحشائش والأدوية لديسقوريدس ترجمة مهران بن منصور بن مهران ، نشره دكتور صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٦٥ .

(٣) ابن أبي أصيبعة ، ص ٥٠٠ .

الذي كان جراحاً ، اشتهر في القطع والشق والبط وغـــير ذلك من أعمال الصناعة الطبية [1] .

وفي عصر الموحدين بلغ الطب في الأندلس ذروة تقدمه ، وساهمت قرطبة التي فقدت مكانتها العلمية في عهد الفتنة في هذه الحركة ، فظهر من أبنائها الطبيب الفيلسوف أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمـــد بن رشد القرطبي (ت ٥٥٩) ، وكان متميزاً بالطب وله فيه كتاب الكليات ، الذي أجـاد في تأليفه ، وكان ابن رشد يؤمن بالتشريح ، ويقول : « من اشتغل بالتشريح ازداد إيماناً بالله » [2] ، ومن تلاميذه أبو عبد الله محمد بن سحنون القرطبي ، وأبو جعفر أحمـد بن سابق القرطبي وأبو محمد عبد الله بن أبي الوليد محمد ابن رشد .

(٦)

الفلسفة

لم يكن للأندلسيين في العصر الأموي حظ كبـير من الفلسفة ، فقد كان جل اهتمامهم منصرفاً إلى العلوم الدينية واللغوية من جهة ، والطب والهندسة والفلك من جهة ثانية . وكانت الفلسفة موضع اضطهاد ونفور ، لأنها تبيح التفكير في الوجود والعدم، وتدعو الى اصطناع عبارات من منازل الملحدين. ويذكر المقري أن كل العلوم كان لها عند الاندلسيين حظ كبير واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ، «فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم ولا يتظاهر بهما خوف

(١) ابن أبي أصيبعة ، ص ٤٨٥ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٥٣١ .

العامة ... فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلق عليه اسم زنديق ، وقيّدت عليه أنفاسه ، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة وأحرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة ، وكثيراً ما كان يأمر ملوكهم بإحراق كتب هذا الشأن إذا وجدت »[1] .

وأول من عرف بالاشتغال بالفلسفة في الأندلس أبو عبدالله محمد بن عبدالله ابن مسرة القرطبي الباطني (ت ٣١٩) ، وهو أول مفكر أصيل أنجبته قرطبة ، وكان يستر آراءه وراء ستار من آراء المعتزلة والباطنية ، وتنعكس في مذهبه الحقيقي آراء الأفلاطونية الحديثة [2]، وقوامها الأفكار التي قال بها فيلون الاسكندري وأفلوطين وفرفوريوس الصوري وبروقلس ونسبت إلى انبذوقليس ، وتعتمد على وجود مادة روحانية يشترك فيها جميع الكائنات عدا الذات الإلهية ، واعتبرت هذه المادة أول صورة برزت للعالم العقلي الذي يتألف من الجواهر الخمسة الروحانية [3] . واتهم ابن مسرة بالزندقة ، فخرج فاراً من الأندلس وتردد بالمشرق فترة اشتغل خلالها بلاقاة أهل الجدل وأصحاب الكلام ، ثم انصرف عائداً إلى الأندلس ، فأظهر نسكاً وورعاً ، واغتر الناس بظاهره فاختلفوا إليه وسمعوا منه ، ثم اتضح لهم سوء معتقده[4]، فأمر عبد الرحمن الناصر بإحراق كتبه ، خارج باب قرطبة . وخلف ابن مسرة تلاميذ حملوا لواء آرائه من بعده من بينهم رشيد بن فتح الدجاج القرطبي الذي اتهم بمذهب ابن مسرة (ت ٣٧٦) [5] ، والياس بن يوسف

---

(١) المقري ، ج ١ ص ٢٠٥ .

(٢) جنثالث بالنثيا ، ص ٣٢٩ — ٣٣٠ .

(٣) نفس المرجع .

(٤) ابن الفرضي ، قسم ٢ ، ص ٤٠ ، ترجمة رقم ١٢٠٤ .

(٥) نفس المصدر ، قسم ١ ، ص ١٤٧ ، ترجمة رقم ٤٣٩ .

الطليطلي، وخليل بن عبد الملك[1]، ومحمد بن عبدالله بن عمر بن خير القيسي. ولكن الحملة ضد أصحاب ابن مسرة ازدادت شدة في عهد المنصور بن أبي عامر الذي كان يتظاهر بالدين في سبيل دعم سلطانه ، فأحرق في بداية توليه الحجابة كثيراً من كتب الفلسفة [2] ، فتفرّق أصحاب المدرسة المسرّية في أقطار الأندلس .

ومع ذلك فقد اشتغل بعض المفكرين والعلماء بالفلسفة في زمن الحكم المستنصر بجانب اشتغالهم بالطب ، ومنهم أحمد بن حكيم بن حفصون ، وأبو بكر أحمد بن جابر ، وأبو عبد الله محمد بن الحسين الكتاني الذي اهتم بالمنطق والفلسفة .

ثم ازدهرت الفلسفة في عصر الموحدين ، وعلى الأخص في عهد أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ازدهاراً منقطع النظير، وبرز في قرطبة فيلسوف عظيم هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي الحفيد ، الذي عرف عند الأوربيين باسم Averroes . وكان أبو يعقوب يوسف محباً للفلسفة مقبلاً عليها، فجمع كثيراً من مؤلفاتها ، واحتضن من الفلاسفه ابن رشد وابن طفيل [3] . وكان أبو يوسف يعقوب المنصور يعظمه ويقربه اليه ، فكان مكيناً عنده وعند ولده الناصر ، ثم نقم عليه ونالت ابن رشد على يديه محنة شديدة : فقد أبعده الخليفة من حضرته، ونفاه في اليسانة، ومنعه أن يخرج منها، وأحرق جميع كتبه في الفلسفة ، ثم عفا عنه في سنة ٥٩٥ ﻫ ، واستدعاه إلى حضرته

---

(١) احسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي ، الجزء الثاني من المكتبة الأندلسية ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٥٢ — ٥٨ .

(٢) المقري ، ج ١ ص ٢٠٥ . وكذلك أحرق أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي كتب الفلسفة جميعها باستثناء الطب والحساب (المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣٨٥) .

(٣) المراكشي ، المعجب ، طبعة القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٣١٤ .

بمراكش حيث توفي في نفس العام . ويعلل المؤرخون سبب غضبه عليه بأنه ألـّف كتاباً في الحيوان ذكر فيه الزرافة ، وقال : «وقد رأيت الزرافة عند ملك البربر » يعني المنصور الموحدي ، فلما بلغ ذلك الخليفـــة ، نقم عليه . وذكروا أن ابن رشد اعتذر عن ذلك بأنه كان يقصد ملك البرّين[1]. ويعتبر ابن رشد من أجلّ فلاسفة الإسلام وأعظم ملخصي فلسفة أرسطوطاليس وشارحيها [2] ، فقد كانت شروحه لفلسفـــة أرسطو في المنطق وما وراء الطبيعة الأساس الذي قامت عليه الأفكار الفلسفيـــة الأوربية في عصر النهضة [3] . وكان لابن رشد من المؤلفات ما يقرب من ٧٨ كتابـاً في الفقه والفلسفة والطب ، منها : شروح مؤلفات أرسطو ، وقد ترجمت إلى اللاتينية ، ولم يبق منها سوى كتاب الكليات الذي ما يزال مخطوطا بالمكتبة الأهليـة بمدريد ، ويضم عدة رسائل ترجم منها الأب كارلوس كيروس رسالة ما وراء الطبيعة إلى الاسبانية في سنة ١٩١٩ . أما كتابـه تهافت التهافت الذي كان يعرف في العصور الوسطى باسم Destructio Destructionis فقد ألـّفه رداً على تهافت الفلاسفة للغزالي ، وله كتاب المقدمـــات في الفلسفة محفوظ اليوم بمكتبة الاسكوريال ، وكتاب اتصـال العقـل الفعال بالإنسان نشره الأب

---

(١) ابن أبي أصيبعة ، ص ٥٣١ – ابن عبد الواحد المراكشي ص ٣٨٤ . وراجع أيضاً في أسباب نكبة ابن رشد : ارنست رينان ، ابن رشد والرشدية ، تعريب الاستاذ عادل زعيتر ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٣٩ – ٤١ .

(٢) عبر ابن رشد عن إعجابه بأرسطوطاليس بقوله في مقدمة كتاب الطبيعيات : « إن مؤلف هذا الكتاب هو أعقـل اليونان أرسطوطاليس بن نيقوماخس الذي وضع علوم المنطق والطبيعيات وما بعد الطبيعة ، وأكملها » . وقال في كتاب آخر : « نحمد حمـداً لا حد له ذاك الذي اختار هذا الرجل للكمال فوضعه في أعلى درجات الفضل البشري التي لم يستطع أن يبلغهـا أي رجل في أي عصر كان » . وقـال ابن رشد أيضاً في كتابه تهافت التهافت : « إن مذهب أرسطو هو الحقيقة المطلقة ، وذلك لبلوغ عقله أقصى حدود العقـل البشري ، ولذا فإن من الحق أن يقال عنه إن العناية الإلهية أنعمت به علينا لتعليمنا مـا يمكن أن نتعلم ... » (راجع ابن رشد والرشدية ، ص ١٠ ، ٧٢ .

(٣) جودة الركابي ، في الأدب الأندلسي ، ص ٧٢ .

موراتا مع ترجمة له بالاسبانية في سنة ١٩٢٣ [١] . وقد تناولت فلسفة ابن رشد عدة مسائل تتدرج من أصل الكائنات إلى اتصال الكون بالخالق وعلاقة الإنسان به ، ثم المادة وخلق العالم [٢] . ولقد اصطدمت آراء ابن رشد بمعارضة شديدة من رجال الاكليروس ، وكان من أشد خصومها القديس توما الأكويني [٣] ، وريمون مرتيني [٤] ، ودانتي [٥] ، وريموندو لوليو [٦] ، بينما تقبل آراؤه أتباع المدرسة الفرنسسكية أمثال اسكندر الهالسي، وروجر بيكون، وسيجردي برافانتي في جامعة باريس .

تم بعون الله

---

(١) جنثالث بالنثيا ، ص ٣٥٦ - ٣٥٧ .
(٢) نفس المرجع - لطفي عبد البديع ص ٥٤ .
(٣) ارنست رينان ، ص ٢٤٨ - ٢٥٧ .
(٤) نفس المرجع ، ص ٢٥٨ .
(٥) ارنست رينان ، ص ٢٦٠ .
(٦) يقول رينان : « يعتبر ريمون لول بطل هذه الحروب الصليبية ضد الرشدية ، فالرشدية عنده هي الإسلام في حقل الفلسفة ، ومن المعلوم أن هدم الإسلام كان حلم جميع حياته » (رينان ، ص ٢٦٧) .

قائمة المراجع

مراجع الكتاب

أولاً – مصادر يونانية

١ – ديسقوريدس: كتاب الحشائش والأدوية ، ترجمة مهران بن منصور بن مهران ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، دمشق ، ١٩٦٥ .

ثانياً – مصادر عربية

٢ – ابن الأبار : (أبو عبيد الله محمد بن عبد الله القضاعي) كتاب التكملة لكتاب الصلة ، تحقيق فرنشسكو كوديرة ، مدريد ، ١٨٨٦ .

٣ – « « الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٤ – « « كتاب التكملة لكتاب الصلة ، ملحق نشره جنثالث بالنثيا ، في كتابه Miscelanea de estudios y textos arabes, Madrid 1915

٥ – ابن الأثير : (علي بن أحمد بن أبي الكرم) : كتاب الكامل في التاريخ ، القاهرة ، ١٣٥٣ هـ ، وطبعة ليدن ١٨٦٧ .

٦ — الإدريسي : (الشريف محمد بن عبد العزيز) : صفة المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، نشره دوزي ودي غوية ، ليدن ١٧٦٦ ووصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة المشتاق ، نشره الفريد ديسيه لامار مع الترجمة الفرنسية ، الجزائر ، ١٩٤٩ .

٧ — ابن أبي أصيبعة : (موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم الخزرجي) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، نشره الدكتور نزار رضا ، بيروت ، ١٩٦٥ .

٨ — الاصفهاني : (أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الأموي) : الأغاني ، طبعة بيروت ، ١٩٥٦ .

٩ — الأعشي : ديوان الأعشي الكبير ميمون بن قيس ، شرح وتحقيق الدكتور محمد محمد حسين، بيروت، ١٩٦٨.

١٠ — ابن بسام : (أبو الحسن علي الشنتريني) : كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول من المجلد الأول، القاهرة ١٩٣٩ ، والقسم الأول من المجلد الثاني ، القاهرة ١٩٤٢ ، والقسم الرابع من المجلد الأول، القاهرة ، ١٩٤٥ .

١١ — ابن بشكوال : (أبو القاسم خلف بن عبد الملك) : كتاب الصلة في تاريخ أئمة الاندلس نشره فرنشسكو كوديرة ، في جزأين ، مديد، ١٨٨٣ وطبعة القاهرة ١٩٦٦ (مجموعة تراثنا) .

١٢ — ابن بطوطة : (أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللواتي) : رحلة ابن جبير ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ .

١٣ – البكري : (أبو عبيد الله بن عبد العزيز) : كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، من كتاب المسالك والممالك، نشره دي سلان، الجزائر ١٩١١.

١٤ – » : جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن الحجي ، بيروت ، ١٩٦٨ .

١٥ – » : معجم ما استعجم، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا، القاهرة ، ١٩٤٥ .

١٦ – ابن تغري بردي : (جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ١٩٣٢ .

١٧ – ابن جبير : (أبو الحسين محمد بن أحمد) : رحلة ابن جبير ، تحقيق وليم رايت ، ليدن ، ١٩٠٧ .

١٨ – الجزناءي : (أبو الحسن علي) : كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس، نشره الفريد بل ، الجزائر، ١٩٢٢.

١٩ – ابن جلجل : (أبو داود سليمان بن حسان الاندلسي) : طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق الأستاذ فؤاد السيد ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

٢٠ – ابن حزم : (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد) : جمهرة أنساب العرب ، نشره الأستاذ ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ ، وطبعة ١٩٦٢ .

٢١ – » : كتاب طوق الحمامة في الألفة والألاف ، نشره مع الترجمة الفرنسية الأستاذ ليون برشيه ، الجزائر ، ١٩٤٩ ، وطبعة بيروت (دار الحياة) .

٢٢ – ابن حزم : نقط العروس ، نشره الدكتور شوقي ضيف ، القاهرة ١٩٥١ .

٢٣ – الحميدي : (أبو عبد الله محمد بن فتوح) : جذوة المقتبس في ذكر رجال الأندلس ، تحقيق الاستاذ محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٣٧١ هـ ، وطبعة القاهرة ١٩٦٦ .

٢٤ – الحميري : (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم) : صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، نشره ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

٢٥ – ابن حوقل النصيبي : (أبو القاسم محمد بن علي) كتاب صورة الأرض ، نشر دار الحياة بيروت ، ١٩٦٣ .

٢٦ – ابن حيان : (أبو مروان حيان بن خلف بن حيان القرطبي) : كتاب المقتبس من أنباء أهل الاندلس : أربع قطع ، قطعة خاصة بعهد الامير عبد الله نشرها الأب ملشور أنطونيا ، باريس ١٩٣٧ – وقطعة خاصة بالمستنصر بالله نشرها الدكتور عبدالرحمن الحجي ، بيروت ، ١٩٦٥ – وقطعة خاصة بالسنين الاخيرة من عصر عبد الرحمن الاوسط ، نشرها الدكتور محمود علي مكي ، القاهرة ١٩٧١ – وقطعة خاصة بالأمير محمد بن عبد الرحمن (تحت الطبع) ونصوص خاصة بزيادة عبد الرحمن الأوسط في جامع قرطبة نشرها الأستاذ ليفي بروفنسال مجلة Arabica ، مجلد ١ ، قسم ١ ، ليدن ١٩٥٤ .

٢٧ — ابن خاقان : (الفتح) : مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، قسنطينة ، ١٣٠٢ هـ

٢٨ — » » : قلائد العقيان في محاسن الاعيان ، طبعة القاهرة، ١٣٢٠ هـ .

٢٩ — الخشني : (أبو عبد الله محمد) : تاريخ قضاة قرطبة ، نشره خليان ريبيرا ، مديد ، ١٩١٤ .

٣٠ — الخطيب : (زين الدين بن تقي الدين) : محاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الاوزاعي نشرها الأمير شكيب أرسلان ، بيروت ١٩٦٧ .

٢١ — ابن الخطيب : (لسان الدين أبو عبد الله محمد) : كتاب أعمال الاعلام، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت١٩٥٦ .

٣٢ — ابن الخطيب : نفاضة الجراب وعلالة الاغتراب، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٣٣ — ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، الجزء الأول ، (المقدمة) طبعة بيروت١٩٦١ وبقية الأجزاء طبعة بيروت، وطبعة بولاق ١٢٨٤ هـ .

٣٤ — ابن خلكان : (شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، طبعة محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٨ .

٣٥ — ابن دحية : المطرب في أشعار أهل المغرب ، تحقيق الأستاذ مصطفى عوض الكريم ، الخرطوم ، ١٩٥٤ .

٣٦ — ابن دراج القسطلي : ديوان ابن دراج القسطلي، نشر وتحقيق الدكتور محمود علي مكي ، دمشق ، ١٩٦١ .

٣٧ – ابن أبي زرع : (أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي) : كتاب روض القرطاس، نشره تورنبرج، أبسال ، ١٨٣٩.

٣٨ – ابن زيدون : ديوان ابن زيدون ، نشره الأستاذ كامل كيلاني، القاهرة ١٩٣٢ .

٣٩ – الزيري : (الأمير عبد الله بن بلكين) : مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب التبيان ، نشره ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٥٥ .

٤٠ – ابن سعيد المغربي : (علي بن موسى) : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

٤١ – السمهودي : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، القاهرة ، ١٣٢٦ هـ .

٤٢ – ابن سناء الملك : دار الطراز في عمل الموشحات ، تحقيق الدكتور جودة الركابي ، دمشق ١٩٤٩ .

٤٣ – ابن الشباط : (محمد بن علي بن محمد المصري التوزري) : صلة السمط وسمة المرط ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، مدريد ١٩٧١ .

٤٤ – الشقندي : (أبو الوليد اسماعيل بن محمد) : فضائل الأندلس ، نص من المقري ترجمه إلى الاسبانية الأستاذ غرسية غومس تحت عنوان :
Elogio del Islam espanol, Madrid, 1943.

٤٥ – ابن شهيد : (أبو عامر أحمد بن أبي مروان عبد الملك) : ديوان ابن شهيد الأندلسي ، تحقيق الأستاذ يعقوب زكي ، القاهرة .

٤٦ — ابن صاحب الصلاة : (عبد الملك بن محمد بن أحمد) : تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، تحقيق الأستاذ عبد الهادي التازي ، بيروت ١٩٦٤ . والقسم الخاص بمنشآت الموحدين في إشبيلية نشرها الأب ملشور انطونية بعنوان :

Sevilla y sus monumentos arabes, el Escorial. 1930.

٤٧ — الطبري : (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك ، طبعة مصر ١٣٩٩ ، وطبعة ليدن بعنوان Annales quos Scripsit نشره دي غوية ، ليدن ١٨٩٣ .

٤٨ — ابن عبد ربه : (أبو عمر أحمد بن محمد) : العقد الفريد، ج ٦ ، القاهرة ، ١٩٤٩ .

٤٩ — ابن عذاري : (أبو عبد الله محمد المراكشي) : البيان المغرب في أخبار الأندلس المغرب ، نشره الأستاذان ليفي بروفنسال وكولان ، ليدن ، ١٩٤٨ — ١٩٥١ ، وطبعة بيروت عن دوزى ، بيروت ١٩٥٠ في جزأين — والجزء الثالث ، نشره ليفي بروفنسال ، باريس ١٩٣٠ .

٥٠ — العذري : (أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائي): ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، والبستان في غرائب البلدان ، والمسالك إلى الممالك ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني ، مدريد ، ١٩٦٥.

٥١ — العمري : (شهاب الدين أحمد بن فضل الله) : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، ج ١ ، نشره الاستاذ أحمد زكي باشا ، القاهرة ، ١٩٢٤ .

٥٢ – ابن غالب : (محمد بن أيوب الاندلسي) : قطعة من كتاب فرحة الأنفس بعد الأربعمائة ، نشرها الدكتور أحمد لطفي عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

٥٣ – الغرناطي : (أبو حامد) : عجائب المخلوقات ، مخطوطة محفوظة بمكتبة أكسفورد تحت رقم Hunt 565 .

٥٤ – الغساني : (الوزير محمد بن عبد الوهاب) : رحلة الوزير في افتكاك الأسير ، نشرها سوفير Sauvaire ، مع الترجمة الفرنسية ، باريس ١٨٨٤ .

٥٥ – أبو الفداء : (الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل) : كتاب المختصر في أخبار البشر ، طبعة بيروت ، ١٩٥٦ – ١٩٥٩ .

٥٦ – ابن الفرضي : (أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف) : كتاب تاريخ علماء الاندلس ، تحقيق فرنشسكو كوديرة ، مدريد ، ١٨٩١ (جزآن) – وطبعة القاهرة ١٩٦٦ .

٥٧ – ابن القطان : (أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي الفاسي) جزء من كتاب نظم الجمان تحقيق الدكتور محمود علي مكي ، منشورات كلية الآداب جامعة محمد الخامس بالرباط ، تطوان (بدون تاريخ) .

٥٨ – القفطي : (جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف) : تاريخ الحكماء ، نشره يوليوس ليبرت Julius Lippert ، ليبزج ، ١٩٠٣ .

٥٩ — ابن القوطية : (أبو بكر محمد القرطبي) تاريخ افتتاح الاندلس ، نشره دون خليان ريبيرا بعنوان Historia de la conquista de Espana، مدريد ١٩٢٦ ، ومعه الرسالة الشريفية في الاقطار الأندلسية .

٦٠ — ابن الكردبوس : (أبو مروان عبد الملك التوزري) : تاريخ الاندلس ، وهو قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي ، مدريد ، ١٩٧١ .

٦١ — المراكشي : (عبد الواحد بن علي) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، نشره الاستاذان محمد سعيد العريان ، ومحمد العربي العلمي، القاهرة ١٩٤٩ ، وطبعة القاهرة ١٩٦٣ .

٦٢ — المسعودي : (أبو الحسن علي) : مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق الاستاذ محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٨ (في أربع أجزاء) .

٦٣ — المقدسي : (أبو عبد الله محمد بن أحمد البشاري) : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق دي غوية ، ليدن ، ١٩٠٦ .

٦٤ — المقري : (أحمد بن محمد) : نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب ، تحقيق الاستاذ محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٤٩ (الأجزاء الست الأولى) .

٦٥ — ابن المهدي : (أبو العباس) : نتيجة الاجتهاد، نشره الأستاذ الفريد بستاني ، العرائش ، ١٩٤١ .

٦٦ — مجهول : أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس ، نشره دون لافونتي القنطرة ،في مجموعة « Obras arabigas » ، مدريد ، ١٨٦٧ .

٦٧ — » : فتح الاندلس ، نشره دون خواكين جنثالث ، الجزائر ، ١٨٨٩ .

٦٨ — » : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، طبعة تونس ، ١٣٢٩ هـ .

٦٩ — » : مدونة من عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله، نشرها وقام بدراستها وترجمتها إلى الإسبانية الاستاذان ليفي بروفنسال وغرسية غومس بعنوان Una cronica anonima de Abd al -Rahman III al - Nasir, Madrid — Granada, 1950.

٧٠ — ابن منظور : (جمال الدين محمد) : لسان العرب ، طبعة دار صادر ، بيروت ١٩٥٥ .

٧١ — الهمذاني : (أبو بكر أحمد بن ابراهيم) مختصر كتاب البلدان ، نشره دي غوية ، ليدن ١٨٨٥ .

٧٢ — الونشريشي : (أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمساني) : أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر ، نشره الدكتور حسين مؤنس ، صحيفة المعهد المصري بمدريد ، المجلد الخامس ، ١٩٥٧ .

٧٣ — ياقوت الحموي : (شهاب الدين أبو عبد الله) : معجم البلدان ، طبعة بيروت ، ١٩٥٧ .

ثالثاً – المراجع العربية الحديثة والأوروبية المعربة

٧٤ – الأسد : (دكتور ناصر الدين) : القيان والغناء في العصر الجاهلي ، بيروت ، ١٩٦٠ .

٧٥ – أشباخ : (يوسف) : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة الاستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

٧٦ – أمين : (الاستاذ أحمد) : فجر الاسلام ، القاهرة ، ١٩٤٥ .

٧٧ – الأهواني : (دكتور عبد العزيز) : سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مجلد ١٦ ، ج ١ ، مايو ١٩٥٤ .

٧٨ – « : الزجل في الأندلس ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

٧٩ – بصمه جي : (الأستاذ فرج) : نبذة تاريخية عن طيسفون ، بغداد ، ١٩٦٤ .

٨٠ – بلاّ : (الاستاذ شارل) : ديوان ابن شهيد الأندلسي ، بيروت ، ١٩٦٣ .

٨١ – جنثالث بالنثيا : (الاستاذ آنخل) : تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة، ١٩٥٥ .

٨٢ – الحاجري : (دكتور طه) : ابن حزم ، صورة أندلسية ، القاهرة .

٨٣ – الحجي : (دكتور عبد الرحمن علي) تاريخ الموسيقى الأندلسية ؛ أصولها تطورها، أثرها على الموسيقى الأوروبية ، بيروت ، ١٩٦٩ .

٨٤ — حسن : (دكتور زكي محمد) : القصور الأموية في شرق الأردن، مقال بمجلة الكتاب، القاهرة ، ديسمبر، ١٩٤٥ .

٨٥ — حسن : (دكتور حسن ابراهيم) : تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، ج ٢ القاهرة ، ١٩٥٩ .

٨٦ — حسني عبدالوهاب : (الاستاذ حسن) : ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية ، قسم ٢ ، تونس ، ١٩٦٦ .

٨٧ — الحفني : (الدكتور محمود أحمد) : زرياب موسيقار الأندلس ، أعلام العرب ، رقم ٥٤ ، القاهرة .

٨٨ — » : اسحق الموصلي الموسيقار النديم ، أعلام العرب رقم ٥٤ ، القاهرة .

٨٩ — خليفة : (دكتور عبد الكريم) : ابن حزم : حياته وأدبه ، بيروت .

٩٠ — دوزي : (رينهارت) : ملوك الطوائف ، ترجمة الأستاذ كامل كيلاني ، القاهرة ، ١٩٣٣ .

٩١ — الرزقي : (الأستاذ الصادق) : الأغاني التونسية ، تونس ، ١٩٦٧ .

٩٢ — رستم : (دكتور أسد) : الروم وصلاتهم بالعرب، مجلدان، بيروت ، ١٩٥٥ .

٩٣ — الركابي : (دكتور جودة) : في الأدب الاندلسي ، دمشق، ١٩٥٥ .

٩٤ — رينان : (الاستاذ إرنست) : ابن رشد والرشدية، ترجمة الاستاذ عادل زعيتر ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

٩٥ — ســـالم : (دكتور السيد عبد العزيز) : بعض التأثيرات الاندلسية في العمارة المصرية الاسلامية ، المجلة ، عدد ١٢ ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

٩٦ — « : أثر الفن الخلافي بقرطبة في العمارة المسيحية بإسبانيا وفرنسا ، المجلة ، عدد ١٤ ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

٩٧ — « : مسجد المسلمين بطليطلة ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٥٨ .

٩٨ — « : المساجد والقصور بالأندلس ، سلسلة إقرأ ، عدد ١٩١ ، ١٩٥٨ .

٩٩ — « : التخطيط ومظاهر العمران في العصور الاسلامية الوسطى ، المجلة ، عدد ٩ ، ١٩٥٧ .

١٠٠ — « : مقالات عديدة في كتاب الشعب رقم ٦١ ، ٦٤ ، ٦٧ بعنوان :

اشبيلية ، دائرة معارف الشعب ، عـدد ٦١ ، القاهرة ، ١٩٥٩ .

فن الغناء والموسيقى ، عدد ٦١، القاهرة، ١٩٥٩

العمارة الدينية بالأندلس، « « « «

العمارة المدنية بالاندلس، عدد ٦٤، « «

الصناعات والفنون بالاندلس عدد ٦٤ « «

الحياة العلمية والادبية بالاندلس « « «

الحكم المستنصر ، عدد ٦٧ « «

١٠١ — « : المآذن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها القاهرة ، ١٩٥٩ .

١٠٢ – سالم : بيوت الله مساجد ومعاهد ، كتاب الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

١٠٣ – » : القيم الجمالية في فن العماره الاسلامية ، بيروت ، ١٩٦٢ .

١٠٤ – » : تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦١ والطبعة الثانية ، ١٩٦٩ .

١٠٥ – » : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٢ .

١٠٦ – » : طرابلس الشام : تاريخها وآثارها في العصر الاسلامي ، مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية ، الاسكندرية ١٩٦٣ .

١٠٧ – » : تخطيط مدينة الاسكندرية وعمرانها في العصر الاسلامي ، بيروت ، ١٩٦٤ .

١٠٨ – » : التأريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ، ١٩٦٧ .

١٠٩ – » : المغرب الكبير ، الجزء الثاني : العصر الاسلامي ، الاسكندرية ، ١٩٦٦ .

١١٠ – » : طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦٧ .

١١١ – » : ما لا يعرفه المسلمون عن حواضر الاندلس : طليطلة ، مجلة الفكر الاسلامي ، السنة الأولى ، عدد ٥ ، بيروت ١٩٧٠ .

١١٢ – » : تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، بيروت ١٩٧٠ .

١١٣ – » : تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، بيروت ١٩٦٩ .

١١٤ – » : تاريخ الدولة العربية ، بيروت ، ١٩٧١ .

١١٥ ـ سالم والعبادي : (دكتور مختـار) تاريخ البحرية الاسلامية في المغرب والاندلس ، بيروت ، ١٩٦٩ .

١١٦ ـ سالم : أضواء على مشكلة تأريخ بنيان المسجد الجامع بقرطبة ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد، ١٩٦٩ .

١١٧ ـ الشكعة : (دكتور مصطفى) : الأدب الأندلسي : موضوعاته ومقاصده ، بيروت ١٩٧٢ .

١١٨ ـ شلومبرجه : (دانيال) : قصر الحير الغربي ، ترجمة الياس أبو شبكة ، بيروت ، ١٩٤٥ .

١١٩ ـ الشيال : (دكتور جمال الدين) : التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي في عصر النهضة ، بيروت ١٩٦٩ .

١٢٠ ـ شيخاني : (الأستاذ سمير) : أشهر المغنين عند العرب ، بيروت ، ١٩٦٢ .

١٢١ ـ الصوفي : (الدكتور خالد) : تاريخ العرب في إسبانيا في نهاية الخلافة الأموية ، حلب ، ١٩٦٣ .

١٢٢ ـ ضيف : (الدكتور شوقي) : ابن زيدون ، القـاهرة ، ١٩٥٩ .

١٢٣ ـ » : الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية ، بيروت ، ١٩٦٧ .

١٢٤ ـ طباره : (الاستاذ شفيق) : الإمام الأوزاعي ، بيروت، ١٩٦٥ .

١٢٥ – طرخان : (دكتور ابراهيم) : دولة القوط الغربيين ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

١٢٦ – عاقل : (دكتور نبيه) : الغناء والمغنون في الجاهلية وصدر الاسلام ، مجلة العربي ، عدد ٥٠ ، ١٩٦٢

١٢٧ – العبادي : (الأستاذ عبد الحميد) : صور وبحوث من التاريخ الاسلامي ، القاهرة ، ١٩٥٣ .

١٢٨ – « : المجمل في تاريخ الأندلس ، المكتبة التاريخية عدد ١ ، القاهرة ١٩٥٨ .

١٢٩ – « : (الدكتور أحمد مختار) : الأعياد في مملكة غرناطة ، مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد، ١٩٧٠ .

١٣٠ – عباس : (دكتور إحسان) : تاريخ الأدب الاندلسي ، المكتبة الأندلسية ، عدد ٢ ، بيروت ، ١٩٦٠ .

١٣١ – عبد البديع : (دكتور أحمد لطفي) : الاسلام في إسبانيا ، المكتبة التاريخية ، عدد ٢ ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

١٣٢ – عبد الحميد : (دكتور سعد زغلول) : تاريخ الاسكندرية منذ الفتح العربي حتى العصر الفاطمي ، مقال في كتاب تاريخ الاسكندرية منذ أقدم العصور ، الاسكندرية ، ١٩٦٣ .

١٣٣ – عبد المجيد : (دكتور حسين أمين) : المسجد المعهد الأول للتعليم عند المسلمين ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٨ .

١٣٤ – عتيق : (دكتور عبد العزيز) : ابن أبي عتيق ، ناقد الحجاز : أخباره ونقده ، بيروت ،١٩٧٢ .

١٣٥ – غنيمة : (الاستاذ يوسف رزق) : الحيرة المدينة والمملكة العربية ، بغداد ، ١٩٣٦ .

١٣٦ – غومس : (الاستاذ إميليو غرسية) : الشعر الأندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٦.

١٣٧ – فارمر : (هنري جورج) تاريخ الموسيقى الأندلسية ، ترجمة الدكتور حسين نصار ، القاهرة ، ١٩٥٦ .

١٣٨ – فكري : (دكتور أحمد) : المسجد الجامع بالقيروان ، القاهرة ، ١٩٣٢ .

١٣٩ – » : المدخل إلى مساجد القاهرة ومدارسها ، الاسكندرية ، ١٩٦١ .

١٤٠ – ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس ، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم والاستاذ صلاح الدين حلمي ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

١٤١ – » : محاضرات في أدب الأندلس وتاريخها ، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي شعيرة ، الاسكندرية ، ١٩٥١ .

١٤٢ – محمود : (دكتور حسن) وكاشف (دكتورة سيدة) : مصر في عصر الطولونيين والاخشيديين ، القاهرة ١٩٦١ .

١٤٣ – محمود : (دكتور حسن) : قيـــام دولة المرابطين ، القاهرة ، ١٩٥٧ .

١٤٤ – مرزوق : (دكتور محمد عبد العزيز) : الفنون الزخرفية الاسلامية في المغرب والأندلس، بيروت ١٩٧٢.

١٤٥ – مؤنس : (دكتور حسين) : فجر الأندلس ، القــاهرة ، ١٩٥٩ .

١٤٦ – » : تاريـــخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مدريد ، ١٩٦٧ .

١٤٧ – مورينو : (الاستاذ مانويل غومس) : الفن الاسلامي في إسبانيا ، ترجمة الدكتور لطفي عبد البديــع ، والدكتور السيد عبد العزيز سالم، القاهرة ١٩٦٨.

١٤٨ – الناضوري : (دكتور رشيد) : المدخل في التطور التاريخي للفكر الديني ، بيروت ، ١٩٦٩ .

رابعا – المراجع الأوروبية الحديثة

A

1 — al-Ahwani (Abdal-Aziz) : el Kitab al-Maqtataf min Azahir al-Turaf, de Ibn S'aid, al-Andalus, vol. XIII, 1948.
2 — Alarcon (M.) & de Linares : Documentos arabes diplomaticos del archivo de la Corona de Aragon, Madrid, 1940.
3 — Antuna (P. Melchor) : La corte Literaria de Alhaquém II en Cordoba, el-Escorial, 1929.
4 — Arellano (R. Ramirez de) : Historia de Cordoba, Ciudad Real, 1915 - 1919.

B

5 — Beylié (général de) : La Kala'a de Beni Hammad, Paris, 1909.
6 — Boigues (Francisco Pons) : Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y geografos arabigo espanoles, Madrid, 1926.
7 — Bosco (Ricardo Velasquez) : Medina Azzahra y Alamiriya, Madrid, 1912.
8 — ———— : Excavaciones en Medina Azzahra, Madrid, 1923.
9 — Brisch (Klaus) : Las celosias de las fachadas de la gran mezquita de Cordoba, al-Andalus, vol. XXVI, 1961.

C

10 — Cagigas (Isidro de las) : Andalucia musulmana, Madrid, 1950.
11 — Valvert (Albert) & Gallichan (W.) : Cordova a city of the Moors, London, 1907.
12 — Calzada : Historia de la arquitectura espanola, Madrid.
13 — Camon Aznar (José) : La boveda gotica-morisca, de la capilla de Talavera en la Catedral Vieja de Salamanca, al-Andalus, vol. V, 1940.
14 — Camps y Cazorla (E) : Arquitectura califal y Mozarabe, Cartillas de la arquitectura espanola, t. IV, Madrid, 1929.
15 — ———— : Modulos, proporciones y composicion, en la arquitectura califal cordobesa, Madrid, 1953.
16 — Castejon (Rafaél) : Guia de Cordoba, Madrid, 1930.
17 — ———— : Cordoba Califal, Boletin de la Real Academia de ciencias, Bellas Letras y Nobles Artes de Cordoba, ano VIII, No. 25, 1929.

18 — Castejon : La Portada de Mohammad I, en Boletin de la Real Academia de Bellas Letras y Nobles Artes de Cordoba, No. 51, 1944.
19 — ———— : Nuevas excavaciones en Medina al-Zahra, el Salon de Abd er Rahman III, al-Andalus, 1945.
20 — ———— : El Pavimento de la mezquita de Cordoba, Boletin de la Real Academia de B.L. y N.A. de Cordoba, No. 54, 1945.
21 — ———— : Mas sobre el pavimento de la mezquita de Cordoba, Boletin de la Real Academia de B.L. y N.A. de Cordoba, No. 56, 1946.
22 — ———— : Excavaciones del plan nacional en Medina Azahara, (Cordoba), Campana 1943, Madrid 1945.
23 — Creswell (K.A.C.) : Early Muslim Architecture; Umayyads, Early Abbassids and Tulunids, vol. II, Oxford, 1938.
24 — ———— : A short account of Early muslim architecture, Penguin Series, 1958.

D

25 — Diehl (Charles) & Marçais (Georges) : Histoire du Moyen âge, t. III, Paris, 1936.
26 — Dozy (R.) : Histoire des Musulmans d'Espagne, nouvelle édition, Leiden, 1932.
27 — ———— : Supplément aux dictionnaires arabes, 2 vols. Beyrouth, 1968, d'après l'édition de Leyden 1881.
28 — ———— & Engelmann; Glossaire des mots espagnols et Portugais, Leiden.

E

29 — Enciclopedia Espasa Calpe, art. Cordoba.
30 — Ettinghausen (Richard) : Arab Painting, collection Skira.

F

31 — Ferrandis (José) : Marfiles arabes de Occidente, 2 tomos, Madrid, 1935.
32 — Fikry (Ahmad) : La mosquée az-Zaytoûna à Tunis, Recherches archéologiques, dans Egyptian Society of historical studies, vol. II, Cairo, 1952.
33 — ———— : L'art Roman du Puy et les influences islamiques, Paris, 1935.

G

34 — Garcia Gomez (Emilio) : Algunas precisiones sobre la ruina de Cordoba omeya, al-Andalus, vol. XII, 1947.
35 — ———— : Al-Hakam II y los Berberes, al-Andalus, vol. XIII, 1948.
36 — ———— : Una descripcion desconocida del Alminar de la Mezquita de Cordoba, al-Andalus, vol. XVII, 1952.
37 — Guichot (Joaquin) : Historia general de Andalucia, t. I, Madrid, 1869.

J

38 — Jimenez (Felix Hernadez) : El Alminbar movil del siglo X de la Mezquita de Cordoba, al-Andalus, vol. XXIV, 1959.
39 — ———— : La techumbre de la gran Mezquita de Cordoba, en Archivo espanol de arte y arqueologia, t. XII, 1928.
40 — Jimenez (Manuel Ocana) : Capiteles epigrafiados del Alcazar de Cordoba, al-Andalus, vol. III, 1935.
41. — ———— : Las puertas de la Medina de Cordoba, al-Andalus, vol. III, 1935.
42 — ———— : Capiteles epigrafiados de Madinat al-Zahra y capiteles epigrafiados del bano del Albaïcin en Granada, al-Andalus, vol. IV, 1936.
43 — ———— : Capiteles fechados del siglo X, al-Andalus, vol. V, 1940.
44 — ———— : La Basilica de San Vicente y la gran Mezquita de Cordoba, al-Andalus, 1942.
45 — ———— : Inscripciones arabes descubiertos en Madinat al-Zahra, en 1944, al-Andalus, vol. X, 1945.
46 — ———— : Nuevas inscripciones arabes de Cordoba, al-Andalus, vol. XVII, 1952.

L

47 — Lambert (Elie) : L'architecture musulmane du Xe siècle à Cordoue et à Tolède, Gazette des Beaux arts, t. XII, 1925.
48 — ———— : Les voûtes nervées hispano musulmanes du XIe siècle et leur influence possible sur l'art chrétien, Hespéris, 1928.
49 — ———— : De quelques incertitudes dans l'histoire de la grande mosquée de Cordoue, Annales de l'Institut des Etudes Orientales de l'Université d'Alger, t. I, 1934-1935.
50 — ———— : Las tres étapas constructivas de la Mezquita de Cordoba, al-Andalus, 1935.

51 — Lambert : L'histoire de la grande mosquée de Cordoue au VIIIe et IXe siècles, Annales de l'Institut des études orientales de l'Université d'Alger, vol. II, 1936.
52 — ———— : Précisions nouvelles sur l'œuvre d'al-Hakam II dans la grande mosquée de Cordoue, Annales de l'Institut des études orientales de l'Université d'Alger, 1936.
53 — ———— : Les coupoles des grandes mosquées de Tunisie et de l'Espagne au IXe et Xe siècles, Hespéris, t. XXII, fasc. 2, 1936.
54 — ———— : Les origines de la croisée d'ogives, dans : Office des Instituts d'archéologie et d'histoire d'art, 1937.
55 — ———— : L'hôpital Saint Blaîse et son église hispano-mauresque, al-Andalus, 1940.
56 — ———— : La mosquée de Cordoue et l'art byzantin, Actes du VIe congrès international d'études byzantines, Paris, 1948-1951.
57 — ———— : Les Mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al-Andalus, vol. XIV, 1949.
58 — ———— : L'art de l'Islam occidental, Annales de l'Université de Paris, 1953.
59 — Lévi-Provençal : Inscriptions arabes d'Espagne, 2 tomes, Paris, 1931.
60 — ———— : L'Espagne musulmane au Xe siècle, Paris, 1932.
61 — ———— : La politica africana de Abd al-Rahman III, al-Andalus, vol. XI, 1946.
62 — ———— : En relisant le Collier de Colombe, al-Andalus, vol. XV, 1950.
63 — ———— : Las ciudades y las instituciones urbanas, Tetuan, 1950.
64 — ———— : La description de l'Espagne de Razi, al-Andalus, vol. XVIII, 1953.
65 — ———— : Histoire de l'Espagne musulmane, 3 tomes, Leiden, 1950-1954.

M

66 — Mâle (Emile) : Art et Artistes du Moyen âge, Paris, 1947.
67 — Makki (Mahmud) : Egipto y los origines de la historiagrafia arabe espanola, Revista del Instituto de Estudios islamicos de Madrid, vol. V, No. 1, 2, 1957.
68 — Marçais (G.) : Manuel d'art musulman, t. I, Paris 1926.
69 — ———— : Echanges artistiques entre l'Egypte et l'Islam

occidental, Hespéris, t. XIX, fasc 2, 1934.
70 — Marçais : La Berberie musulmane et l'Orient au Moyen âge, Paris, 1946.
71 — ————— : L'architecture musulmane d'Occident, Paris 1954.
72 — Maslow (Boris) : La Qubba Barudiyyin à Marrakech, al-Andalus, 1948.
73 — Moreno (Manuel Gomez) : Excursion à traves del arco de herradura, Revista de Cultura espanola, Madrid, 1906.
74 — ————— : La civilizacion arabe y sus monumentos en Espana, Revista de Arquitectura, Madrid, 1919.
75 — ————— : Iglesias Mozarabes, Madrid, 1919.
76 — ————— : el Arte en Espana y el Mogreb, Coleccion de Arte del Islam, Labor.
77 — ————— : el Entrecruzamiento de arcadas en la arquitectura arabe, Cordoba, 1930.
78 — ————— : el arte romanico espanol, Madrid 1934.
79 — ————— : Ars Hispaniae, t. III : arte arabe espanol hasta los Almohades, Madrid, 1951.

P

80 — Palencia (A. Gonzlez) : Moros y Cristianos en Espana Medieval, Madrid, 1945.
81 — Pérès (Henri) : La poésie andalouse en arabe classique au XIe siècle, Paris, 1937.
82 — Pijouan (José) : Summa Artis, historia general del arte, t. XII, Madrid, 1949.
83 — Prangey (Girault de) ; Essai sur l'architecture des Arabes et des Mores en Espagne, en Sicile et en Berberie, Paris, 1841.
84 — Priego (Rafael Aguilar) : Datos inéditos sobre la restauracion del mihrab de la Mezquita de Cordoba, Boletin de la Real Academia de Cordoba, No. 53, 1945.
85 — Prieto y Vives (Antonio) : Los Reyes de Taïfas, estudio historico numismatico de los Musulmanes espanoles, en el siglo V de la hegira, Madrid 1926.

R

36 — Remiro (Mariano Gaspar) : Historia de Murcia musulmana, Zaragoza, 1905.
87 — Répertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe, t. V, le Caire, 1934.

88 — Ricard : Pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique du Nord et en Espagne, Paris 1924.
89 — Rios (Amador de los) : Inscripciones arabes de Cordoba, Madrid, 1892.
90 — Rios (Francisco Abad) : Zaragoza, coleccion de guias artisticas de Espana, Barcelona, 1952.

S

91 — Saavedra (Eduardo) : Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892.
92 — Salem (al-Sayyid) : Cronologia de la Mezquita mayor de Cordoba levantada por Abd al-Rahman I, al-Andalus, vol. XIX, 1954.
93 — Sanchez - Albornoz : Historia de la Espana musulmana, Buonos-Aires, 1946.
94 — Sauvaget (Jean) : Les monuments historiques de Damas, Beyrouth, 1932.
95 — ———— : La mosquée omeyyade de Médine, étude sur les origines architecturales de la mosquée et la basilique, Van Oest, 1947.
96 — Schmidt : Cordoue et Grenade, collection « villes d'art célèbres », Paris, 1906.
97 — Simonet (Francisco Javier) : Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid, 1897.
98 — Stern : Les vers finaux en espagnol dans les Muwassahs hispano hebriques, al-Andalus, 1948.

T

99 — Terrasse (Henri) : L'art hispano mauresque dès origines au XIIIe siècle, Paris, 1932.
100 — ———— : La mosquée des Andalous à Fès, Publications de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, t. 38, Paris.
101 — ———— : Histoire du Maroc, t. I, Casablanca, 1949.
102 — Térès (Elias) : Abbas ibn Nasih, poète y Qadi de Algeciras, en : Etudes d'orientalisme dédiées à la mémoire de Lévi-Provençal, Paris, 1962.
103 — Torres Balbas (Leopoldo) : La Progenie hispano musulmana de las primeras bovedas nervades francesas, al-Andalus, vol. III, 1935.
104 — ———— : Intercambios artisticos entre Egipto y el Occidente musulman, al-Andalus, vol. III, 1935.
105 — ———— : Las norias fluviales en Espana, al-Andalus, vol. V, 1940.
106 — ———— : Nuevos datos sobre la mezquita de Cordoba, al-Andalus, vol. VI, 1941.

107 — ———————— : La primitiva mezquita mayor de Sevilla, al-Andalus, vol. XI, 1946.
108 — ———————— : Arquitectos andaluces de las epocas almoravide y almohade, al-Andalus, 1946.
109 — ———————— : la Portada de San Esteban, al-Andalus, vol. XII, 1947.
110 — ———————— : Ars Hispaniae, t. IV : arte almohade, arte Nasari, arte Mudejar, Madrid, 1949.
111 — ———————— : Nuevos datos sobre la mezquita de Cordoba Cristianizada, al-Andalus, vol. XIV, 1949.
112 — ———————— : el arte de al-Andalus bajo los Almoravides, al-Andalus, vol. XVII, 1952.
113 — ———————— : La mezquita de Cordoba y Madinat al-Zahra, Madrid 1952.
114 — ———————— : La Medina, los arrabales y los barrios, al-Andalus, 1952.
115 — ———————— : La mezquita de al-Qanatir y el Santuario de Alfonso el Sabio en el puerto de Santa Maria, al-Andalus, vol. VII, 1952.
116 — ———————— : La mezquita mayor de Almeria, al-Andalus, vol. XVIII, 1953.
117 — ———————— : Extension y demografia de las ciudades hispano musulmanas, Studia Islamica, vol. III, 1955.
118 — ———————— : Medina al-Zahira, la ciudad de Almanzor, al-Andalus, vol. XXI, 1956.
119 — ———————— : Cementerios hispano-musulmanes, al-Andalus, vol. XXII, 1957.
120 — ———————— : Arte hispanomusulman hasta la caida del califato de Cordoba, en Historia de Espana, dirigida por Don Ramon Menendez-Pidal, t. V, Madrid, 1957.
121 — ———————— : La via Augusta y el arrecife musulman, al-Andalus, vol. XXIV, 1959.
122 — Torres (E. Romero de) : Restauraciones desconocidas en la Mezquita Aljama de Cordoba, Boletin de la Real Academia de ciencias, B.L. y N.A. de Cordoba, No. 62.

V

123 — Van Berchem (Max) : Voyage en Syrie, dans Mémoires de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire, t. 37, le Caire, 1914.

W

124 — Wiet (Gaston) & Hautecœur : Les mosquées du Caire, Paris, 1932.

Z

125 — Zuniga (Diego Ortiz de) : Anales Eclesiasticas y Seculares, 3 tomos, Madrid 1796.

فهرس موضوعات الكتاب

بجزأيه الأول والثاني

فهرس موضوعات الجزء الاول

صفحة

القسم الاول

التاريخ الاسلامي لمدينة قرطبة

الفصل الاول

قرطبة منذ الفتح الاسلامي حتى قيام دولة بني أمية

صفحة

الفصل الثاني

قرطبة في عصرها الذهبي : عصر دولة بني أمية

الفصل الثالث

سقوط الخلافة الأموية وأثره في اضمحلال قرطبة

الفصل الرابع

عصر التخلف : من قيام دولة بني جهور حتى سقوط قرطبة في أيدي القشتاليين

* * *

القسم الثاني

التخطيط والعمران

الفصل الخامس

التطور العمراني والتخطيط منذ الفتح الاسلامي حتى انتهاء قرطبة في التوسع

الفصل السادس

معالم قرطبة ومنتزهاتها في العصر الاسلامي

صفحة

صفحة

* * *

القسم الثالث

آثار قرطبة الباقية

الفصل السابع

جامع قرطبة (الدراسة التاريخية)

صفحة

الفصل الثامن

جامع قرطبة (الدراسة الفنية)

صفحة

فهرس موضوعات الجزء الثاني

صفحة

الفصل العاشر

تأثير العمارة الخلافية بقرطبة في فنون العمارة المسيحية والاسلامية

* * *

القسم الرابع

التراث الفني والعلمي

الفصل الحادي عشر

فن الغناء والموسيقى

الفصل الثاني عشر

الفنون الصناعية

الفصل الثالث عشر

التراث العلمي